# المشكلة السكانية



## تمهيد

ربما لم يحظ موضوع من الموضوعات المتعلقة بالانسان من الاهتمام قدر ما يحظى به الان موضوع السكان وتكاثرهم ومصيرهم ، وما يتعلق بذلك من مشكلات توفير الطعام والخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية وفرص العمل لهم ، وثمة ما يدل على ان ذلك الاهتمام امر قديم يرجع الى اولى العصور التي لدينا عنها معلومات وثيقة مؤكدة ، فبعض النقوش والكتابات المصرية القديمة مثلا تشير الى الزيادة او النقصان في عدد السكان في مصر واثر ذلك على الحياة الاقتصادية المرتبطة ارتباطا وثيقا بحالة فيضان النيل ، كما ان اليونان والرومان اهتموا بمشكلة تزايد او نقصان السكان ولكن لاعتبارات مختلفة هي في الاغلب اعتبارات عسكرية وحربية ، خاصة وان المجتمع الروماني بالذات كان يعطي الناحية العسكرية قدرا كبيرا من العناية والاهتمام ، ثم انتقل ذلك الاهتمام الى كثير من فلاسفة وكتاب العصور الوسطى الذين اهتموا بالحياة الاجتماعية ، وقد يكفي ان نشير هنا الى **ابن خلدون** الذي تعرض في مقدمته المشهورة لمشكلة زيادة

السكان والعلاقة بينها وبين العمران في فصل يحمل عنوان ( فصل في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرزق لأهلها ونفاق الاسواق انما هو تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة ) وهو عنوان له دلالته ومغزاه ، الا انه يمكن القول على العموم ان المشكلة لم تدخل المجال العلمي الدقيق الا منذ القرن الثامن عشر ، وعلى الخصوص حين كتب **مالتوس** Malthus مقالته القصيرة الشهيرة عن مشكلة السكان التي لم تلبث ان تضخمت وتعمقت بعد عدة مراجعات ، بحيث وصلت في آخر الامر الى كتاب من ثلاثة اجزاء وان كان يحمل نفس العنوان الاصلي وهو **« مقال عن مبدا السكان** An essay on the Principle of Population » وفي هذا الكتاب يوجه مالثوس الانظار ـ ربما لاول مرة ـ بشكل منهجي الى اختلال التوازن بين زيادة السكان وزيادة الطعام اختلالا شديدا ينذر بكثير من الاخطار والشرور ، وفي الوقت ذاته تقريبا تجد عالم الاجتماع البلجيكي الشهير **كتيليه** Quetelet يهتم بدوره بدراسة السكان مستخدما المنهج الاحصائي للتعرف على الظواهر السكانية المختلفة ، وتعتبر كتابات مالثوس وكتيليه البداية الحقيقية للدراسات السكانية ، وان كان ثمة ميل الى اغفال دور كتيليه الذي لم يقدر لدراسته ان تجد من الذيوع والانتشار ما اتيح لكتاب مالثوس ، ومن هنا كان مالثوس يعتبر اهم من لفت الانظار الى خطورة المشكلة السكانية التي ارتبطت باسمه منذ ذلك الحين حتى الان .

ومع ذلك فانه يمكن القول ان الفضل يرجع في آخر الامر الى العلماء الامريكيين في تطوير علم السكان ، والوصول به الى المستوى الذي بلغه في الوقت الحالي من الدقة والعمق ، وبخاصة بعد ان بدا عدد من علماء الاجتماع والانثربولوجيا الذين اهتموا بدراسة الظواهر السكانية يتعرضون لجوانب جديدة لم يهتم بها علماء السكان الاوائل ، مثل التغيرات التي تطرا على التركيب السكاني نتيجة للتقدم التكنولوجي والصناعي ، الذي يعتبر من اهم سمات الحضارة الحديثة ، واستخدام الآلات وما ترتب عليه من ظهور علوم جديدة كان لها تطبيقاتها في مجال الصناعة والعلم ، مثل علوم الكومبيوتر والسبرناطيقا او التوجيه الذاتي للآلات ، ثم الاتجاه نحو ( الاتوميشن ) او التحكم الذاتي في الآلات ، وتاثير ذلك كله على القوى العاملة والادارة والكفاءات المختلفة في المجتمع الصناعي الحديث ، بل واثر التصنيع على البيئة الطبيعية وما نجم عن ذلك من تلوث الهواء والماء والتربة ، وتاثير ذلك التلوث في البشر وفي موارد الثروة الزراعية والحيوانية . فهذه كلها مجالات جديدة تماما لم يتطرق اليها علماء الاجتماع والسكان والانثربولوجيا الا منذ الستينات من هذا القرن .

وكل هذا معناه انه على الرغم من كل مايقال عن قدم وعراقة الاهتمام بالمشكلة السكانية ، فان الادراك الحقيقي للمشكلة في كل ابعادها تمت معالجتها كمشكلة عالمية تواجه المجتمع الانساني باسره ، وليست كمشكلة محلية يعاني منها مجتمع معين بالذات هو امر حديث الى حد كبير جدا ، ولقد تمثل هذا الوعي او الادراك بوجه خاص في اهتمام هيئة الامم المتحدة بها ، بحيث عقدت في السنوات الاخيرة عددا من المؤتمرات العامة ، لعل من اهمها مؤتمر بلغراد الذي عقد في اغسطس ١٩٦٥ ، ثم اعتبار العام الحالي ( ١٩٧٤ ) هو السنة الدولية للسكان ، وفيها عقد اكثر من مؤتمر عالمي ، وعدد من الندوات والحلقات الدراسية تناولت كلها مشكلة تزايد السكان وعلاقة ذلك على الخصوص بتوفر الطعام والنتائج التي قد تنجم من ذلك .

ومع التسليم بان السكان فى العالم يتزايدون بسرعة رهيبة فان هذا لا يعني ان تلك الزيادة متساوية ومتماثلة فى كل المجتمعات او الدول ،بل ان ثمة اختلافات وفوارق محلية واسعة يجب ان تؤخذ في الاعتبار . يضاف الى ذلك ان المشكلةالاساسية لا تتمثل فى الحقيقة فى مجرد الزيادة العددية في حد ذاتها ، بل انها تكمن بالاحرى فى اختلال معدلات الزيادة فى السكان ونمو الامكانيات الاقتصادية، ومما يزيد من وقع المشكلة انالزيادةالسكانية تحدث بشكل اكبر فى الدول المتخلفة اقتصاديا وثقافيا ، وقد وصل بعضها الى حدالانفجار السكاني فى السنوات الاخيرة ، ثم ان هذه الزيادة ليس مرجعها فى كل الاحوال الزيادةالطبيعية عن طريق الولادة وحدها ، وانما هناك عوامل مساعدة تتمثل في تقدم الطب والعنايةبالصحة والخدمات الاجتماعية ؛ مما ادى الى السيطرة على انتشار الامراض والاوبئة وماترتبعليها كلها من انخفاض معدلات وفيات الاطفال على الخصوص وارتفاع متوسط العمر ، ومع انمن اصعب الامور التكلم بدقة عن معدلات المواليد والوفيات فى المجتمعات البدائية ، وفى كثير منالمجتمعات النامية ، ومع انه من الصعب ايضا القول بما اذا كانت درجة خصوبة الجنسالبشرى ارتفعت عما كانت عليه من قبل ، فان التحسن الملحوظ فى مستوى الخدمات مسئول بغير شكعن كثير من هذه الزيادة ( انظر على العموم كتاب الدكتور عبد الكريم اليافي عن : علم السكان ،صفحات ١ — ٧ ) .

وكل هذا من شانه ان يدفع الى التساؤل :ما هو موقف العلماء من هذه الزيادة المطردة السريعة فى السكان ؟ وهل هناك موقف موحدازاء هذه الزيادة المذهلة ؟

•••

الواقـع ان العلماء ينقسمون ازاء هـذهالمشكلة الى قسمين او فئتين تتعارض افكارهما ، كل التعارض ، احداهما مع الاخرى حول مصيرالانسان ومستقبل المجتمع الانساني اذا ظل السكان فى العالم يتزايدون بغير ضابط او قيود ،والطريف في الامر ان كلا من هاتين الفئتين من العلماء يعتمدون فى آرائهم وافكارهم على بعضالحسابات والتقديرات العلمية ، وعلى اعتبارات انسانية ودينية واجتماعية معا ، ولكن بينما تنظرالفئة الأولى من العلماء الى مستقبل الانسان نظرة متشائمة الى ابعد حدود التشاؤم ، تعالج الفئةالاخرى المشكلة بنظرة ملؤها التفاؤل والأمل .

وقد تكون النظـرة المتشـائمة هي اقدمالنظرتين ، او على الاقل هي التي نبهت الاذهان الى مشـكلة الزيادة السـكانية وازدحام العالمبسكانه بشكل ينذر بالخطر . والمعروف ان زعيم هذا الاتجـاه التشاؤمي هـو **مالتوس** الذى نشررايه فى كتابه الذى سبقت الاشارة اليه ، ثم لم تلبث دعوته الى الحد من تكاثر السكان ان انتشرتبين اوساط كثـيرة مختلفة من العلماء والكتاب ضمت عددا من المفكرين الاقتصـاديين ، ورجالالدين المسيحي من البروتستانت ، وبعض العلماء الاجتماعيين الديموقراطيين ، بالاضافة الى عددمن المحافظين الماديين . ويستند اصـحاب هذه النظرة فى تبرير موقفهـم من ضرورة الحـد منسرعة التكاثر الى الخوف والاشفاق مما سوف يتعرض له الجنس البشرى من بؤس وشقاء وجوعوامراض واوبئة وفقر نتيجة لاختلال التوازن بين الموارد الطبيعية وسكان العالم . ومع ذلك فالظاهرعلى ما يقول الاستاذ **سوفي** Sauvey ان ثمة بعض العوامل الانانية الاخرى تكمن وراء هذه الدعوة ،وهي عوامل تتمثل الى حد كبير في خوف الاغنياء

من ان يضطروا الى اقتسام الموارد مع من هم اكثر منهم فقرا واشد احتياجا ، ثم ان الزيادة السكانية قد تؤدي الى ثورة الجماهير الفقيرة على الملاك واصحاب الاراضي واصحاب رؤوس الاموال ، والى تفتيت الملكيات وما يرتبط بهذا كله من حرمان الاغنياء من بعض ممتلكاتهم ، فكان هذه الدعوة لا تصدر دائما عن الرغبة المخلصة في تحقيق خير الانسان والمحافظة على انسانيته وكرامته من ان تهدر بسبب المتاعب التي تنجم عن تلك الزيادة السكانية غير المنظمة .

اما اصحاب النظرة الاخرى المتفائلة ( وفيهم ايضا عدد من رجال الاقتصاد والاجتماع والدين من الكاثوليك الذين يحرمون وضع اية قيود على النسل او تحديده ) فانهم يرون ان هناك قدرا كبيرا من المبالغة والمغالاة في التخوف من مصير الجنس البشري ، وما سوف يتعرض له من مجاعات وامراض . فلا يزال العالم في نظرهم مليئا وزاخرا بموارد طبيعية كثيرة لم تستغل بعد ، كما ان هناك مناطق ومساحات هائلة من الارض لا تزال تغطيها الغابات والاحراش ، كما هو الحال في افريقيا مثلا ، وتطهير هذه الاراضي الفسيحة من الغابات وزراعتها يمكن ان يوفر الطعام لآلاف الملايين من البشر ، يضاف الى ذلك الموارد الغذائية الموجودة في اعماق البحار والمحيطات والتي لم تستغل حتى الآن ، بل ان تقدم العلم سيؤدي بالضرورة الى ايجاد انواع جديدة من الطعام الصناعي او غير الطبيعي تتوفر فيه كل الامكانيات الغذائية التي يتطلبها الانسان ، وكل ما يحتاج اليه الامر هو ان يغير البشر من عاداتهم الغذائية ، وهي مسالة يمكن تحقيقها بالتدريج وعن طريق التربية والتوجيه والتدريب .

وليس من شك في ان المناخ الفكري العام الذي كان يسود اوروبا في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر كان من العوامل الاساسية التي ساعدت على ظهور تفكير مالتوس وذيوع نظريته ، فقد ولد مالتوس في الثلث الاخير من القرن الثامن عشر ( ١٧٦٦ ) واستمرت حياته حتى الثلث الاول من القرن التاسع عشر ( توفي عام ١٨٣٤ ) ولقد كان القرن الثامن عشر هو عصر الفلسفات المثالية التي تمثلت في كتابات عدد كبير من الفلاسفة الاجتماعيين ، سواء في فرنسا من امثال **كوندرسيه** Condorcet او في بريطانيا من امثال **وليام جودوين** William Godwin وكان هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيون يؤمنون ايمانا عميقا بمستقبل الانسانية ، وان مصير الانسان زاهر نظرا لان الفكر الانساني الخلاق يسير بطبيعته نحو الترقي والتقدم ، كما ان الحياة الاقتصادية سوف تزدهر هي ايضا بمرور الزمن تبعا لارتقاء الفكر الانساني وتقدم الكفاءات والمهارات التي يكتسبها الانسان طيلة الوقت . وهذا كله معناه ان العالم ـ في نظر هؤلاء الفلاسفة الاجتماعيين ـ يسير بالضرورة نحو تحقيق مزيد من الخير للانسان ، ونحو مستقبل يختفي فيه الفقر والجريمة والحرب والامراض ، وهي كلها شرور تنشا في الاصل عن انخفاض مستوى المعيشة ، وسوف يؤدي هذا كله بالضرورة ايضا الى ان يستتب الامن في ذلك العالم ، مما يستتبع ضرورة الاستغناء عن الحكومة وما تمارسه من سلطة على الناس . فكان المجتمع الانساني في تقدمه الطبيعي انما يتجه لكي يصبح مجتمعا حرا طليقا لا يخضع لاي شكل من اشكال الحكومات وما يرتبط بالحكومات من شر وقهر .

ولقد كانت هذه الحركة الفكرية التي تستهدف خلق العالم المثالي او اليوتوبيا متاثرة بالاهداف والدعاوى النبيلة التي كانت الثورة الفرنسية والثورة الامريكية تهدفان الى تحقيقها ،

وليس كتاب مالتوس في اساسه الا نوعا من الاعتراض على هؤلاء المثاليين الاجتماعيين الذين كان يطلق عليهم عموما اسم Social perfectionists وبخاصة على آراء وليام جودوين الذي كان يعتنق نظرة مغرقة في التفاؤل عبر عنها بوضوح في كتابه« العدالة السياسية Political Justice » الذي كان يرى فيه أن الانسان سوف يرتقي باطراد الى ان يصل الى أعلى الدرجات للنمو العقلي وطول الحياة والاكتمال الصحي ، فضلا عن خلو العالم من كل الامراض الاجتماعية من أوبئة وحروب وجرائم وفقر وبؤس وغير ذلك ، وان كل فرد في المجتمع سوف يعمل لما فيه صالح الآخرين ، وأن الخير والرخاء سوف يعمان رغم تكاثر البشر . وفي الوقت ذاته كان جودوين يعتقد ان الغريزة الجنسية سوف تتلطف وتتهذب كثيرا نتيجة لذلك الرقي العقلي والفكري الذي يحققه الانسان . وهذه كلها آراء أقرب الى آراء كوندورسيه الذي كان يعتقد انه سوف يمكن اشباع الغريزة الجنسية دون ان يؤدي ذلك الى ارتفاع نسبة المواليد . ( راجع في ذلك
(Downs ; Books That Changed the World, Mentor Books, 1960, p.54)

وموضوع كتاب مالتوس ليس جديدا تماما، فالمشكلة كانت قد ظهرت قبل ذلك بمدة في كثير من كتب القرن الثامن عشر نفسه كما هو الحال مثلا في بعض كتابات بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin التي ناقش فيها مشكلة نمو السكان . ومع ذلك فانه يمكن القول بحق ان احدا من هؤلاء الكتاب لم يفلح في ابراز المشكلة بنفس القوة والاصالة والحماس التي نجدها في الكتاب الخاص بمالتوس . اضف الى ذلك ان مالتوس كان معاصرا لآدم سميث Adam Smith وتوماس بين Thomas Paine وان كان اصغر منهما كثيرا . ولكن بينما كان آدم سميث يتكلم في كتابه الشهير « ثروة الامم The Wealth of Nations » عن اسباب الغنى والثروة وطبيعتها ، كان كتاب مالتوس يتكلم عن اسباب الفقر وطبيعته ، ومن هنا يمكن القول ان كتاب مالتوس يكمل بشكل او بآخر كتاب سميث الذي كان قد ظهر قبل ذلك باثنين وعشرين عاما ، او هو على الاصح يعالج المسألة من زاوية مغايرة .

•••

ويرتكز كتاب مالتوس على مسلمتين اساسيتين هما : ان الطعام لازم لوجود الانسان ، وان الغريزة او الرغبة الجنسية هي ايضا لازمة لوجوده وسوف تظل محتفظة دائما بقوتها . والواقع ان كل المثاليين يسلمون بالمسلمة الاولى ، ولكن بعضهم مثل جودوين كانوا يظنون ان الرغبة الجنسية سوف تخف وتتضاءل الى حد كبير جدا بمرور الزمن وارتقاء الفكر الانسان . ولقد لاحظ مالتوس ردا على ذلك انه على الرغم من كل ماحققه الانسان من تقدم ورقي منذ كان في حالة الوحشية او الهمجية الاولى ، فانه لم يطرأ اي تغيير على رغبته الجنسية ، اذ يبدو انها لا تزال الآن على نفس الدرجة من القوة التي كانت عليها منذ اربعة آلاف سنة مثلا ( راجع Downes, ) ( op.cit., p. 55) .

من هاتين المسلمتين وضع مالتوس مبدأه الاساسي الذي تقوم عليه نظريته ، وهو ان خصوبة الانسان وقدرته على التناسل أقوى واشد من خصوبة الارض وقدرتها على انتاج الطعام للانسان ،

وعلى ذلك فانه اذا لم توضع قيود وضوابط على عملية الانسال فسوف يتزايد البشر بمعدلات تفوق كثيرا زيادة الطعام ، وقد عبر عن ذلك في عبارته الشهيرة التي صاغها في شكل حكم عام من **ان السكان يتزايدون في متواليات هندسية بينما يزداد الطعام بمتواليات حسابية** . وقد استند مالثوس في ذلك على دراسته بعض الاوضاع السكانية في امريكا وبريطانيا ، فقد لاحظ مثلا ان سكان امريكا في ذلك الحين قد تضاعفوا خلال جيل واحد ( اى خلال خمسة وعشرين سنة ) رغم عدم ادخال المهاجرين اليها في الحسبان . الآن بعض العلماء يرون أن مالثوس قفز قفزة واسعة جدا في الوصول الى ذلك التعميم الكلي الذى لا يستند الى مبررات كافية ، لان امريكا نفسها كانت تمر بمرحلة استثنائية في تاريخها .

وحين اراد مالثوس تطبيق هذا المبدأ على بريطانيا اخذ في الاعتبار مسألة توافر الطعام وامكانية زيادة انتاجه ، فوجد انه اذا استغلت كل الارض القابلة للزراعة احسن استغلال وباحدث الطرق فان انتاج الطعام سوف يتضاعف ايضا في السنوات الخمس والعشرين الاولى ، ثم تبدأ المتاعب في الظهور بعد ذلك ، فبينما يتضاعف السكان مرة ثانية فيصبحون اربعة اضعاف ما كانوا عليه في اول الامر قبل خمسين عاما فان الطعام يزيد الى ثلاثة اضعاف فقط . وبعد خمس وعشرين سنة اخرى يتضاعف السكان مرة اخرى فيصبحون ثمانية اضعاف ما كانوا عليه في الاصل بينما يزداد الطعام الى اربعة اضعاف الاصل فحسب . وبعد قرن كامل من سنة البدء يكون السكان قد بلغوا ستة عشر ضعفا مما كانوا عليه بينما يكون الطعام خمسة اضعاف فقط وهكذا ، على ما يظهر من الجدول البسيط التالي :



| | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| السنة | ١ | ٢٥ | ٥٠ | ٧٥ | ١٠٠ | ١٢٥ |
| الزيادة السكانية | ١ | ٢ | ٤ | ٨ | ١٦ | ٣٢ |
| الزيادة في الطعام | ١ | ٢ | ٣ | ٤ | ٥ | ٦ ( الخ ) |

وواضح من ذلك مدى اتساع الفجوة واختلال التوازن بين الموارد الغذائية وعدد السكان بمرور الزمن ، وبصرف النظر عن مدى دقة هذه الحسابات وعما اذا كان السكان يتزايدون بالفعل بنسب هندسية دقيقة ويتضاعفون كل خمسة وعشرين عاما بينما يزيد الطعام بنسب ومتواليات حسابية ، فالذى يهم هنا هو أن المبدأ العام نفسه يتسم بدرجة عالية جدا من الصدق ، ونعني بذلك ان الهوة بين السكان والطعام تزداد اتساعا طيلة الوقت . وهذا هو المبدأ الذى يجب ان نضعه نصب اعيننا حين نعالج هذه المشكلة . **وهذا هو ما تنبه اليه الدراسات المختلفة التي يضمها هذا العدد من المجلة** فالفارق الهائل بين الزيادة السكانية وزيادة الموارد الغذائية هو السبب في معظم الامراض والمشكلات الاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات البشرية . والواقع ان هذا الامر يعتبر من اهم المسائل التي يوليها علماء التخطيط والتنمية وبالذات في المجتمعات المتخلفة والنامية ـ معظم اهتمامهم حتى وان لم يقبلوا نظرية مالثوس بحذافيرها .

ومن الصعب على المجتمع – أيا كان – أن يقبل استمرار ذلك التفاوت أو تلك الهوة بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية وبخاصة الطعام، ومن هنا كان لا بد من وجود بعض العوامل التي تعيد ذلك التفاوت الى الوضع الطبيعي أو العملي المقبول . ولقد كانت هناك دائما عوامل كثيرة جدا خارجية أو ( ايجابية ) على ما يسميها مالتوس وبعض معاصريه لا تخضع في الاغلب لارادة الانسان ، وتلعب دورا هاما في تضييق تلك الهوة والفجوة مثل الأوبئة والامراض والكوارث الطبيعية التي تبيد اعدادا كبيرة من البشر . ولكن الى جانب ذلك كثيرا ما كانت المجتمعات الانسانية تلجأ الى الحروب لحل مشكلة زيادة السكان بالنسبة للطعام . انما الاهم من ذلك والاكثر هي تلك العوامل التي تخضع لارادة الانسان وترتبط بهاويتحكم فيها العقل البشرى ، وهي في أغلب الاحيان عوامل « وقائية » أو « سلبية » تتمثل بأفضل صورها في الامتناع الاختيارى عن الانجاب ، ولقد كان مالتوس يعتقد ان الانسان يمكنه ان يتحكم في نسله عن طريق تأجيل الزواج الى سن متاخرة حتى يستطيع الفرد ان يهيىء لنفسه وضعا اقتصاديا يسمح له بان يكفل أسرته بعد الانجاب . ولقد طبق مالتوس ذلك المبدأ على نفسه فلم يتزوج الا في سن الثامنة والثلاثين وهي سن متاخرة – على الاقل بالنسبة للسائد في العصر الذى عاش فيه . « فكان العزوبية » كانت في رايه هي افضل وسيلة فعالة لحل تلك المشكلة رغم ما فيها من خروج على الطبيعة الانسانية وتنكر لها .



ولقد ذهب مالتوس في هذا الطريق الى ابعد مما ينادى به الكثيرون من المهتمين بالمشكلة السكانية وضبط النسل وسياسة الملاءمة بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية ، واقترح – الى جانب رايه في ضرورة تأخير الزواج وبخاصة بين الطبقات الفقيرة حتى سن متاخرة – كثيرا من الاقتراحات التي لا تخلو من التطرف بل ومن القسوة والتنكر لكثير من المبادىء الانسانية النبيلة . فقد كان يعارض كل ما من شانه ان ييسر الحياة للطبقات الفقيرة ويرى في « قوانين الفقر » افسادا لحياة هؤلاء الفقراء ، كما ان الاحسان في كل صوره ، سواء اكان احسانا فرديا خاصا يقدمه الافراد بدافع العطف والشفقة ، او احسانا منظما رسميا تشرف عليه الحكومة ، هي كلها أمور غير مرغوب فيها ويجب ان تحارب ، لانها تقدم للفقراء المال دون ان تزيد من كمية الطعام الذى يمكنهم الحصول عليه بذلك المال ، وهذا من شانه ان يؤدى الى ارتفاع الاسعار وزيادة تكاليف المعيشة وتفاقم مشكلة النقص في الطعام والمؤن . وعلى العموم فقد كان مالتوس يرى انه يجب عدم تشجيع الطبقة العاملة وما اليها على الانجاب مادام العمال والفقراء عموما غير قادرين على تربية الاطفال واعالتهم . ولقد كان مالتوس منطقيا مع نفسه ومع مبادئه حين عارض فكرة بناء المساكن الاقتصادية للفقراء ، لان توفر المسكن يشجع على الزواج المبكر ويؤدى بالتالي الى زيادة جديدة في السكان .

وكان من الطبيعي ان تجد هذه الآراء ترحيبا من جانب فئات كبيرة من الاغنياء في بريطانيا ، وان تقابل بكثير من الحماس من بعض الطبقات الحاكمة ومن كبار الملاك والاقطاعيين وأصحاب

رؤوس الاموال ، لان مالثوس زود هذه الجماعات بحجة ترد الفقر العام الشامل ، وعدم القدرة على التكيف الاجتماعي الى الزواج المبكر وكثرة الانجاب بدلا من ردهما الى سوء توزيع الثروة على ماكان يذهب اليه كثير من المفكرين الاشتراكيين . الا ان هذه الآراء تعرضت الى جانب ذلك للنقد والمعارضة من كثير من البيئات والفئات : من رجال الدين المحافظين ، والفلاسفة الاجتماعيين ، ورجال الحرب وبعض الراسماليين المحافظين ، الى جانب الاشتراكيين الراديكاليين .

كان الاشتراكيون الراديكاليون من امثال **وليام طومبسون** William Thompson يرون أن مالثوس تجاهل الاسباب الحقيقية لبؤس الفقراء وسوء حالهم ، وهم الذين يعيشون على البطاطس فحسب ويؤلفون غالبية السكان في بريطانيا ، بل وغالبية الجنس البشري في اى زمان واى مكان . ولقد وصف هؤلاء الاشتراكيون الراديكاليون افكار مالثوس بانها افكار سخيفة وتافهة وقذرة ، وتنم عن قدر كبير من السذاجة والغفلة والغباء . اما رجال الدين فانهم كانوا يرون في كتابات مالثوس وآرائه خروجا على الدين وتعاليمه ، وانكارا لقدرة الله الخالق وتمردا على ارادته في عمران الارض . وهذا الموقف من رجال الدين فيه اتهام خطير بالنسبة لرجل تخصص اصلا في اللاهوت وشغل احد المناصب الدينية .

وكان هجوم العسكريين على آراء مالثوس نتيجة منطقية لاشتغالهم بالحرب التي تحتاج لاكثر ما تحتاج الى البشر الذين يعتبرون هم ( وقود ) المدافع او ( علف ) المدافع حسب تعبير **دواتز** . فاى تحكم في السكان عن طريق التحكم في المواليد معناه حرمان رجال الحرب من اهم اداة في كسب الحرب التي تحتاج الى موارد متجددة من الشباب القادرة على حمل السلاح . ومن الظريف ان نذكر هنا ما قاله **فردريك الاكبر** حين نصحه احد رجال الدين بعدم المغالاة والمبالغة في الانفاق على الجيش البروسي ، وان الله مع الجيش ومع الشعب ، اذ رد عليه فردريك بقوله انه واثق كل الثقة من عون الله ، ولكنه يعرف ايضا ان الله يحب ان يقف بجانب الجيش الضخم الجرار .

الا ان اعنف هجوم على آراء مالثوس جاء من العلماء الفلاسفة الاجتماعيين الذين كانوا يعنون ــ او بعضهم على الاقل ــ بدراسة واقع الانسان ومصيره وقدرته ، وكانوا يؤمنون ايمانا كبيرا بكرامته وقدرته الخلاقة التي تستطيع تطويع الصعوبات وتذليلها . كان هؤلاء العلماء الفلاسفة يرون ان موارد الطعام ليست محدودة الى ذلك القدر الذى يذهب اليه مالثوس ، وان ثمة على ما سبق ان ذكرنا ــ مجالات واسعة عريضة لانتاج الطعام المتنوع الوفير ، وكل ما يحتاج اليه الامر هو زراعة الاراضي التي لم تزرع بعد ، والعمل على زيادة انتاج الاراضي المزروعة فعلا عن طريق الاستعانة بالمخصبات المختلفة ، والاستفادة بما احرزه العلم من تقدم في هذا المجال . فتصور مستقبل الانسان على انه مستقبل مظلم اعتمادا على بعض الافكار المتعلقة بتناقص الطعام بالنسبة للافواه الجائعة ، والخوف من حدوث المجاعات فيه حكم على الانسان بالفشل وعلى

قدراته بالنضوب والقصور والعجز ، اى ان فيه كفرانا بقدرة الانسان الخلاقة المبدعة المبتكرة ، والمشاهد على العموم انه كلما نضب مورد للطعام امكن للانسان ان يكتشف موارد اخرى جديدة . وهذا الموقف متأثر بفلسفة وآراء القرن الثامن عشر التي تجد اقوى صدى لها في كتابات **كوندورسيه** من امكان تحقيق التقدم بغير حدود ❋ . ولقد كان هؤلاء العلماء الفلاسفة يرمون نظرية مالتوس بضيق الأفق على اعتبار انها تنظر الى الامور من زاوية ضيقة للغاية ، وتجعل حجم السكان يتوقف بطريقة مباشرة ، وتكاد تكون مطلقة على موارد الطعام وليس على الموارد الطبيعية فى عمومها . ومع التسليم باهمية الطعام فى تحديد حجم السكان فان ذلك الحجم يتزايد ايضا نتيجة لزيادة ووفرة الموارد الاخرى ، ولوفر فرص العمل وكثرة الاختراعات ، وهذا هو ما حدث فعلا فى القرن التاسع عشر — قرن الثورة الصناعية بحق . وربما كانت غلطة مالتوس كما يقول هؤلاء العلماء الفلاسفة ، هي انه لم ينظر الى العالم كوحدة يمكن ان يعوض النقص فى مجتمع ما فى جانب ما بما يوجد في مجتمع آخر وفى جانب آخر ، وهذا معناه ان نظرة مالتوس قد تصدق على مجتمع معين بالذات ، ولكن من الصعب قبولها بالنسبة للعالم اجمع كوحدة .

بيد ان كل هذه الانتقادات والاعتراضات لم تمنع آراء مالتوس وافكاره من ان تنتشر وتذيع ، ومن ان تؤثر فى عدد كبير من الكتاب والمشتغلين في المشكلات الاجتماعية وليس فقط بمشكلات السكان . وقد ساعد على قبول تلك الآراء ما لاحظه هو نفسه من ناحية وكثيرون غيره من ناحية اخرى من ان معدلات الولادة تنخفض كلما تقدم المجتمع وزاد نصيب اعضائه من التعليم ، وكلما استطاع ان يحقق مستويات اعلى من التقدم الاقتصادى . وربما كان اول مظهر عملي لمدى تأثير آراء مالتوس هو قيام بريطانيا باجراء اول تعداد عام للسكان فيها عام ١٨٠١ ، اى بعد ظهور كتاب مالتوس بثلاث سنوات ، وذلك بعد ان كانت فكرة اجراء التعداد تقابل بكثير من المعارضة والاستنكار بل والرفض . وكان لهذا التعداد فى ذلك الوقت بالذات دلالة عظمى لان بريطانيا كانت مقبلة على بوادر الثورة الصناعية ، وانه كان لابد ازاء ذلك من التعرف على نوعية القوى العاملة فى ذلك الحين . ومن هنا يمكن القول ان كتاب مالتوس كان له دخل — ربما بشكل غير مباشر — فى التخطيط لمستقبل بريطانيا الصناعي رغم ما قد يبدو فى هذا القول من مبالغة .

---

❋ رد مالتوس على ذلك بالاتجاه الى المبدا المعروف بمبدا العائد المتناقص او الغلة المتناقصة Principle of Diminishing Returns فى الزراعة ( بل وفى مختلف مجالات النشاط البشرى ) . ففي بداية مراحل التطور والتنمية نجد ان استخدام الوسائل التكنولوجية يعطى عائدا متزايدا ( وخير مثال لذلك فى رايه هو ان استعمار اى منطقة جديدة تؤدى الى زراعة مساحات جديدة واستغلال ما بها من موارد ) ولكن بعد الوصول الى نقطة معينة تبدأ الحقول تفقد خصوبتها وقدرتها وجودتها شيئا فشيئا وبذلك يقل العائد او الغلة بالتدريج ، وكثيرا ما يضطر السكان ازاء ذلك الى ان يهجروا الارض تماما . وتكرار هذه العملية قد يؤدى آخر الامر الى اختفاء الارض الصالحة من الوجود تماما .

بل الواقع ان تأثير كتاب مالتوس تعدى مجال البحوث السكانية الى مجال العلوم الطبيعية ذاتها . وربما كان افضل مثل لذلك هو ما اعترف به **داروين** Darwin نفسه صراحة من تأثره بذلك الكتاب . والمعروف ان التعبير الشائع « الصراع من اجل البقاء Struggle for Existence » الذى يعزى عادة الى داروين ، كان قد استخدمه مالتوس في الاصل . وقد اوحى ذلك التعبير الى داروين برايه في ان الخصائص الجيدة تبقى وتستمر ، بينما تتضاءل الصفات والخصائص الضعيفة وتتراجع الى ان تختفي تماما ، مما يساعد في آخر الامر على ظهور انواع جديدة لها صفات قوية . وهذا هو اساس نظرية داروين في التطور . وهذا القول نفسه يصدق على **الفرد رسل والاس** Alfred Russell Wallace الذى يعترف هو ايضا بتأثر نظريته التطورية بكتاب مالتوس .

• • •

**والمهم من هذا** كله هو ان كتاب مالتوس عن « مبدأ السكان » **يعتبر نقطة تحول جذرى فى الفلسفة الاجتماعية** وفى توجيه الاذهان **الى** المبدأ الاساسي العام الذى **لا يزال هو ركيزة اية محاولة للتنمية فى المجتمع الانساني** حتى الان ، ونعني بذلك مبدأ التوازن بين **الموارد البشرية والموارد الطبيعية على ما تكشف** عنه الدراسات المنشورة في هذا العدد .

ولكي نعطي فكرة عن مدى الزيادة الهائلة السريعة في سكان العالم وبخاصة فى المجتمعات النامية يكفى ان نذكر ان تعداد السكان فى العالم فى عام ١٩٦٠ كان ثلاثة آلاف ( ٣٠٠٠ ) مليون نسمة ، وتدل بعض التقديرات المبدئية ان هذا العدد سوف يرتفع قبل نهاية هذا القرن الى ٥٨٠٠ مليون نسمة ، بينما تذهب بعض التقديرات الاخرى الصادرة من هيئة الامم المتحدة الى ان العدد سوف يكون حوالي ٦٣٠٠ مليون نسمة ، وذلك في الوقت الذى تذهب فيه بعض معاهد الابحاث السكانية فى امريكا الى التنبؤ بان تلك الآلاف الثلاثة من الملايين التي كانت تعيش عام ١٩٦٠ سوف تتضاعف خلال الاربعين سنة من عام ١٩٦٠ الى عام ٢٠٠٠ مرتين ونصف مرة تقريبا ، وبذلك فان سكان العالم فى تلك السنة سوف يكونون ٧٤١٠ مليون نسمة ، ولكن هذه الزيادة لا تسير بنفس السرعة فى كل المجتمعات الانسانية بل تختلف معدلات الزيادة من مجتمع لاخر كما سبق ان ذكرنا ، وانها ستكون اكثر ارتفاعا فى المجتمعات النامية والمتخلفة عنها فى المتقدمة ، او بالاحرى المجتمعات الصناعية الحديثة . فالزيادة السكانية في العالم ككل هي ١ر٧٪ سنويا ولكنها لا تصل فى المجتمعات الصناعية الحديثة الى اكثر من ٧ر٠٪ بينما هي ترتفع فى المجتمعات النامية والمتخلفة الى اكثر من هذا بكثير بحيث تتراوح بين ٢٪ ، ٥ر٣٪ . وفي مصر بالذات ــ على سبيل المثال ــ نجد ان معدلات الزيادة تدور حول الرقم ٦ر٢٪ سنويا وهي اعلى من النسبة الموجودة فى كثير من بعض البلاد المتخلفة الاخرى كالهند مثلا . والدراسات

والبحوث المنشورة هنا مليئة بالارقام ذات الدلالة، وقد لا تتفق تلك الارقام والتقديرات بعضها مع بعض ، ولكنها تشير الى مدى خطورة الوضع في العالم بالنسبة لتزايد السكان والى ضرورة العمل على التحكم في تلك الزيادة بشكل او بآخر ما دامت الزيادة في الطعام وفي الموارد الطبيعية لا تتناسب مع الزيادة السكانية ، ويدخل في « الموارد » هنا الموارد المستغلة بالفعل والتي لا تزال في باطن الارض ، واستخدام الطاقة غير البشرية على السواء .

والغريب في الامر في هذا الصدد انه بينما يدرك الجميع خطورة هذا الاختلال في التوازن بين السكان والطعام ، وضرورة العمل على اعادة التوازن المفقود اما عن طريق الحد من الزيادة السكانية واما من طريق العمل على زيادة انتاج الطعام وحسن استغلال الموارد الطبيعية ، وبينما تتعرض شعوب كثيرة في العالم لخطر المجاعات التي بدات تهدد الانسان من جديد نجد ان الحكومة الامريكية مثلا في بعض الاحيان تدفع مبالغ كبيرة من المال للفلاحين مقابل عدم قيامهم بزراعة مواد غذائية جديدة نظرا لان المخازن في تلك المناطق الزراعية تضيق بكميات الطعام الهائلة المكدسة فيها والتي تبلغ قيمتها بلايين الدولارات . وهذا لا يعني ان الولايات المتحدة تخلو من وجود مشكلات سكانية خاصة بها وان كانت هذه مشكلات من نوع مختلف ، فليس من المحتمل أن تتعرض الولايات المتحدة للمجاعة مثلا نتيجة لاكتظاظها بالسكان مثلما يحدث في بعض جهات العالم الاخرى ، ولكن المؤكد هو ان اسلوب الحياة هناك ومستوى المعيشة معرضان للخطر لان النمو السكاني خليق بان يلتهم كثيرا من المزايا الاجتماعية التي حققتها امريكا حتى الان ، نظرا لما يحتاجه الوضع من نفقات باهظة تنفق على الخدمات المختلفة التي يتطلبها عدد السكان المتزايد .

والظاهر ان الميل العام في كثير من المجتمعات التي تعاني من المشكلة هو نحو الاتجاه الى العمل على التحكم في النسل وضبطه عن طريق ابتكار وسائل يتحكم بها في معدلات الخصوبة والمواليد مثلما امكن التحكم في معدلات الوفيات من قبل . ومع ان هناك من يرى في الهجرة حلا لمشكلة الزيادة السكانية فان ذلك في الحقيقة حل جزئي فقط ، قد يؤدى الى اختفاء المشكلة من المناطق المكتظة بالسكان في الريف مثلا ، وذلك في حالة الهجرة الداخلية من الريف الى المناطق الحضرية، او اختفاء المشكلة في دولة من الدول التي تعاني من الزيادة السكانية وذلك في حالة الهجرة الخارجية الى دولة اخرى او مجتمع آخر غريب يحتاج الى الايدى العاملة ، ولكن الهجرة ليست حلا جذريا للمشكلة ككل ، اذا نحن اعتبرناها مشكلة عالمية وليست محلية . بل ان الهجرة ذاتها ، وبخاصة الى المناطق الحضرية ، كثيرا ماتخلق مشاكل من نوع جديد مثل ازدحام المدن وزيادة البطالة وانتشار الجرائم وظهور المناطق السكنية المتخلفة ، بل وكبر حجم المدن ذاتها الى حد يفوق كل ما هو معروف عن المدينة بالمعنى التقليدي القديم للكلمة وظهور ما يعرف باسم « **المدينة العملاقة** Megalopolis بكل ما فيها من تعقيدات ، خاصة وان المدينة العملاقة ليست في

حقيقة الامر سوى اقليم متسع يشمل عددا من المدن الصغيرة المتجاورة والتي تعتبر كل منها مركزا حضريا تدور في فلكه بعض التجمعات القروية او نصف الحضرية التي تمد ذلك المركز الحضرى بحاجاته من الطعام وبعض السلع الاخرى في الوقت الذى يقوم ذلك المركز الحضرى نفسه بتوفير ما تحتاجه تلك المناطق والتجمعات الريفية من خدمات متنوعة . وهذا على اى حال يؤدى الى ظهور انماط واشكال جديدة من المشكلات السكانية التي تعالجها احدى الدراسات فى هذا العدد .

والدراسات التي ننشرها هنا لا تحيط بالمشكلة السكانية من كل جوانبها . فهناك مظاهر ومشكلات فرعية عديدة لا تقل اهمية عن تلك التي تتناولها البحوث المقدمة فى هذا العدد من المجلة . والامر يحتاج بغير شك الى عودة اخرى لهذا الموضوع الحيوى فى اعداد تالية وفى دراسات متفرقة تتناول تلك المشكلة كما تتمثل فى المجتمعات النامية بوجه عام ومجتمعنا العربي بوجه خاص .



* * *

عبدالكريم اليافي

# الهجرات وتحركات السكان



ينشط الناس في مجتمعاتهم ضمن اطاري الزمان والمكان ، لا يستطيعون ان يخرجوا عن قيودهما طوال حياتهم ، ونشاطهم في مجال هذين الاطارين متفاوت ، فالزمان يتحرك ويجري دون رجعة ، فينشأ عن ذلك الميلاد والعيش والتعمير حينا من الزمان ثم الوفاة . ولكنهم في ابان ذلك يشغلون حيزا من المكان بأجسامهم ، وهم يذهبون ويجيئون ، وقد يسافرون فيجوبون المسافات ويقطعون الابعاد ، وقد يغيرون اماكن اقامتهم .وهم في اضطرابهم خلال المكان.يجري بهم تيار الزمان، فيتخطون الاعمار عمرا بعد عمر او توافيهم المنون . فالزمان والمكان مشتبكان أشد الاشتباك في كثير من الموضوعات ولا سيما موضوع السكان،مشتبكان اشتباك الحياة والموت .

المجتمع الانساني كيان حي ، وهو ينمو او يضمر بعوامل عدة متفاوتة ، والعوامل التي لها هذا التأثير ويمكن قياسها بسهولة هي المواليدوالوفيات والهجرة .

---

● الدكتور عبد الكريم اليافي استاذ بجامعة دمشق .صار في الوقت الحاضر لقسم الديمغرافيا في معهد العلوم الاجتماعية في بيروت . له العديد من المؤلفات والكتب كما اشترك في عدة لجان علمية وفي مؤتمرات عالمية كثيرة .

هذه العناصر تؤلف ما يدعى « حركة السكان العامة » او « نمو السكان العام » . وهو في الغالب موجب ، اى اكبر من الصفر ، فهو زيادة . ولكنه قد يكون سالبا في نادر الاحيان ، فهو اذ ذاك نقص .

ويمكن ان نكتب :

حركة السكان العامة ـ مواليد ـ وفيات + هجرة الى البلاد ـ هجرة منها .

اما المواليد والوفيات فحصيلتهما تدعى « حركة السكان الطبيعية » او « نموهم الطبيعي » . واما الهجرة الى البلاد ومنها فتدعى « حركة الهجرة » . فاذا اربى القدوم على النزوح دعي الفرق « فيض الهجرة » . وان نقص عنه دعي « غيض الهجرة » . وقد يراد ادراك مدى النشاط في حركة الهجرة فيصرف النظر عن جهتها اى عن الدخول الى البلد والخروج منه ويجمع القادمون والنازحون معا فيدعى المجموع حجم الهجرة .

وسنعود الى بعض هذه المصطلحات عند الكلام على قياس حركة الهجرة ، ولكن يمكن الآن ان نتعجل بعض الشيء فنضرب مثالا على تأثير هذه العوامل مجتمعة .

في بلد ما يولد انسان كل سبع ثوان ونصف الثانية ، ويتوفى آخر كل تسع عشرة ثانية ، ويدخل وافد كل دقيقة ونصف الدقيقة ويخرج نازح كل ثلاث وعشرين دقيقة . ففي هذا المثال عنصران موجبان يزيدان في الناس ، وهما المواليد والوافدون ، وعنصران سالبان منهم وهما المتوفون والنازحون . ولو تأملنا المجموع قليلا للاح لنا ان البلد يزيد نسمة واحدة في كل عشر ثوان ونصف الثانية .

بيد ان اولئك المسافرين الوافدين او النازحين ليسوا كلهم مهاجرين . وليس السياح ولا القائمون برحلات استكشافية ، ولا الطلاب الموفدون للدراسة ولا المكلفون بمهمات قصيرة الامد ولا امثالهم بمهاجرين . انما يتصف المهاجر بأوصاف لا يتصف بها غيره من النازحين . وهو انه قد اجمع امره على مغادرة وطنه اما ابدا واما الى امد غير محدود . ولا بد من اتخاذ بعض المعايير في تصنيف القادمين والنازحين . وقد اوصت هيئة الامم المتحدة بتصنيف الذين ينتقلون من مكان الى آخر عند وصولهم في الاصناف الاربعة الآتية :

١ ـ المهاجرون الدائمون اى غير المقيمين (من رعايا البلد او القرباء عنه) الذين ينوون المكث لفترة تزيد على السنة

٢ ـ المهاجرون الوقتيون اى غير المقيمين الذين يريدون ان يمارسوا عملا في بلد الوصول لسنة او اقل ، ويصنف من يرافقهم من اهليهم في الصنف الثالث .

٣ ـ الزوار الذين يرغبون في البقاء سنة او اقل دون ان يمارسوا عملا ما ، ويذكر معهم اهلوهم .

٤ ـ المقيمون ( من رعايا البلد او القرباء عنه ) الذين يؤوبون بعد غيبة تتجاوز السنة .

وفى إمكنة المغادرة يصنف المغادرون على النسق الآتي ايضا :

١ ــ النازحون الدائمون اى المقيمون ( من رعايا البلد أو الغرباء ) الذين ينوون الاقامة فى خارج البلد مدة تجاوز السنة .

٢ ــ المسافرون من أولئك المهاجرين الوقتيين فى التصنيف السابق ( يذكر اعلوهم فى الصنف الثالث ) .

٣ ــ الزوار الذين انهوا زيارتهم .

٤ ــ المقيمون ( من رعايا البلد او الغرباء الذين ينوون الاقامة فى خارج البلد لسنة واحدة او اقل من سنة .

ولا شك ان الجماعات التي تتسم بصفات خاصة فى زمن ما كاللاجئين والمنقولين والمطرودين ممن يوزعون على الاصناف السابقة يلزم ان يسجلوا بصفاتهم تلك على حدة عند قدومهم او ذهابهم .

ويستبين مما سلف ان امورا ثلاثة تقتضي الاستعلام لتحصيل التصنيف وهي محل الاقامة المعتاد ، مدة المكث او الغياب ، والعزم او النية المتعلقة بالعمل او الشغل .

ولكن هذه التوصيات لا تجري عليها الحكومات ، وان كانت بوجه عام تعتبر المهاجر من عزم على ترك بلاده لمدة تطول .

وثمة تعبير آخر عن الهجرة وهو التحرك أو « الحراك » طفق يروج فى الوقت الحاضر فى علم السكان وفى علم الاجتماع .

فى علم السكان فهو يدل على الانتقال المكاني او الجغرافي ، وأما فى علم الاجتماع فيدل على تبدل الحال الاجتماعية ، كتغير الحرفة او الطبقة الاجتماعية او غيرهما ، وقد يجتمعان فيبدل المرء محل اقامته ويبدل حرفته او الحرفة التي اعتادا اهلوه ان يزاولوها .

والحراك اعم من الهجرة ، ولا بد لكي يكون هجرة من ان يواكبه تبدل فى محل الاقامة ، وعزم على العمل فى مكان الوصول . وقد نطلق لفظ الحراك على انتقال العمال من محال اقامتهم الى مجال اعمالهم ، وعلى اختلاف الطلاب الى مدارسهم ومعاهدهم ، وان لم يكونا هجرة .

بحث الهجرة واسع ، وهو فى الأصل جزء من علم السكان ، ولكنه يتعلق بالتاريخ ، اذ وجدت الهجرة منذ وجد الانسان . وحركات الهجرة التاريخية تملأ صفحات كثيرة من كتب التاريخ ، بل نحن العرب تؤرخ بالنسبة لهجرة مشرقة فى تاريخنا . ويتعلق بحث الهجرة بالاقتصاد ، لان بين الاقتصاد والهجرة علاقات مشتبكة . ويتعلق بالسياسة ، فقد تكون دواعيها وآثارها سياسية . ويتعلق بعلمي النفس والاجتماع لان لها اسبابا ونتائج نفسية واجتماعية ، وتتعلق بعلوم اخرى يطول استقصاؤها . وهنالك هجرة للجماد كرؤوس الاموال ، وللنبات ، وللحيوان ولا سيما الطير . ولكن هجرة الانسان هي اهم انواع التحركات .

هذا الفصل الذى تكتبه ديمغرافي بمعنى اننا نقصر النظر فيه على جوانب علم السكان ،

فنقدم فيه نبذاً من هذه الجوانب دون ادعاء الاحاطة، وسنقسمه الى اربعة اقسام. فنبحث في القسم الاول اسباب الهجرة الخارجية والداخلية، وفي القسم الثاني آثارهما المتفاوتة ، ونعرض في كلا القسمين العوامل الاقتصادية والديمغرافية والثقافية الاجتماعية بوجه العموم . وسنرى أن بين الاسباب والآثار ارتباطا جدليا ، وان بين تلك العوامل اشتباكا وثيقا ، وان فعل كل منها وأثره يكونان تارة ايجابا وتارة سلبا بحسب الظروف الملابسة .

ثم نشرح في القسم الثالث طرق قياس الهجرة وتخمين عناصرها ، ونتأمل في القسم الرابع بعض اللمحات عن الهجرة في البلاد العربية، ونختم البحث بالاشارة الى الهيئات العالمية التي تهتم بالمهاجرين واللاجئين ، ونلحق به معجما موجزا بالمصطلحات التي جرينا عليها ، ثم بالمراجع المفيدة في هذا الشأن .

هذا ويجدر التنويه هنا بأن اكثر القضايا والاحكام التي اثبتناها نتائج بحوث حديثة كثيرة تتعلق بالهجرة ابان القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، حين انطلق تدفق الهجرة من العالم القديم الى العالم الجديد ، وحين طفق الاستعمار يكتسح بعض جوانب العالم القديم . وقد اعتمدنا في القسمين الاولين كتابا صدر عن قسم السكان في هيئة الامم المتحدة بعنوان « اسباب التطور الديمغرافي وعواقبه » . اما في الوقت الحاضر فقد تغير الامر حين اصبحت الهجرة تخضع الى حد بعيد لتنظيم الدول واتفاقياتها .



ـ القسم الاول ـ

## اسباب الهجرة الخارجية

دواعي الهجرة متعددة ومتفاوتة في المكانة ، وليس من السهل دائما تعرفها ، وقد اجريت بحوث كثيرة على الدوافع الشخصية ، ولكن الاجوبة لم تكن بالضرورة صادقة او صحيحة ، وانما ظهرت نتائجها متصلة بالاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية التي تبدو مهمة في اعين المهاجرين . ثم ان تلك البحوث عمدت الى حركات هجرات معينة ، فلا يجوز تعميمها .

وتعدد الدواعي وتفاوت مكانتها لا يجعلان آثارها في البلاد واحدة ، ولذلك لزم تتبع عواملها بشيء من التأمل والتفصيل ، ونحن نعرض في هذا الموجز اهم تلك العوامل التي أمكن تعيينها في مختلف الهجرات ونصنفها كما ذكرنا في ثلاث زمر :

١ ـ العوامل الاقتصادية ٢ ـ العوامل الديمغرافية ٣ ـ العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية . ونفرق في الغالب بين العوامل النابذة التي تدفع الناس الى ترك مواطنهم الاصلية ، والعوامل الجاذبة التي تغريهم بالقدوم الى مواطن اخرى . قد يهاجر المهاجرون لأحوالهم الرديئة في بلادهم ، وقد تجذبهم في الوقت نفسه مغريات في البلاد الاخرى . فالنبذ والجذب يتحكمان في تيار الهجرة ، وهما يتناوبان تلك الزمر الثلاث الآتية .

## ا ـ العوامل الاقتصادية

لا شك ان العوامل الاقتصادية اهم دواعي الهجرة ، ولكن بعض الهجرات في التاريخ كان سببه المباشر على الاقل من طبيعة غير اقتصادية ، تعزى احدى موجات العرب قديما لخراب سد مارب ، كذلك هجرة اقوام التوتون والسامبري الى بلاد الغال والى ايطاليا نجمت عن غمر البحر جتلند حيث كانوا يقيمون . والحرب منذ العصور القديمة كانت دافعة الى الهجرة ، واضطهاد الاقليات لمختلف الاسباب حافز كبير لها على الهجرة ، ولكن حيث لا تكون اضطرابات اجتماعية ولا حروب ولا كوارث طبيعيه يكون سبب الهجرة الرئيسي الرغبة في تحقيق مستوى حياة افضل ، وقد غلب في العصور الحديثة بروز العامل الاقتصادي على غيره ولو ان للعوامل الاخرى بعض الاهمية .

يسعى المهاجرون على الغالب لتحسين احوال حياتهم المادية ، وتجذبهم المناطق التي تتوافر فيها الفرص الاقتصادية الحسنة والمكاسب المالية الثرة . ولكن ليس كل من تتاح له تلك الفرص والمكاسب يرغب في مغادرة وطنه ، ولا كل من يرغب في مغادرة وطنه يستطيع النزوح ، ولهذا كان تاثير العوامل الاقتصاديه يجرى ضمن اطار العوامل الحضارية والثقافية والسياسية والجغرافية .

مستوى الحياة ـ كثيرا ما لوحظ ان تيار الهجرة الدولية يجرى من البلاد ذات المستوى الحيوى المنخفض نحو البلاد ذات المستوى الحيوي المرتفع ، ولكن هذا الحكم يقتضي نصيبا من الاحتراز .

ينبغي اول الامر الانتباه لتفاوت مستوى الحياة بين فئات السكان في البلاد ، فقد يهاجر فريق من الناس من بلاد غنية الى بلاد فقيرة اذا احسبوا ان ثرواتهم سوف تنمو بالهجرة ، وقد يوازن المزارع بين دخل مزرعته وربحه في بلد الاغتراب ، لأن الفرق حين يكون في صالحه اهم عنده من تفاوت مستوى الحياة في كلا البلدين وكذلك العامل ينظر في تفاوت الأجور بين البلاد الاصلية والبلاد المقصودة .

ثم ان المهاجر لا يبني عزمه على المقايسة بين شروط البلدين الراهنة فقط ، بل قد يستشف مستقبل تلك الشروط ، ويتامل تبدل تلك الاحوال ، ويرجح النجاح في اقتحام المخاطر ، ويؤثر الفوائد المؤجلة على المعجلة وان كان الواقع الراهن عنده اهم اجتذابا واغراء .

وربما نظر في رخص الحياة ويسرها ان كان له دخل ثابت او احيل على المعاش ، او اراد ان يؤوب الى بلاده فهو يتامل القوة الشرائية للمال الذى ادخره بالنسبة لمستوى المعيشة .

وقد يحول مستوى الحياة المنخفض دون الهجرة اذا حجز وصول المعلومات الى الناس عن البلاد الاخرى او حملهم بانخفاضه على الصبر والاذعان ، أو عجزوا بسببه عن نفقات السفر ، وقد وجد ان تيار الهجرة من اوروبا نحو العالم الجديد قد مس اول الأمر المناطق التي تأثرت بالحياة المدنية والتجارية ، وكان مستوى الحياة فيها مرتفعا بعض الشيء على خلاف المناطق الفقيرة جدا والمنعزلة بقلة المواصلات اليها . وربما كان سكون الكتل البشرية في آسيا نسبيا وقلة تحركها بالهجرة ناشئا من شدة العوز والضيق .

**توافر الاراضي وخصبها . ـ** تتعلق الفرص الاقتصادية في الزراعة الى حد بعيد بسُبُل الحصول على اراض طيبة بسعر معقول ، وقد دفع شح الأراضي وندرتها في بعض المناطق سكانها الى انتجاع مناطق اخرى تتوافر فيها الأراضي الطيبة ، فكان ذلك الشح داعيا للهجرة .

قلة الاراضي قد نشأ من كثافة الفلاحين ، وقد أعتبرت بعض الدراسات كثافتهم باوروبا سببا للهجرة كما حصل في ايرلندة والمانيا والبلاد الاسكنديناڤية ابان القرن التاسع عشر وفي جنوبي اوروبا وشرقيها في غضون القرن العشرين ، فقد سار العرف والعادة في بعض تلك البلاد بتوزيع الممتلكات الزراعية على ورثة المالك . فكان نمو السكان جيلا بعد جيل يقتضي الى تجزؤ تلك الممتلكات وتفتتها ، حتى غدا بعض الفلاحين بدون ارض فحملهم ذلك على الهجرة . وقد حصل خلاف ذلك في بريطانيا ابان النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فقد تجمع اكثر الاراضي بأيدي ملاكين كبار طفقوا يزرعونها بالحبوب ويحولون بعضها الى مراعي . فوجد الفلاحون والمزارعون الصغار انفسهم مضطرين للنزوح نحو المدن او خارج البلاد ، كذلك معظم الاراضي في ايرلندة كانت لمالكين غير قاطنين فيها ، وكان الفلاحون فقراء او مستأجرين لا تربطهم بالأرض الا علاقة واهية . حدث مثل هذا ايضا في شرقي المانيا والقسم الغربي من الامبراطورية الروسية حيث كانت تسود الملكيات الكبيرة ويستحكم الفقر المدقع بين الفلاحين .

وقد ادت البحوث المبكرة لتلك الاحوال السيئة وعلاقتها بالهجرة الى الفرض التالي وهو ان النزوح تتناسب شدته طردا مع الملكيات الكبيرة وعكسا مع الملكيات الصغيرة .

كانت صعوبة الحصول على الارض في اوروبا ذات صبغة نابذة ، وقد دعم ذلك النبذ الى حد بعيد جَذْبُ الاراضي الآنف ( العذراء ) المتوافرة باسعار زهيدة او مجانا في العالم الجديد . كانت تلك الاراضي في الولايات المتحدة قوية الاغراء في القرن التاسع عشر ، حتى اذا استنزفت توزعها الايدي المهاجرة طفق المهاجرون يممون وجوههم شطر كندا .

وكما في اوروبا كذلك كان اكتظاظ السكان الزراعيين الفقراء في آسيا داعيا لهم الى الهجرة . لقد دفع بهم البؤس الى النزوح من الصين والهند وكوريا واليابان ( قبل تصنيعها ) منذ منتصف القرن التاسع عشر واغراهم بالعمل في البلاد الاجنبية حتى باجور منخفضة وسيئة الشروط فنزحوا الى المزارع النائية والمناجم المظلمة والمصانع المرهقة . اما آسيا نفسها فليس فيها ما يغري المزارعين بالهجرة اليها حتى لو توافرت الاراضي ، ما عدا الشطر الآسيوي من سيبريا في الاتحاد السوفياتي . ولقد بقيت اراضي منشوريا خلافا لبقية انحاء آسيا تستدعي هجرة جاليات صينية مدة طويلة .

يدل هذا على ان توافر الاراضي وحده لايدفع الى الهجرة على مستوى عريض . فلقد كان في الولايات المتحدة عناصر اخرى رفدت ذلك التوافر ولفتت وجوه الناس نحوها . من هذه العناصر تحرك الروّاد الاوائل نحو الغرب ، وقد مهد طريق اللحاق بهم صيادو الوحوش ، والمتاجرون مع الهنود الحمر ، والمنقبون عن المعادن والفلزات وغيرها كالذهب والنفط ، والزراع الذين تركوا مزارعهم الأولى بحثا عن مزارع اشد الساعا في السهول الغربية . فاللاحقون من

المهاجرين كانوا ينزلون الاراضي الممهدة والمعروفة ويسكنون في مزارع مستصلحة . ثم ساعد مد السكك الحديدية ، ونمو طرق المواصلات الاخرى ، ونشوء المدن على توسعة المجال الاقتصادي امام المحاصيل الزراعية في منافسة العالم القديم ، وفي رواجها بالاسواق الداخلية الجديدة .

اما امريكة اللاتينية فلم تجتذب الا عددا ضئيلا من المهاجرين لهدف العمل الزراعي . ولم يضرب هؤلاء في اعماق البلاد ما عدا الارجنتين على الرغم من توافر الاراضي الواسعة ، ومن تشجيع السلطات . الا ان نظم امتلاك الاراضي ووجود الضرائب جعلت من العسير الحصول على مزارع جيدة باسعار مغرية . ثم ان التضاريس وعسر المواصلات وصعوبة المناخ ورداءته وعدم التنسيق في التثمير الزراعي وفي خطط النمو الاقتصادي والاجتماعي حال كذلك دون استقرار المزارعين في تلك الاراضي الفيح الشاغرة كما عوّق النفوذ الى اعماق تلك القارة .

واستراليا مثل آخر على ان توافر الاراضي وحده ليس كافيا لاجتذاب المهاجرين . فان ثلث اراضيها ظل خاليا ، لان النفقات في استغلال الاراضي واتمالها اكبر من قيمتها الانتاجية ، كما ان المشاق التي لقيها الروّاد الاوائل كانت اشد منها في البلاد الأخرى .

**نمو النشاط غير الزراعي .** — كان نمو الصناعة والتجارة وامثالها سببا طغى في تبدل احوال الهجرة على العامل الزراعي الذي برزت اهميته في القرن التاسع عشر . بل ان ازدهار الصناعة والتجارة وغيرهما من النشاط غير الزراعي غدا الحافز الاكبر على الهجرة قبل تصرّم ذلك القرن . وحصل الامر نفسه في اوروبا وكندا وامريكا الجنوبية وزيلندة الجديدة . وهنا لا بد من تبين عامل الصناعة حين تقوم اركانها في البلاد وايضاح تأثيره الايجابي والسلبي في تدفق النزوح .

ففي الفترة الاولى لقيام الصناعة ورواج التجارة قد يطرأ تغيّر في النظام الاجتماعي ، وهبوط في مستوى الحياة يحملان الناس على الهجرة . تلك هي العلة فيما دعي « حمى الهجرة » التي اصابت اوروبا في اعقاب الثورة الصناعية . فقد تضاءلت اهمية الحرف اليدوية امام الصناعة القائمة ، وعجز محترفوها عن الوصول الى بلغ معيشتهم فدفعهم العوز الى النزوح . كان بين النازحين من المانيا بعد منتصف القرن التاسع عشر افواج من اصحاب الحرف اليدوية والصناعات البيتية وجدوا انفسهم قاصرين عن منافسة المصانع التي كانت تزداد يوما بعد يوم . ومن الطبيعي ايضا ان تقع البطالة في المراحل الاولى من قيام الصناعة عند دخول الآلات الموفرة للعمل اليدوي فيلتمس الباهل ( العاطل عن العمل ) سبيلا آخر بعيد الشقة وهو النزوح .

وعلى العكس قد تنمو الصناعة والتجارة وامثالهما في البلد الذي كان اقتصاده زراعيا لا يوفر لسكانه حاجاتهم ومؤنهم ، فاذا بهم يتحسن مستوى حياتهم وتجزل مكاسبهم ويَصْدِفون عن الهجرة كما حصل لدى دول اوروبا الشمالية والغربية في أواخر القرن التاسع عشر وتباشير القرن العشرين . فقد ضؤلت الهجرة منها على حين تدفقت من شرقي اوروبة وجنوبيها ومن الشرق الاوسط الى العالم الجديد ، وكان هذا التدفق معينا على تصريف سلع تلك البلاد الشمالية والغربية وعلى زيادة ازدهارها . وغدت مدنها الكبيرة تمتص اهل الارياف من مناطقها الزراعية . لقد كانت المانيا تصدر المهاجرين الى العالم الجديد، فلما تقدمت الصناعة فيها ابان الربع الأخير من القرن التاسع عشر غدت موردا سائغا لهم من انحاء اوروبا .

اما في بريطانيا فلم ينقلب تيار الهجرة فيها ، ولكنه تضاءل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفي الوقت نفسه كثر المهاجرون اليها من ايرلندة . وكذلك كان ازدهار الصناعة في روسيا ، وقد تأخر بعض الوقت ، سببا في اجتذاب المهاجرين اليها من البلاد المجاورة . ومثله حدث في اليابان : كان النازحون يتدفقون منها عن طريق التعاقد مع الشركات الاجنبية . فلما تقدمت الصناعة بعد الحرب العالمية الاولى فيها جنح الكوريون للعمل في مصانعها الفتية الناشئة التي كانت تزداد يوما بعد يوم . ومع ذلك بقيت اليابان في الفترة بين الحربين العالميتين مصدرا للهجرة من ميدان الزراعة وغيره . وربما كان ذلك بدوافع غير اقتصادية كما سوف نشير الى ذلك في موضعه .

اما الاقطار التي تستقبل المهاجرين فقد كان اتساع المدن ونشاط الصناعة فيها السبب في اجتذاب الناس ، ولا سيما في العقدين او العقود الثلاثة الاولى من القرن العشرين . لقد سُجل اعلى معدل للهجرة الى الولايات المتحدة قبيل الحرب العالمية مباشرة حين ازدهرت الصناعة والتجارة جداً فيها . بل قبل ذلك الوقت بمدة لا بأس بها كان المهاجرون الى الولايات المتحدة تضمهم مراكزها الصناعية اكثر من الاراضي الزراعية . والامر على هذا النحو في كندا وامريكا الجنوبية وافريقية الجنوبية واستراليا ونيوزيلندة الجديدة حيث يستقر المهاجرون في المدن ، تغريهم فرص العمل وارتفاع الاجور اكثر من الاراضي الشاغرة . ويبدو مدى تحكم النشاط الصناعي والتجاري في تيار الهجرة حين تدرس العلاقة بين التحولات السنوية لحجم الهجرة ومراحل دورة التجارة في البلاد المقصودة .

وقد لوحظ اخيرا أن هذه البلاد دخلت في طور جديد قل فيه اجتذابها للمهاجرين . فقد اصبحوا يجدون عقبات يصعب تذليلها في الاقامة وفي مباشرة العمل على حسابهم ، اذ غدت رؤوس الاموال اللازمة جسيمة لا قِبَل لاكثرهم بها ، ولاسيما ان طائفة كبيرة من المشروعات التي نشأت لا يستطيع المرء ان يموّل امثالها وحده . فالذي ينوي الهجرة يجد نفسه امام احد حلين : ان يغدو فردا من افراد الطبقة الكادحة اما فيما وراء البحار او في بلد قريب من مسقط رأسه . فهو يؤثر الحل الثاني وان كان مستوى حياته يبقى ادنى منه في الاول . وقد برز من هذا التحليل سبب تمهل الهجرة العالمية في اوائل القرن العشرين ، ذلك ان المناطق الجديدة غدا عدد سكانها كثيفا فقلت فرص العمل فيها .

**تقدم وسائل النقل .** ـ كان نداء الهجرة قويا حتى تغلب على مشقات السفر ووعثائه ونفقاته ولما تحسنت وسائل النقل والمواصلات حين تقدمت الصناعة والتجارة ذللت تلك العقبات المختلفة .

كان عبور المحيط شاقا وخطرا ، وكان السفر البري البعيد عسيرا وباهظ التكاليف حتى منتصف القرن التاسع عشر . كان يستغرق السفر في القرن السابع عشر من فرنسة الى كندا نحوا من شهرين ، وكان معدل الوفيات في الطريق يصل الى ٤٠ او خمسين في المائة ، ثم صار الطريق حوالي سنة ١٨٥٠ يستنزف شهرا ونصف الشهر . ثم نقصت المدة الى اسبوع سنة ١٩٣٩ وهبط معدل الوفيات الى الصفر تقريبا . كان الرحيل بالمراكب الشراعية شائعا قبل سنة ١٨٥٠ ، ولم يكد يحل عام ١٨٧٣ حتى غدا ٩٦ في المائة من المسافرين يمتطون البواخر . كما أن التنافس بين شركات الملاحة وتطبيقها التنظيمات العامة خفضت النفقات وقللت الاخطار .

كذلك ساعد ذيوع السكك الحديدية على تيسير الأسفار ، فشقت السكك البلاد من دانيها الى قاصيها واعانت على استغلال البقاع النائية ، كما حصل ذلك في الولايات المتحدة . ثم شقت الترع فكان لها قسط في تدفق تيارات جديدة من الهجرة ، كترعة السويس وترعة باناما اذ فتحتا سبلا حديثة للتجارة . حتى الملاحة النهرية لم تعدم اثرا في تلك التيارات .

**العوامل الاقتصاديه التي تؤثر في معدلات الهجرة السنوية :** ـ تناولت بعض البحوث تفاوت معدل الهجرة العالمية تبعا لتفاوت المواسم الزراعية ولمراحل دورات التجارة . في النصف الأول من القرن التاسع عشر كان عدد المهاجرين الذين يغادرون اوروبا تابعا للموسم الزراعي . وهنا تتقدم ايرلندة ابلغ الأمثلة واشهرها على تأثير القحط . لقد ازداد سكانها في غضون القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر . ثم وقف الازدياد بحلول سنين عجاف بعد عامي ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ولا سيما بين ١٨٤٥ و١٨٤٧ حين اجتاح القحط موسم البطاطا ، وهي غلة يعتمد عليها الناس في اقواتهم فانبعث تيارا كثيفا من النازحين . لقد اعتبر الباحثون المجاعة التي المت عام ١٨٤٧ السبب الرئيسي لدفقات المهاجرين التي شرعت تحمل كل سنة مائتي الف مهاجر ايرلندي في غضون السنين الثماني التي تلت ذلك العام . انها عجلت هجرة لا بدّ لها من ان تقع آجلا لأسباب اخرى هي اتساع الصناعة في بريطانيا وفي الولايات المتحدة وازدهار الاقتصاد فيها على حين كان مستوى المعيشة في ايرلندة منخفضا جدا والفلاح قليل الارتباط بالأرض لسوء الملكية . وقد تغيرت الظروف في السنوات الأولى من بداية النصف الثاني في القرن التاسع عشر ، فتحسنت الاحوال الاقتصادية في ايرلندا ، ومع ذلك استمرت الهجرة لا هربا من بؤس اسود ، بل ابتغاءً لمعيشة كريمة فضلى .

تلك المجاعة لم تؤثر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر في ايرلندة وحدها بل تجاوزتها الى بريطانيا ، كذلك كانت الهجرة من المانيا الى ماوراء البحار مرتبطة باضطراب الموسم . ولكن الارتباط خف ووهى بعد عام ١٨٥٠ حين تقدمت الصناعة فيها .

درس الباحثون ايضا الهجرة من السويديين سنة ١٨٥٠ و ١٩١٠ فبدت لهم منوطة بالموسم الزراعي السنوي في أول هذه الفترة ثم ضعفت علاقتها به بعد عام ١٨٧٠ على حين ان التقلبات الدورية للاقتصاد الامريكي بدت ذات اثر عميق فيها . وايا كان الأمر فان العوامل الزراعية اذا ضؤل اثرها في معدل الهجرة السنوي فهي لا تعدم اثرا ابان حقبة طويلة من الزمان .

**جيروم** من اشهر الباحثين الذين درسوا تأثير التجارة في الهجرات الدولية . وقد تناولت دراسته الهجرة الى الولايات المتحدة خاصة في نصف القرن الذي سبق اعلان قانون ضبط الهجرة ( اي الفترة بين ١٨٧٠ و ١٩٢٣ تقريبا ) ، مع أن المؤلف يرجع حينا الى اقدم من ذلك ، أو يقتصر حينا آخر على المعلومات التي تتعلق بالفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى . وقد استند في دورات التجارة الى قرينه تتعلق باحصاءات وظائف العمل ، وبالمعطيات غير المباشرة عن العمل ولا سيما أرقام الانتاج والاسعار والاستيراد ، فوجد أن مراحل الازدهار الاقتصادي كان يوازيها او يعقبها دفق اكبر من تيار الهجرة ، وان الازمات الاقتصادية قللت عدد المهاجرين دون أن توقف تماما ذلك السيل بحيث ان الوافدين لم ينقصوا قط عن النازحين خلال الفترة التي استوعبتها الدراسة .

ولم يقتصر جيروم على تأمل آثار دورات التجارة فى الهجرة الى الولايات المتحدة بل انتبه للاوضاع الاقتصادية فى البلاد الاصلية التي يغادرها المهاجرون كبريطانيا والمانيا وايطاليا فرأى ان الحال الاقتصادية فى الولايات المتحدة هي صاحبة التأثير الأوفر على وجه العموم . ان دورات التجارة بالبلاد الاصلية كانت مشابهة فى التقدم او التأخر لأمثالها بالولايات المتحدة فى اغلب الاوقات . فاذا ازدهرت الاحوال الاقتصادية فى تلك البلاد جميعا زادت الهجرة الى الولايات المتحدة، واذا شحت فيها جميعا نقصت وضؤلت. واذا اتفق أن تفاوت الازدهار والشح بين تلك البلاد تبع تيار الهجرة حال الولايات المتحدة فى الاتساع او الضيق وفى الرخاء أو الشدة . اما الهجرة من بريطانيا والمانيا وايطاليا الى غير الولايات المتحدة فلا يوازى الخط البياني لها خط الهجرة الى الولايات المتحدة . ومن اجل ذلك يفضي جيروم الى هذه الخلاصة : وهي أن حركات الهجرة لا تتبع بالضرورة دائما الوضع الاقتصادي فى المكان الأصلي ولا فى المكان المقصود . وانما تتعلق اهمية تيار الهجرة السنوي فى ابان النصف الثاني من القرن التاسع عشر بقوة « النداء » الآتي من البلد المقصود اكثر منها بعامل الضيق فى البلد الاصلي .

هذا ، ومع صحة تلك الدراسة على التقلبات السنوية ، اى فى المدى القريب ، لا يمكن انكار آثار العوامل الاقتصادية فى المدى البعيد .

ولقد قام باحثون آخرون بدراسات على الهجرة فكانت نتائجهم قريبة بعض الشيء من نتائج جيروم . درس ونسجيوس الهجرة الايطالية الى الولايات المتحدة والى فرنسة والأرجنتين فى فترة السنين ١٨٨٨ و ١٩١٣ ، فوجد ان تقلبات دورات التجارة فى البلاد المقصودة كان لها اثر حاسم فى سعة حركات الهجرة ولا سيما فى النصف الثاني من الفترة المدروسة ، وذلك سواء وازت تلك التقلبات اشباهها فى البلاد الأصلية أو لم توازها . وكذلك جرت بحوث على الهجرة من السويد فظهر ان تيار الهجرة هذه كان تابعا للاوضاع الاقتصادية فى الولايات المتحدة لا للاوضاع الاقتصادية فى السويد . والنتيجة نفسها وجدت بالنسبة للهجرة من فرنسة الى الولايات المتحدة وان بدا لها الارتباط بعض الشيء بالوضع الاقتصادى فى فرنسة بين ١٨٨٥ و ١٩١٤ ، فان المهاجرين لم يخرجوا من بلادهم ضيقا بها ، وانما خرجوا التماسا لتحسين احوال معيشتهم ونماء دخلهم . وهكذا كان الازدهار الاقتصادى فى البلد المقصود حافزا لهم على ركوب متن الهجرة .

بيد ان دراسات اخرى ابانت ان المهاجر لا يهاجر الى امريكا الا حين يستطيع ان يدخر نفقات سفره اليها . وهذا يستلزم شيئا من تحسن الاحوال فى البلد الاصلي لكي يتهيأ تجميع تلك النفقات . فالهجرة مثلا من ايطاليا الى امريكا اشتدت حين تحسنت الاحوال الاقتصادية فى ايطاليا ، وضعفت حين ساءت فيها وهذا كله يدل على ان ثمة وراء العامل الاقتصادى عوامل أخرى تستدعي الكشف والتحليل .

## ب ـ العوامل الديمغرافية

لنمو السكان الطبيعي اثر مباشر فى العوامل الاقتصادية التي تتحكم الى مدى معين فى تيارات الهجرة العالمية ، وقد سبقت الاشارة اليه عرضا. فزيادة السكان الزراعيين تساعد على استغلال الاراضي واتساعها ، أو على العكس قد تفضي الى قلة الاراضي وضيقها وعدم توافرها . كذلك

تقدم القطاع التجارى والصناعى لا يعدم اثرا فى الهجرة من البلاد او اليها ، وهو متعلق بعض الشيء بالارتباط الواقع بين مدى الازدهار الاقتصادى ومعدل نمو السكان .

ان الناس حين يجمعون امرهم على الهجرة او يؤثرون البقاء فى بلادهم لا يفكرون فى العوامل الديمغرافية . ولكنهم ربما كانوا خاضعين فى حلهم وترحالهم لها بعض الخضوع . بيد أن من الخطل مجرد القول ان ارتفاع النمو الطبيعي للسكان يستدعي بالضرورة هجرة من البلاد ، وان انخفاضه ( مع هرمهم وزيادة الوفيات بينهم ) يستدعى الهجرة اليها . نعنى بذلك ان العلاقة بين الهجرة ومعدل النمو او غيره من القرائن الديمغرافية ليست ضرورية حتمية ، بل هي احتمالية ، على خلاف بعض البحوث التي نوهت بعلاقة دقيقة بينها فى ازمنة وامكنة مختلفة . فقد زعم بعضهم ان شدة الهجرة فى كثير من البلاد الاوروبية فى الفترة بين ١٨٥٠ و ١٩٣٠ تبعت ارتفاع نمو سكانها الطبيعي الذى سبق الهجرة بنحو عشرين سنة ، وان الهجرة من اوروبا الشمالية والغربية والوسطى لما قلت حوالي نهاية القرن التاسع عشر وناب منها تدفق الهجرة من اوروبا الجنوبية والشرقية كان السبب فى ذلك انخفاض نمو السكان فى البلاد الاولى لا تقدم الصناعة والتجارة ، بل فى بعض الاحيان زادت الهجرة اليها على الهجرة منها لتناقص النسل . وقد غدت فرنسة على وجه الخصوص مقصدا يقصده المهاجرون لانخفاض معدل المواليد فيها ابان عشرات السنين .

على انه قد تؤثر العوامل الديمغرافية تأثيرا عميقا فى سياسة الهجرة . ذلك أن البلاد التي تخشى نقصا فى سكانها تشجع الهجرة اليها حين يكون النقص خسارة لها فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى ، بل فى ميدان الامن القومي ايضا . وفى مقابل ذلك قد يكون معدل النمو الطبيعي عاليا فى بلد ما والكثافة كبيرة فيه فتشجع حكومته الهجرة منه . بيد اننا قد نجد احوالا اخرى تشجع الحكومات فيها الهجرة الى البلاد مع ارتفاع معدل النمو متى كان الاقتصاد قليل الازدهار والاراضي وفيرة والثروات كثيرة . ذلك ان الهجرة ليست وحدها الوسيلة لزيادة الناس. فقد يشجع الزواج وتكافؤ الاسر لاتساع ذريتها وهلم جرا ، ولكن الهجرة لها مزية وهي انها أسرع فى زيادة السكان ، ثم يمكن بها اصطفاء المهاجرين بالنظر الى السن والذكورة والانوثة ، فيزاد فى العناصر الفتية والعاملة والذكور بالنسبة للشيوخ والعجزة وغير المنتجين والاناث .

ولقد كانت سياسة الهجرة التي تقصد الى اهداف الديمغرافية موضع نقاش فى كثير من البلدان . فقد درست لجنة السكان الملكية فى بريطانيا قضية الهجرة اليها لترفد بها معدل النمو الطبيعي القليل الارتفاع . وعمدت فرنسا الى فتح ابواب الهجرة لتتلافى تناقص سكانها الكامن وتقلل نسب الشيوخ وغير المنتجين . وقررت استراليا منذ حين ان تتلقى من المهاجرين نحوا من سبعين الفا كل سنة لتزيد سكانها بمعدل واحد بالمائة ينضم الى معدل النمو الطبيعي الذى هو ايضا واحد بالمائة .

وربما جاز فى البلاد التي يكون نمو سكانها الطبيعي مرتفعا ان تفتح باب الهجرة اليها : هجرة اصطفائية تختار فيها الشبان العاملين لتخفيف اعباء العيلة او الاعالة التي تمثلها كثرة الاولاد فى البلاد فتزيد باولئك الشبان قوة العمالة فيها . كذلك يمكن تشجيع الهجرة لايجاد التوازن بين

النساء والرجال ، فان استراليا بعد الحرب العالمية أعادت التوازن بين الجنسين بادخال أفواج من المهاجرين عدد الذكور فيهم ضعفا عدد الاناث . وقد تتغلب هذه الاعتبارات فتشجع الحكومات الهجرة من البلاد . وكل ذلك لا يمكن ان ينفصل تماما عن العوامل الاجتماعية والثقافية

## ج ـ العوامل الاجتماعية

كل امرىء لا بد من ان ينتسب الى شعب وان يكون له اهلون واصدقاء في وطنه يتكلم معهم بلغته . انه قد اعتاد ثقافة بلاده وتمرس بالنظم السياسية والادارية والعلاقات الاجتماعية فيها . وهذه كلها عقبات تعترض في سبيل هجرته . وربما كانت تلك العقبات قوية في الماضي . فقلما كان المرء ينهض للتفكير في الهجرة من دولة الى اخرى تحسينا لمعيشته ، ولكنها ضعفت في العصر الحاضر ، ومع ذلك فما زالت قائمة شاخصة . بالاستناد الى مدى مقاومتها حاول بعض الباحثين ان يفسروا هجرة البريطانيين الى ربوع الكومنولث المتعددة . فاللغة والعادات تيسر نجعتهم كما تيسر نجعة الاسبان والبرتغاليين نحو امريكا اللاتينية ، والايرلنديين نحو الولايات المتحدة .

ومن العوامل الميسرة للسفر ايضا سهولة المواصلات والالمام باحوال البلاد المقصودة ، كما ان الجهل بتلك الأحوال وصعوبة المواصلات من عوائق الهجرة . ومتى نشأ تيار من الهجرة بين بلدين ازدادت المعلومات عن البلد المقصود واشتد ذلك التيار بالتدريج ولا سيما اذا نجح المهاجرون الأوائل في اعمالهم ، فان نجاحهم هذا يحفز اقرباءهم واصدقاءهم على اللحاق بهم . وربما بعث اولئك الى اهليهم بعون مادي يساعدهم على الهجرة . فقد جرت العادة في ايرلندة اذا هاجر فتى او فتيان منها الى العالم الجديد وفرا نصيبا من المال لنفقات هجرة الباقي من الأسرة ولاعداد اقامتهم الجديدة . ويقدر عدد الذين هاجروا بهذا العون المادي من ايرلندة الى الولايات المتحدة بنسبة ٧٠ في المائة . في مقابل ذلك نجد من عوائق الهجرة في العصر الحاضر قيام الضمان الاجتماعي وتامين مختلف الخدمات الاجتماعية في البلاد المتقدمة . فهذه الأمور من شأنها ان تدرأ عن السكان اشباح الضيق وتخفف عنهم اعباء العيال لتمسكهم بأوطانهم . كذلك تأمين العامل من طوارىء العمل ومن المرض ومن البطالة يجعله شديد التعلق ببلده ، وخصوصا اذا لم يتوافر له مثل ذلك في البلد المقصود البتة او لا يتوافر الا بعد انقراط سنين معدودة . فالتشريع الطيب لصالح السكان وصالح العمال قد يعترض في سبيل الهجرة او يحوّل وجهتها . عمدت بعض البلدان الى عقد اتفاقيات بينها وبين بلدان اخرى يكون بحسبها للعمال المهاجرين حقوق متساوية في الضمان الاجتماعي لدى كلتيهما كما جرى بين المملكة المتحدة من جهة واستراليا وزيلندة الجديدة من جهة ثانية : واقامت البلاد الاسكندينافية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية « سوقا مشتركة للعمل » .

ربما يكون لبعض الشركات او الهيئات الأهلية او للبلاد نفسها مصالح في تشجيع الهجرة من البلاد او اليها ، كاتحاد أرباب العمل وشركات النقل واتحاد العمال وجمعيات الخير والاحسان وامثالها . وقد تبوأ هذا التشجيع مكانة كبيرة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ابان الهجرة الى العالم الجديد .

لقد حفزت شركات السكك الحديدية في الولايات المتحدة الناس على عمارة الأراضي التي على جانب السكك حين انتقلت ملكيتها اليها ، وذلك بالدعاية الواسعة وتخفيض اجور السفر

وانشاء مكاتب لاستقبال المهاجرين ومساعدتهم وتيسير دفع اثمان تلك الاراضي . وكذلك كان لشركات الملاحة في أواخر القرن التاسع عشر اثر كبير في تنظيم الهجرة الى العالم الجديد وفي تيسيرها ، حين كانت تنشر المعلومات الوافية عن سبل العمل وتبحث عن الايدي العاملة وتعين على تمويلها في السفر . ثم منعت حكومات البلاد التي تصدر العمال مثل ذلك النشاط على تلك الشركات التي لم تكن تضع نصب اعينها مصالح العمال أنفسهم .

اما ارباب العمل فكانوا بطبيعة الحال يشجعون على الهجرة الى بلادهم الايدي العاملة المتوافرة الرخيصة والاختصاصية . ينبغي ان ننوه هنا بتلك الأيدي النشيطة التي هاجرت من الصين واليابان والهند الى بعض القارات ولا سيما العالم الجديد ابان النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين . فكانت نفقات السفر والاقامة يدفعها ارباب العمل على ان يعمل اولئك المهاجرون عندهم عددا من السنين يتفقون معهم عليه .

ثم رات الحكومات عدم مشروعية تلك العقود فمنعتها ، بل حرم بعضها على ارباب العمل ان ياتوا بعمال من خارج البلاد .

ذكرنا آنفا ان اتحاد العمال او نقاباتهم قد تشجع على الهجرة . هذا ما حدث في بريطانيا حين عمدت نقابات العمال في الصناعات الاساسية الى انشاء صندوق خاص لمعونة العمال المنتسبين اليها عند هجرتهم وذلك في سنوات البطالة او الاضراب ، وان تجرت في بعض الاحيان من رفدهم بالمال . ولما توطدت مراكز تلك النقابات في المضمار الاقتصادي والسياسي سكتت عن تشجيع الهجرة .



لا يخفى ان سياسات الحكومات نحو الهجرة من البلاد او اليها ذات آثار كبيرة في تلك الحركات . وذلك بما تضعه من تشريع يشجع عليها او يحصرها او يمنعها .

وربما كان من المناسب ان نذكر في هذا السياق بعض الامثلة . لقد خصصت حكومات بريطانيا في منتصف القرن التاسع عشر مبالغ مناسبة للحث على هجرة الفقراء منها تخفيفا للضغط الديمغرافي فيها ، وتقوية لعلاقات الامبراطورية بمستعمراتها . فقد سهلت السلطات المسؤولة اذ ذاك في الفترة بين ١٨٤٧ ـ ١٨٦٩ نزوح ٣٣٩ الف مهاجر الى استراليا والى مناطق اخرى من الامبراطورية . وكذلك يسرت بعد الحرب العالمية الأولى بين سنتي ١٩٢٢ و ١٩٣١ مغادرة اربعمائة الف شخص الى الدومنيون .

وشجعت ايطاليا بعد الحرب العالمية الثانية الهجرة منها ، فمنحت الشركات الايطالية بعض العون حين يكون لها مشروعات في خارج ايطاليا تستطيع ان تستعمل فيها عمالا ايطاليين .

وكذلك فعلت حكومة اليابان في الفترة بين الحربين العالميتين فدفعت بالمهاجرين من ابنائها الى امريكا الجنوبية والى منشوريا . وكان من اهدافها تخفيف اكتظاظ الزراعيين على اراضيها من جهة ، والتوطئة لسيطرتها الاقتصادية والعسكرية في الشرق الاقصى . ويسجل التاريخ في اطواله قديما وحديثا محاولات متعددة من هذا النوع الاستعماري .

واحيانا يحدث العكس ، وهو ان البلاد تضيق على الهجرة منها ، وهذا ما حصل في اوروبا خلال القرن الثامن عشر ، وفي الصين من سنة ١٧١٨ الى سنة ١٨٦٠ ، وفي اليابان لم يسمح بالهجرة الا منذ عام ١٨٦٥ . وقد عقدت اليابان مع الولايات المتحدة اتفاقية بموجبها لزم خفض عدد المهاجرين الى الولايات المتحدة وماجاورها من المناطق . وفرضت الهند قيودا على العمال من ابنائها صونا لهم كيلا يتعاقدوا مع شركات اجنبية ، ثم منعت هجرتهم عن طريق التعاقد منذ سنة ١٩٠٢ . واحاطت المانيا النازية وايطاليا الفاشية نفسيهما بسياج من التدابير قلل الهجرة منهما . ومن المعلوم ان الاتحاد السوفياتي والبلاد الاشتراكية تمنع الهجرة منها حماية لرعاياها ولفهمها انسانيا للعدالة الاجتماعية .

وسنرى مثل ما سبق تقريبا حين نتامل اسباب الهجرة الداخلية .

• • •

## اسباب الهجرة الداخلية

تكاد تكون الاسباب التي تحفز على الهجرة من بقعة الى اخرى في داخل البلاد مماثلة للاسباب التي تحفز على الهجرة الخارجية . فحيثما توافرت اسباب العمل وتيسرت سبل الوظائف وارتفعت الاجور والرواتب وازدهرت المرافق الاقتصادية وجادت غلات الاراضي زراعية او معدنية او نفطية اشتدت النجعة اليها . وكذلك اذا تفاوت معدل النمو الطبيعي ، الذي هو الفرق بين معدلي المواليد والوفيات من منطقة الى اخرى في البلاد ، فقد يستدعي هذا التفاوت تيارا داخليا للهجرة من المنطقة التي فيها معدل النمو الطبيعي مرتفع الى المنطقة الاخرى . ولما كانت البلاد واحدة يسودها نظام تشريعي وسياسي واحد وتغمرها ثقافة واحدة تقريبا ضؤل عامل الثقافة والسياسة والتشريع في هذا المجال عنه في مجال الهجرة الخارجية .

بيد ان ثمة ضربا من الهجرة الداخلية ذا مكانة بارزة في المجتمعات . وهو الهجرة الريفية الى المدن . انها تتبع درجة تقدم الصناعة وتغير الثقافة وتبدل نمط المعيشة ، وهذه كلها من خصائص التطور الاجتماعي الحديث في مختلف بقاع الدنيا . ولهذا نعالج هنا على وجه الخصوص هذه الهجرة الريفية ولا سيما انها تؤلف غالبية الهجرة الداخلية . ونجرى على النسق الذي سلف في الشطر الآنف فنلم بالعوامل الاقتصادية اولا ، والديمغرافية ثانيا ، والثقافية والاجتماعية ثالثا ثم نشير الى اثر العوامل الجغرافية ولاسيما المسافات التي تفصل بين المناطق التي يتناوبها تيار الهجرة من جهة الى اخرى .

### ١ ـ العوامل الاقتصادية :

لا شك ان تيار الهجرة الداخلية يخضع للآثار الاقتصادية كما في الهجرة من دولة الى اخرى . بل يبرز هذا الخضوع اشد واعمق لان الحواجز التي تحول دون الانتقال من منطقة الى اخرى في الدولة الواحدة هنا ضئيلة وضعيفة من اليسير التغلب عليها ان وجدت . ولتيسير البحث تصنف العوامل الاقتصادية ثلاثة اصناف ١ ـ نابذة ٢ ـ جاذبة ٣ ـ عامة .

١ – **العوامل النابذة** – تتعلق على الغالب بالزراعة ، وتصدر عن نظام التملك للاراضي . فاذا كان في المنطقة ملاكون كبار وعمال زراعيون يكدحون ولا ينالون الا الزهيد من الاجر اغرتهم الهجرة الى المدن للعمل فيها حيث يكون كسبهم اعلى . على انه قد تحدث هجرة ريفية في مناطق يتملك جزءا كبيرا من الارض مزارعون صغار .بل قد تحدث ايضا حين تكون الاراضي بايدي ملاكين صغار مستقلين ، سجلت ذلك بحوث المسح المعدة في هذا الشأن . ويرى بعض الباحثين ان من عوامل الهجرة هذه قوانين الميراث التي تمنع تجزئة الاراضي ، فتحمل الشبان على مغادرة قراهم الى المدينة التماسا للعمل والرزق . على انه قد تكون تجزئة الاراضي في المقابل اجزاء صغيرة جدا يعجز ريع استثمارها لصغرها عن سد حاجات الاسرة دافعة الى انتجاع المدن .

لقد تحسنت وسائل الزراعة واشتداعتمادها على الالات في البلاد المتقدمة ، فقلل ذلك من الحاجة الى الايدى العاملة في استغلال الاراضي . فمن الطبيعي ان يهاجر الفائض من تلك الايدى العاملة الى المدن . كانت الزراعة في الماضي وسيلة لدى الزراع للحصول على بلوغ معايشهم وحاجات اسرهم . ولكنها تطورت مع الزمن فاصبحت سبيلا للتجارة والربح . وغدا الزارع المتصل بالارض يحسب حسابه وينظر في الربح المادى الذي يكسبه من العمل في الارض واستغلالها . فهو يرتبط بالارض عن طريق ذلك الربح . فان نقص بعد كل حساب عما يمكن ان يكسبه من المال في المدينة حفزه حب المال على ترك ارضه واهمالها .

ويرى بعض الباحثين ان النظام الرأسمالي مسؤول عن تلك الهجرة ، لان من شأنه ان يضعف الطلب على الايدى العاملة الزراعية ويزيد من طلب الايدي العاملة الصناعية . وهكذا يتكون فيض من الايدى العاملة الزراعية في الارياف تعيش في الضيق والقلة ، فهي تنزح نحو المدن .

توجد هذه الهجرة في البلاد الاشتراكية .ولكن ظروفها تختلف عما سبق . ذلك ان مردود العمل الزراعي في المزارع الجماعية حكومية اواهلية يكون عاليا . فالعدد الفائض من الايدى العاملة يوجه اما نحو اراض جديدة تستغل وتستثمر ، او نحو مراكز صناعية . ويتم هذا التوجيه المنسق باشراف الدولة حرصا منها على مصالح رعاياها وتلافيا للالام او العنت الذى قد يعترض المهاجرين العفويين .

وليس من الضرورى ان تكون المناطق الفقيرة جدا هي التي يركب ابناؤها متون الهجرة الى المدن . فقد يهاجر من المزارعين من غلاتهم مرتفعة نسبيا ولكنهم يأملون في هجرتهم ان يجدوا احوالا افضل وانسب لهم مما هم فيه . وقد تكون تلك الامال اكثر مساورة لنفوس المزارعين أولى الغلال الحسنة منها لنفوس اولئك الذين سد الفقر عليهم نوافذها ومساربها .

وقد تجري الهجرة بين مناطق ريفية متفاوتة في الخصب والغلال بالبلد نفسه . فتكون الشروط الحسنة المتوافرة للزراعة ذات شأن كبير في اجتذاب الريفيين من مناطقهم التي تضيق بهم ويضيقون بها . ولقد كان هذا الامر في الازمنة الحديثة ذا مكانة عالية في تطور بعض البلدان كما سبقت الاشارة اليه .

٢ – **العوامل الجاذبة** .. تتوافر وظائف العمل في المناطق الصناعية ، وتتكاثر أسرع من

امثالها فى المناطق الزراعية . وكلما ارتفع دخل المرء اشتد طلبه للسلع المصنوعة وللخدمات المتهيئة فى المدينة . وقد ادى تنظيم الغلات الزراعية الى انتقال مراكز النشاط الاقتصادى التابع لها من القرى الى المدن ، كالتهيئة النهائية لمشتقات الالبان وتحضير اللحوم وحفظها . وهكذا تكثر سبل الموارد الاقتصادية فى المدن . ثم ان نمو السكان الطبيعي فى المدن اضعف عادة منه فى الارياف . وهكذا يتم بطبيعة الامور اجتذاب طائفة من الريفيين الى المراكز المدنية ، والى الوظائف غير الزراعية فيها بصرف النظر عن تفاوت الاجور واختلاف مستوى المعيشة .

فكيف اذا انضم الى تلك الامور أن مستوى المعيشة والاجور فى المدن اعلى منها فى الارياف . بل ان وظائف العمل فيها اكثر انتظاما وربما كانت اشد ثباتا ؟ !

ويذكر بعض الباحثين مثالا على عرض وظائف العمل واهميتها فى اجتذاب الناس حكاية قديمة بعض الشيء وهي مدينة زلين Zlin فى تشيكوسلوفاكيا انشىء فيها مصنع للاحذية فلما بدأ المصنع يتسع طفقت المدينة الصغيرة التي لم يكن عدد سكانها يزيد سنة ١٩٢٤ على ٤٥٠٠ نسمة تجتذب اليها سكان المزارع المجاورة حتى بلغ عدد سكانها سنة ١٩٣١ ثلاثين الفا .

**٢ ـ العوامل الاقتصادية العامة** ـ ظاهرة الهجرة الى المدن او منها مرتبطة بالظروف الاقتصادية ارتباطا وثيقا . فاذا ازدهرت تلك الظروف احتاجت الاماكن الصناعية الى مزيد من الايدى العاملة التي تأتي فى الغالب من الريف ، فالريف بهذا الاعتبار ذخر الايدى العاملة . واذا ساءت الظروف توقفت الهجرة الريفية او ضعفت وحلت البطالة . بل قد ينقلب تيار الهجرة فيحمل بعض الذين لا عمل لهم فى المدينة الى الريف .



الواقع اكثر اشتباكا مما سلف ذكره . ذلك ان تيار الهجرة ذو اتجاهين فى وقت واحد . تشتد الهجرة من الريف عند ازدهار الظروف الاقتصادية فى المدن ، كما تقدم . ولكن فى الوقت نفسه يهاجر من المدن الى الريف بعض قدماء المهاجرين ، يؤوبون الى مساقط رؤوسهم لدى بزوغ النشاط الاقتصادى فى تلك القرى ، اولانهم لم يجدوا عملا فآبوا الى اهليهم ، او هم قد اجمعوا امرهم على الهجرة نحو مدينة اخرى . يضعف هذا التيار فى اتجاهيه حين تحل الازمات، فلا تتوافر وظائف العمل كما لا يتوافر المال لتأمين السفر . ثم ان بعض الدول تمنح عونا ماليا للذين لا عمل لهم ، فهم يمكثون حيث يقبضون ذلك العون .

ان تكاليف السفر ونوع المواصلات عاملان مهمان فى تيسير الهجرة او تعويقها . ولكن الازمنة الحديثة من خصائصها البارزة ان وسائل المواصلات على تفاوتها قد تقدمت تقدما كبيرا من سيارات وقطر تذرع جوانب الارض او بواخر تجوب البحار والانهار او طائرات كالنسور تجوز الآفاق . وكل ذلك من شأنه ان ييسر الهجرة بانواعها .

## ب ـ العوامل الديمغرافية

بصرف النظر عن التفاوت فى ازدهار الاقتصاد نجد ان العوامل الديمغرافية نفسها لا تعدم اثرا فى توجيه تيار الهجرة وذلك بسبب الاختلاف فى معدل نمو السكان بين مناطق البلاد .

من المعلوم ان معدل المواليد في الارياف اعلى منه في المدن ، وينجم عن ذلك ان معدل النمو في الاولى اكبر منه في الثانية على الرغم من ان معدل الوفيات في القرى اكبر منه في المدن . هذا ما هو حاصل في الوقت الحاضر . ذلك ان معدل الوفيات قديما ربما كان في القرى اضعف منه في المدن لأمد قريب . بيد أن الأمر قد انقلب في عقود السنين الثلاثة الأخيرة فاصبح في المدن اقل منه في الارياف لاعمار معيّنة .

لقد تغيرت أحوال المدن في العصر الحاضر عنها في الغابر . فقد تقدم العمران واتسعت الشوارع وزادت الخدمات الصحية وتحسنت مرافق الحياة وجرّت المياه النقية الى البيوت وتيسرت التدفئة والتكييف، كما انتشرت النظافة، واشرفت الحكومات على تأمين السلع الضرورية من اغذية وملابس ومساكن ، الا انه ما يزال في المدن مجال للتحسين في أحوال المصانع ودخانها الداكن المؤذي ، وفي محروقات مطايا المواصلات كالسيارات والشاحنات وامثالها ، وما يزال الدخان والضجيج والازدحام يرهق الحياة في المدن . ومع ذلك تتوافر السيطرة فيها على العلل الحادة والأمراض المتعدية فمعالجتها الحسنة اسهل منها في الريف .

ثم أن الصحة لا تتعلق بالأجر ولا بالملاط ولا بالخدمة الصحية بل تتعلق ايضا بعادات الناس وهي التي تتحكم فيها التربية والذكاء ، وتتعلق بالغذاء وبمستوى المعيشة ، وترتبط بمقدار الدخل ولو ان هذا الارتباط اخذت تخففه قوانين تأميم الطب والضمان الاجتماعي .

ازاء معدل الوفيات نسبيا في الريف يعدل بعض الشيء من معدل المواليد المرتفع ايضا فيه ، ولكنه يبقي على ارتفاع معدل النمو المستوى للسكان في القرية بحيث تكون الزيادة اكبر على وجه العموم في الريف . تلك الزيادة لا بدّ لها من ان تغذى المدن القليلة المواليد نسبيا . هذا ما حصل في مدن اوروبا الصناعية الكبيرة من امثال باريس ولندن وبروكسل وفينا وبرلين وغيرها .

ثم هنالك عوامل ديمغرافية اخرى تؤثر في الهجرة الداخلية كالزواج ، بان يكون الزوجان المتحابان مقيمين في بلدين مختلفين. يذكر الباحثون ان العادات في بعض قرى الهند تفرض على أهل القرية ان يتزوج ابناؤها وبناتها من أهالي قرية اخرى . وبسبب هذه العادات ينجم جزء لا بأس به من الهجرة الداخلية عن عقود الزواج .

هذا وفي المدن الشرقية الكبيرة اكثر المهاجرين اليها من الذكور الشباب على حين تحمل الهجرة من الارياف في شمالي أوروبا كالسويد مثلا الفتيات اللاتي يضقن ذرعا بريفهن الى استكهلم وابسالا وغوتبرغ وامثالها للعمل فيها الى حد ان هذه الهجرة الانثوية الداخلية تؤدي الى ازمات في زواج الذكور الريفيين الذين بقوا متصلين باراضيهم الزراعية حيث يفوق عددهم عدد الاناث .

## ج ـ العوامل الثقافية والاجتماعية

ليست الهجرة الريفية الى المدن مترتبة على توافر وظائف العمل وحده . بل هي منوطة الى جانب ذلك باطلاع المهاجرين على ذلك التوافر ووجوهه . فقد تكون قلة اطلاع الناس في منطقة على احوال منطقة اخرى في بلد متسع حائلة بعض الشيء دون الهجرة . وكذلك تكون

حائلة دونها شدة الروابط في الاسرة او بين ابناء القرية كلها . بيد انه قد انتشر التعليم وذاعت الثقافة وسهلت المواصلات واشتد اختلاط الناس بين مختلف المناطق في المجتمع الواحد وزاد اطلاع بعضهم على شؤون بعض . وهذا كله مما يرفد تيار الهجرة ويزيده .

ومع ذلك ما تزال توجد في الدولة الواحدة الشاسعة الاطراف عوائق أمام الهجرة الداخلية . منها اختلاف العرق وتفاوت اللغة وهما اللذان يفسران بعض التفسير ضعف تيار الهجرة في الهند لتعدد اللغات فيها ونظام الطبقات وتفاوت العادات والثقافات .

وهنا تأتي سياسة الدولة في دعم تيار الهجرة من منطقة الى اخرى او في تعويقه وحجزه .

يكون دعم تيار الهجرة بفتح مكاتب لتعطي معلومات عن مجالات العمل في مختلف المناطق ، وباعداد برامج لانواع التدريب المهني اللازمة للعمل كي يتلاءم العامل المهاجر مع العمل الذي سوف يمارسه .

وقد يكون التشجيع على الهجرة بمنح رقع من الارض المهملة للمهاجرين كي يستغلوها ، كما حصل سابقا في الولايات المتحدة وكندا وبلاد امريكا اللاتينية وزيلندة الجديدة وغيرها ، أو بمنح عون مالي كما حصل في الاتحاد السوفياتي لحمل المزارعين والايدي العاملة المتخصصة على الهجرة الى المدن في شرقي البلاد .

وقد تكون في البلاد مناطق مكتظة بالسكان واخرى متخلخلة بهم . فتعمد الحكومات الى تشجيع الهجرة من الأولى نحو الثانية . لقد نظمت الحكومة الاندونيسية الهجرة فيها من جزيرة جاوة المزدحمة الكثيفة الى الجزر المجاورة القليلة السكان . وشجعت الحكومة اليابانية على الهجرة من الجزر المتوسطة ذات الكثافات العالية الى جزيرة هوكايدو في الشمال . ومع ذلك فلم تنجح مثل هذه المحاولات النجاح الكافي لتخفيف الضغط بالمناطق المزدحمة .

ويكون تعويق الهجرة الريفية دعما للزراعة في الارياف وذلك بادخال الاصلاحات الاقتصادية والزراعية والاجتماعية والصحية والثقافية . فقد توزع فيها الملكيات الكبيرة ويشجع العمران وتقام صناعات متممة للزراعة وتنشط الحياة الثقافية والاجتماعية .

## العوامل الجغرافية

تتناول بعض البحوث علاقة الهجرة الداخلية بالمسافة التي يجتازها المهاجر . ان اختيار المكان وبعد الشقة متوطان بعوامل مختلفة كتوافر المعلومات المفيدة الدقيقة عن ذلك المكان ، وسبل العمل فيه وتشابه الحياة الصناعية في البلد الاصلي وفي البلد المقصود .

على ان **ستوفر** Stouffer لم يجد علاقة ضرورية بين الانتقال والمسافة وانما وجدها بين بين الانتقال وتوافر سبل العمل ووظائفه . فزعم ان عدد المهاجرين الذين يجوبون مسافة ما متناسب طرداً مع وظائف العمل المتوافرة في نهاية الطريق ، وعكسا مع وظائف العمل التي تتهيأ في ابان الطريق . ومع ذلك فان قضية الهجرة أشد اشتباكا من تلك العلاقة المبسطة . وسنعود الى تأمل رأيه في صدد قياس حركة الهجرة .

**هذا وان الحواجز الطبيعية تؤلف حائلا** يقف امام سهولة الهجرة الداخلية في البلاد الواحدة كما هو حاصل في سويسرة وفي النرويج . فربما كانت التضاريس الجبلية قد قللت بعض الشيء من شدة اتساع عمران مدنها .

وفي مقابل ذلك قد يكون لكبر الدولة واختلاف مرافق الحياة فيها وتعدد تلك المرافق شان في زيادة تيار الهجرة .

واذا تمعنا في هذا الامر تفهمنا بالقياس الى الهجرة الداخلية حركة الهجرة من دولة صغيرة قليلة المرافق الى دولة كبيرة متعددة المرافق .

وقد يكون للمناخ المعتدل الجيد اثر عميق . وقد قيل ان لطف مناخ كاليفورنيا كان اشد جذبا للمهاجرين من بريق الذهب .

• • •

## القسم الثاني

## الآثار الاقتصادية للهجرة



١ ــ لما كانت الهجرة تحمل الفئات الفتية المنتجة لزم ان تغير نسبة عدد المنتجين الى **العيال . ولذلك كانت ذات مكانة** في ميزان النفقات التي تقتضيها اعاشة العيال من شيوخ واطفال . فاذا كان الشعب الذي يتلقى الهجرة هرما بالمعنى الديمغرافي ( اي قليل المواليد ) نجم من تلك الهجرة تخفيف اعباء العيلة . وقد يكون للدولة المهاجر اليها سياسة في الحث على الزواج والانسال فتزيد كثرة المواليد في البداية اعباء العيلة **ولذلك تكون هجرة الشبان من العاملين** الى البلاد مرحبا بها اذ تخفف تلك الاعباء .

ان هجرة العناصر الفتية من الناس هجرة عمل منتج ، ولكن هذا العمل المنتج يحمل في اطوائه المبالغ التي قدمتها البلاد الاصلية لتنشئة تلك العناصر وتربيتها واعدادها طوال مدة الفتوة والشباب ، كما يحمل ريعها وثمراتها . كل ذلك يقدم هدية الى البلاد المقصودة في قوى اولئك العاملين الجسدية والفكرية . وهكذا يستبين كيف ان تيارات الهجرة التي حملت **الالوف المؤلفة** من الاوروبيين ومن سكان الشرق الاوسط الى امريكا وفرت على امريكا نفسها تلك النفقات الكبيرة التي يقتضيها ذلك الاعداد وتلك التربية والتنشئة . فحملت في اشخاص المهاجرين اليها ثراء كبيرا وربما متعاظما . ومن الصعب حساب مقدار ذلك الريع والثراء . وقد اجرى مثل ذلك الحساب الذي يتتبع تكاليف الانسان منذ ولادته الى ان يبلغ سن العمل والهجرة ولكن الارقام ليست الا تقريبية ، اذ كانت تختلف وسائل التربية والتنشئة والاعداد باختلاف الاشخاص والمجتمعات وبتفاوت الاعمال والاختصاصات .

تذهب تلك المبالغ هدرا اذن بالنسبة للبلاد التي يهاجر منها المهاجرون ، وكان هؤلاء يتهاربون مما هم مدينون به لمجتمعهم الاصلي . **ولما كان جلهم او كلهم من الشبان كما ذكرنا كانوا يخلفون**

وراءهم طائفة كبيرة من الشيوخ والعجزة والأطفال الصغار اى يزيدون اعباء العيلة في ذلك المجتمع الذي غادروه . على أنه قد يمدّ المهاجرون أهليهم بالمال حينا بعد حين ، فيتلافون بذلك تلك الاعباء او يؤوبون بثرواتهم بعد تجميعها الى أوطانهم الأولى .

ب – يرى باحثون أن هجرة أدوات الانتاج تفضي الى تعادل أسعارها في مختلف البلاد . فاذا كانت الايدي العاملة رخيصة ومزدحمة في مكان وهاجرت الى مكان آخر هي فيه قليلة وغالية ، ادى ذلك الى انخفاض اجورها في الاماكن المقصودة وارتفاعها في الاماكن الأصلية حتى ينتهي الأمر الى درجة التعادل .

يصح هذا الرأى حين تنافس اليد العاملة المهاجرة اليد العاملة الوطنية في اسواق العمل . ولكن هذه المنافسة اصبحت ضيقة المجال نادرة الوقوع بسبب التشريعات التي تحد من الهجرة وتحمي اليد العاملة الوطنية . وبسبب عدم اختصاص المهاجر احيانا وقلة اطلاعه على شروط العمل في البلاد المتقدمة صناعيا فقد يقع التنافس في الاعمال التي لا اختصاص فيها ، وعندئذ يستغل ارباب العمل جهود المهاجر حيث يعمل فيحمي ابناء البلد اسباب العنت والمشقة . ومع ذلك فقد يؤدي انخفاض الاجور في المجالات غير الاختصاصية الى انخفاضها في مجال الاختصاص .

على ان ذلك الانخفاض لا يقع حين تكون اليد العاملة المهاجرة متممة لليد العاملة الوطنية داعمة لها مكملة اياها في بلاد تنشأ فيها مشروعات واسعة جديدة تزيد في الانتاج الوطني وتوسع الموارد الاقتصادية ، فترفع بالتالي مستوى الاجور وذلك كما حدث في الهجرة الى الولايات المتحدة سابقا . فانه لما زاد عرض اليد العاملة غير الاختصاصية ابان الهجرة اليها تفتحت آفاق جديدة للعمل ادت الى رفع مستوى الحياة ورفع الاجور معه .

ان التنسيق بين الاجور واسعار السلع المصنوعة يحتاج لبعض الوقت ، ولهذا كان انتظام الهجرة يسمح بامثال ذلك التنسيق وتكون الاجور اقل تعرضا للاضطراب مما لو جرت الهجرة بدفقات مفاجئة غير متوقعة . على ان نقابات العمال في البلاد المتقدمة تشرف على مستوى الاجور وتحول دون انخفاضه .

والتحليل نفسه ينطبق على الاجور في البلد الأصلي الذى تصدر عنه الهجرة . نعم هنا يكون التاثير مباشرا فالعامل لا يجهل شروط العمل وهو لا يصطدم بتشريع يحدد له مقامه . ربما يسبق الى الوهم ان الاجور ترتفع لنقص اليد العاملة ولكن ذلك لا يحدث دائما . فقد تكون الهجرة حائلة دون نشوء مشروعات جديدة فلا تزيد الموارد الاقتصاديه ولا يرتفع مستوى الحياة .

ج – هذا وغالبا ما يظن ان الهجرة الى البلد تعرض طائفة من سكانه لخطر البطالة وان الهجرة منه تقلل ذلك الخطر .

ربما كان هذا التخوف سببا في تحديد نطاق الهجرة ببعض البلاد ايام الازمات عند حلول البطالة فيها ، كما كان سببا في حمل بعض البلاد على تشجيع الهجرة منها . بيد ان دراسات جديدة انتهت الى نتائج مغايرة لذلك الظن .

يأتي المهاجرون من ميادين مُعيّنة . ويقيمون بمناطق مُعيّنة أيضا ، فلا ينافسون مباشرة اليد العاملة الوطنية . وربما دخلوا في مشروعات جديدة فسدّوا الحاجات المطلوبة في بعض الصناعات وزادوا النشاط الاقتصادي . وربما أدى النزوح في المقابل من بعض ميادين العمل في البلاد الأصلية الى ضيق وعسر ينتهيان الى البطالة وشح الموارد .

ثم ان المهاجرين مستهلكون أيضا زيادة على كونهم منتجين ، فهم يحتاجون الى سلع الاستهلاك المختلفة من مساكن واثاث وملابس واطعمة وغيرها ، فهجرتهم تزيد الطلب على أمثال تلك السلع .

واذا ضم المهاجرون بينهم ممثلين لشتى انواع العمل فلا يلزم من هجرتهم حلول البطالة في البلد التي يهاجرون اليها .

لا يزاحم الأطباء والحلاقون احدا على حد تعبير « الفرد سوفي » ، لأن المهاجرين انفسهم بحاجة الى حلاقين والى خدمات طبية متنوعة .

وينطبق التحليل نفسه على احوال البلد الأصلي الذي تصدر عنه الهجرة . ومعنى ذلك ان عواقب الهجرة في هذا المجال ليست بسيطة ، وانما تتداخل هي وشؤون اخرى بحيث تكون احتمالية .

ان البطالة في التحليل الماركسي عاقبة لا مندوحة منها لتراكم رؤوس المال في المجتمعات الراسمالية ، ويمكن خفض البطالة بتشجيع الهجرة من البلاد عندئذ . ذلك ان الراسمالية قد اتسعت في النصف الأول من القرن التاسع عشر اتساعا سريعا ، وكانت الهجرة من اوروبا ضئيلة فانتشرت البطالة وحلّ الشقاء بين افراد الطبقة الكادحة في اوروبا الغربية . ولما اشتدت الهجرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتمست الدول الغربية لها اسواقا جديدة في مستعمراتها كان ذلك علاجا غير مباشر للبطالة وللضيق عندها . ثم بدأت الهجرة من جنوبي اوروبا وشرقيها ولكنها لم تكن كافية لكي تعدل آثار تراكم رؤوس الاموال . ولما حلّ القرن العشرون اشتد تكدس رؤوس الاموال في اوروبا وتجاوز امكان التنسيق بين البطالة واستغلال اسواق المستعمرات الكثيرة على الرغم من تدفق تيار الهجرة فكثرت البطالة وتدنت الاجور . ويقدر بعض الباحثين عدد العمال المهاجرين من اوروبا بين عامي ١٨٠٠ و ١٩١٠ بخمسين الى ستين مليون عامل . يدخل في هذا العدد الابناء المتحدرون من المهاجرين انفسهم . فلو لم تتدفق تلك الهجرة الى خارج اوروبا لكانت البطالة المزمنة التي ستتحكم بين اولئك العمال حافزا على اندلاع الثورات في بلادهم .

وايا كان الأمر فان الرؤية تقتضي تأمل سياق الهجرة ، وتستدعي تبيّن مختلف العوامل المرافقة لها في البلاد التي تمسها ، وتستلزم استبانة غزارتها وطول امدها وآثارها القريبة والبعيدة .

هذا ولا بد في صدد بحث الآثار الاقتصادية من الاشارة الى الاموال التي يأخذها المهاجر او يهربها الى مكان هجرته الجديد خوفا عليها من ان تمسها يد التأميم . وكذلك لا يفوتنا التلويح

بالمبالغ التي يدخرها المهاجر في بلد هجرته ويرسلها الى اهليه وذويه كما سلف او يرجع بها عند اوبته النهائية . والمهم هنا حسن التصرف بتلك الاموال وتثميرها في كلا الجانبين ، وكذلك حسن تلاقي خروجها او دخولها . فلكل امر جانب سلبي وآخر ايجابي .

ولا شك ان هذه العواقب الاقتصادية ملتحمة بالآثار الديمغرافية .

## الآثار الديمغرافية

سبق ان المعنا بأن ارتفاع معدل النمو الطبيعي للسكان في قطر يحفز على الهجرة منه ، وان انخفاضه يشجع على الهجرة اليه . في المقابل تستطيع الهجرة نفسها ان تكون مؤثرة في معدل النمو الطبيعي على التفصيل الآتي :

لو بقي الناس في امكنتهم الاصلية لتصعب عليهم حسن استغلال الموارد الطبيعية في العالم ، كما يتصعب عليهم ان يفسحوا في مجال العيش لانواع جديدة ما تفتا تفد الى العالم في تمطط المواليد . لقد ساعدت هجرة الناس الى اماكن قليلة السكان كما حصل في امريكا وكما يحصل في سيبريا على اقامة التوازن بعض الشيء بين عدد الناس والموارد المتوافرة . من وجهة النظر هذه **يمكن القول ان الهجرة** دعمت زيادة النمو الطبيعي للسكان في العالم على فترات طويلة والى مدى **بعيد، وانه لولاها لامتنع على ذلك المعدل ان يزيد.**

اما معدل نمو السكان الطبيعي في الاماكن المقصودة او في الاماكن الاصلية فمن الصعب ايضاح علاقات عامة حتمية لآثار الهجرة فيه . تلك الآثار متعلقة بصفات الهجرة هل هي نهائية او طويلة الامد ، وباعمار المهاجرين وجنسهم من ذكور واناث ، وبمعدل المواليد والوفيات في تلك الامكنة المقصودة ، وبخصب السكان المحليين ووفياتهم ، كما يمكن استشفاف تلك الآثار ايضا في سكان الأوطان الاصلية التي صدرت الهجرة منها .

**الهجرة الى البلاد واثرها في نمو السكان** ـ يرى بعض الباحثين ان الهجرة الى البلاد لا تؤثر في زيادة سكانها الا اذا حملت معها تنظيما اقتصاديا جديدا ناجحا او غيرت نمط استهلاك السلع بينهم . ومن الواضح ان هذه النظرة تعزى الى نظرية مالتوس في السكان .

ويرى آخرون أن تلك الهجرة قد يكون لها اثر ولكنه غير مباشر في معدل نمو السكان ، وأن اثرها هذا قد يكون خفض ذلك المعدل حين ترتفع عمران المدن وفي تقدم الصناعة وتحسين مستوى المعيشة وتبديل نمط السلوك من الوجهة النفسية . واذا اقام المهاجرون بالمدن كان مقامهم عائقا لهجرة الريفيين من اهل البلاد الى تلك المدن فيحافظ الريفيون على معدل نموهم الطبيعي . وهكذا نجد ان الامور احتمالية ، وليس من التبصر في شيء اقحام علاقة حتمية ثابتة في هذا الشان .

اذا اغفلنا السكان الاصليين في المكان الذي وصل اليه المهاجرون فان زيادة سكان هذا المكان بالمهاجرين انفسهم تابعة لامد الهجرة ، فان كانت الهجرة نهائية واستمر مقامهم بالمكان ربوا وازدادوا ازديادا كبيرا اول الامر وذلك بسبب تركيبهم الفتي ، فان اكثرهم من الشباب ومعدل الوفيات بينهم ضئيل . بيد ان هذا الازدياد الشديد لايلبث ان يتمهل الا اذا استمرت الهجرة . فان

توقفت او تحولت لم يلبث عامل الزمن ان يغير تركيبهم العمري ، ويوجهه نحو الشيخوخة والهرم فينقص عندئذ معدل المواليد بينهم ويرتفع معدل الوفيات .

ويلاحظ في الهجرة الخارجية ارباء الذكور في العدد على الاناث وهذا يفضي الى ارتفاع نسبة الزواج بين النساء المهاجرات ، والى التبكير فيه فيرتفع معدل الخصب بينهن ايضا . ولكن ربما يتمهل الازدياد بعض الشيء ان بقي جزء من الذكور عزابا . وقد يختلطون بالسكان الأصليين ويتزوجون من نسائهم فيكون ذلك عاملا في زيادة السكان .

ان المهاجرين في الغالب يأتون كما سبق من بلاد معدل المواليد فيها عال فيبقى هذا المعدل بينهم في مقامهم الجديد عاليا ايضا . ولكنهم بالتدريج قد يكتسبون عادات البلد الجديد ويتجهون نحو الانصهار فيه اتجاها سريعا او بطيئا بحسب الظروف . وقد يكون البلد الجديد صناعيا فيحملهم طراز الحياة فيه على تنظيم اسرهم ، وضبط نسلهم . ولكن هذا الضبط لا يكاد يتم الا بعد جيل او جيلين .

ويرى **هلفاكس** وهو عالم اجتماعي من مدرسة دركايم الفرنسية ان العامل المرفولوجي ذو اثر بليغ في زيادة النسل او قلته ، وان الناس في هجرتهم نحو مناطق قليلة السكان يزيد نسلهم بصورة عامة . وبالمقابل اذا وصلوا الى مناطق غاصة لا بد ان يحدّوا من ذريتهم كما يفعل المرء في الزحام حين يلم من ذاته . وكل ذلك يأتي بصورة غير مباشرة عن طريق التأثر بنفقات المعيشة وانماط التفكير والسلوك المشترك .

**الهجرة من البلاد واثرها** ـ لقد المنا بعض الشيء باثر الهجرة في معدل نمو السكان للبلد المقصود فما هو اثرها في ذلك المعدل نفسه للبلد الاصلي الذي انطلقت منه الهجرة ؟ هنا ايضا يصعب الوصول الى علاقة حتمية جازمة . ذلك ان بعض الباحثين يرون ان هذه الهجرة حين تخفض الضغط الديمغرافي في البلد الاصلي وتنقص عدد بعض الافواج فانها على المدى الطويل تنشط الزواج فيه وتدعم خصب الانسان وتزيد في العاقبة معدل النمو . ويرون ان اوروبا انما ازدادت ذلك الازدياد السريع ابان القرن التاسع عشر بعد هجرة طائفة كبيرة منه . نستطيع ان نتفهم هذا الرأي حين نشبه المجتمع بالجسد . فكما ينشط الجسم بالتعويض حين يؤخذ جزء ضئيل من دمه كذلك يتكاثر الناس ويربل المجتمع حين تهاجر طائفة منه . ويرى الباحث الايطالي **كورادو جيني** انه قد يصح ذلك في بعض البلاد ولكنه لا يصح في اخرى .

هذا الادعاء يرفضه آخرون حين يزعمون ان اوروبا يكون عدد سكانها اكبر بكثير لو لم يمسها تيار الهجرة اذ كان يزداد سكانها ثمانية وثمانين مليونا فوق ما ازدادوا بين عامي ١٨٠٠ و ١٩١٠ لولا اجتياح ذلك التيار لها .

هذان الموقفان المتعارضان محتملان بالنظر الى سياق ظروف الهجرة . فالهجرة من البلاد قد تخفض الضغط الديمغرافي فيها وتحفز على النشاط كما سلف بالتبكير في الزواج وبالترغيب في الذرية وبخفض وفيات الرضع ، او قد تقف عائقا اذ يكون المهاجرون من البلاد على الغالب شبانا فتدخل الهجرة خللا في توازن فئات الاعمار بين الذكور والاناث ويرتفع معدل الوفيات ، لان

وفيات المهاجرين الشبان أقل من وفيات المقيمين . وربما نقص بسبب الهجرة معدل المواليد في البلاد ايضا .

وهكذا يختلف النظر الى آثار الهجرة من البلاد هل تستطيع ان تخفض حقا مقدار الضغط الديمغرافي الحاصل بكثرة المواليد ؟ لقد تبين للباحثين ان هذا الخفض اسهل سبيلا واقرب مأتى حين يحصل عن طريق التصنيع ورفع مستوى المعيشة وتحسين وسائل الزراعة وزيادة الوعي والثقافة خصوصا في بلاد العالم الثالث ، وان الهجرة ليست الا بلسما وقتيا لذلك الضغط يهدىء ولكنه ليس بالعلاج الناجع .

هذا وعند اعتبار الهجرة الداخلية نوهت نظريات عرقية كآراء **هانسن في المانيا** اواخر القرن القرن التاسع عشر باهمية العرق الصافي الغامر الكثير التوالد في الارياف وهو الذي يمد المدن بفيض من ابنائه الاشاوس القاديم ، ولكنهم يختلطون بغيرهم في المدن ويتأثرون بعادات هجينة وتنقص بذلك مواليدهم وينضب بالتدريج ذلك المعين الثر المتحدر من الارياف الذي هو ذخر المجتمع ومصدر حضارته الخلاقة . وقد تبذت تلك الآراء على العموم ، **ولكن الباحثين مع ذلك** يرون ان معدل المواليد العام في البلاد لا بد من ان يتناقص بوجه عام بسبب تيار الهجرة الريفية التي تحمل الشبان الى المدن وتغير من عاداتهم الديمغرافية فيها ، كما تترك فراغا ديمغرافيا بالارياف وراء تلك الفئات المهاجرة .



ومهما يكن من امر هذه البحوث المتعارضة فان عددا من الامم كاليابان مثلا اجتاحها تيار الهجرة الريفية وزاد سكانها على الرغم من ذلك حتى وقت قريب .

هذه الآثار كلها وثيقة الصلات بالأمور الثقافية والاجتماعية .

## الآثار الاجتماعية

ليس المهاجرون منتجين ومستهلكين فقط ، وانما هم ايضا اناس هاجروا بعاداتهم ولغاتهم وافكارهم ونحلهم الدينية وآرائهم السياسية ونوازعهم الشخصية وماضيهم السحيق وآمالهم المجنحة ، فلا بد من التوفيق بين ذلك ومقتضيات مجتمعهم الجديد . وهو عملية قد يطول امدها او يقصر ، يتم بنجاح او يخفق . وذلك متوقف على تدابير السلطات المسؤولة عنهم في مكان الوصول وعلى البيئة الانسانية التي ينزلون بين ظهرانيها .

عناصر الانسجام والتلاؤم متعددة لا بد من الاشارة الى بعضها .

قد يقع تنافس اقتصادي بين المهاجرين واهالي المنطقة فينجم عنه حذر وكراهية عميقان ، والا فالحياة سهلة والوفاق غير عسير .

وربما يتعطل المهاجر عن العمل او يصيبه المرض فيبيت عبئا على الدولة المضيفة . فاذا منحت الدولة الصناعية المهاجرين حقوق رعاياها من التامين على المرض والبطالة سهلت عليهم الاندماج ودرأت عنهم اشباح البؤس وما يجره من عواقب وخيمة واعباء ثقيلة على المجتمع نفسه .

على انه قد تختلف العادات والتقاليد واللغة فيتصعب الاندماج وتقدر مشكلات تنم على الشذوذ المدني وتشف عن النشوز الاجتماعي . والزواج المختلط بؤرة شقاق ونزاع في بعض الاحيان .

ويبذل المهاجرون جهودا نفسية للمواءمة ، فان لم تنجح ظهرت عنها اضطرابات عقلية متفاوتة ولا سيما بين ابنائهم ، لان الآباء يعيشون في اجواء نفسية شبه منعزلة بسبب العادات المتاصلة لديهم . ولكن ابناءهم يمزقهم التفاوت بين عادات اهليهم وعادات اترابهم في المجتمع الجديد ، بين الاسرة وجو المدرسة ، بين الطباع الموروثة والتطبع المكتسب .

قد يتجمع المهاجرون من الشعب الواحد في بلد الهجرة ويحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم فيؤلفون ما يدعى بالجالية وظهور امثال هذه الجالية يثير مشكلة التعايش بينها وبين السكان الاصليين . وقد يتجه هذا التعايش نحو الانصهار بين الطوائف بحيث يؤثر بعضها في بعض ويفقد كل منها بعض خصائصه ، او نحو الاندماج بحيث يزول بعضها ويذوب في البعض الآخر ، او هي تحافظ على التفرقة العنصرية بحيث تقيم هي من عاداتها وقوانينها ونظمها حواجز فاصلة .

هذا وربما كان من المناسب ان نذكر هنا بعض الامثلة على النشوز الاجتماعي والاضطراب النفسي اللذين يتعرض لهما المهاجرون .

ان المسح الذي جرى على البولونيين في فرنسا كشف عن ان الذين اجرموا منهم وظهرت عليهم اعراض الاختلال العقلي كانوا عمالا زراعيين يعيشون في مزارع نائية **معزولة لا سبيل لهم الى** الاتصال بالناس .



لقد جرت محاولات لوصف مغبات الهجرة على شخصيات المهاجرين وعلى تكيفهم النفسي وعلاقة ذلك بالامراض العقلية . فلوحظ ان اعلى نسبة للمرض العقلي موجودة عند المهاجرين الذين وقعوا في ضروب من الصراع الثقافي ابان تلاؤمهم مع ثقافة اجنبية جديدة . وقديما راى ايقراط ان المبعدين عن اوطانهم الاصلية تساورهم نوازع من الاضطراب شديدة . ولقد جاء في الشعر العربي :

وارحمتا للغريب في البلد النا — زح ماذا بنفسه صنعا

ضيّع اخوانه فما انتفعوا — بالعيش من بعده ولا انتفعا

يدل مضمون هذين البيتين على حالة الضياع والقلق والحنين التي تخامر نفس المهاجر البعيد . وقد وضع **هوفر** Hofer عام **١٦٨٥** لفظة النوستالجيا اي الحنين لتدل على حال المهاجرين الذين تلوح عليهم امارات **التفكير الدائم** في اوطانهم ومعها سمات الحزن والارق والزهد في الطعام والضعف والقلق **وخفوق القلب** والذهول وكتمان المشاعر . ولكن قد تنطوي الموازنة بين المهاجرين وسكان **البلاد الاصلية على** مزالق خفية . ذلك ان المهاجرين الذين استجابوا لتيار الهجرة قد اصطفاهم **هذا التيار اصطفاء** شديدا وهم لذلك يشتركون في صفات خاصة تؤثر في نسبة المرض الذي قد يصيبهم .

لقد ساق مثلا تيار الهجرة الماضي الى ماوراء البحار الشبان الذكور من افقر الطبقات الاجتماعية في اوروبا وفي غيرها ، كما ساق فئات اخرى من مختلف الاعمار ذكورا واناثا ، فلا تجوز عندئذ المقايسة بين اولئك المهاجرين جملة وبين السكان الاصليين المضيفين . لا بد عندئذ من الانتباه لبعض العوامل كتأثير قوانين الهجرة الاصطفائية وتأثير السن او الجنس للتعرض للامراض . ان بعض الذين هاجروا هم اناس يحبون التنقل ويكرهون الاستقرار ، وربما كانوا مهيئين بذلك لمرض انفصام الشخصية . فكأنهم اصطفوا انفسهم لركوب متن الهجرة . لقد كان هذا الاصطفاء الذاتي التفسير المفضل في ارتفاع معدل المصابين بالفصام بين النرويجيين الذكور الذين هاجروا الى مينيسوتا . وابانت الكشوف السريرية ان الهجرة قد تصيب صاحبها بمرض البارانويا . يمكن ان نسمي صاحبها باللغة العربية البرشاع او الفجفاج . ويعالج هذا المرض باعادة المصاب الى الوطن الذى تركه والى الثقافة التي اعتادها وعاش في جوها ولاءمت ميوله ونوازعه .

والطريف في البحوث التي اجريت على المهاجرين عند اضطرابهم انها اظهرت الاوضاع الاجتماعية لمرضاهم من خلال ضروب هذياناتهم . فلقد ابرز مرضى الفصام في الولايات المتحدة بين الذكور المتحدرين من اصل ايرلندى او اصل ايطالي مجموعة من الاعراض المتناقضة تتعلق تعلقا ظاهرا بثقافتهم الاصلية . يكابد الايرلندي الادمان على السكر ، كما يستحوذ عليه الاهتمام بالاثم والجرم فيغدو رهن الهذيان المستمر . ويجنح الايطالي نحو الشذوذ الجنسي ( الجنسية المثلية ) ويضطرب سلوكه ويبرز عداؤه للسلطة . هذه الفروق تعزى الى تأثير محيطهم الاجتماعي والثقافي . وقد جرت دراسة مشابهة على الايرلنديين والايطاليين مكنت الباحثين من توقع طائفة من ردود افعالهم . الاسر الايرلندية تسيطر فيها الامهات ، والآباء ظلال لا شأن لها ، والاولاد اطفال واعباء ابدا قلقون مكبوتون جنسيا ، لهم مواهب الخيال لا العمل . ويسيطر في الاسر الايطالية الآباء ويطلقون لابنائهم حرية التعبير عن الانفعال والاعتداء ( الجسدى ) والقضايا الجنسية .

واذا التقت مجتمعات على غاية من التعارض في العرق والثقافة كما كان الامر عندما استوطن الاوروبيون في افريقية نشأت ضروب من الصراع الاجتماعي والسياسي تنغص حقا حياة الناس وتؤدي الى اضطراب الهيئات الاجتماعية اضطرابا جزئيا او كليا . وامثال ظاهرة الماوماو في كينيا وتقديس البضائع المشحونة في غينية الجديدة والحركات الوطنية الافريقية واعمال العنف العرقي في المجتمعات المختلفة ، كذلك الجرائم الفردية بين الاطراف المتقاتلة المتقابلة في جنوب افريقية ، كل تلك الظواهر يمكن ان تعتبر ضروبا شتى للصراع الاجتماعي والثقافي والسياسي .

ذلك ان بعض انواع الهجرة ضرب من الغزو العسكري بل قد رافقت الحملات العسكرية فعلا . ولا شك ان الاستعمار الغربي كان آفة كبيرة على كثير من الاقوام في مختلف نواحي الارض . وأيا كان الامر فان ثمة من الدراسات الواسعة التي تدخل في هذا النطاق ما يكاد يتجاوز الحصر .

### آثار الهجرة الداخلية

هذا وان آثار الهجرة الداخلية تشبه في مختلف المجالات آثار الهجرة الدولية . وبشيء من التأمل يمكن عرض آثار الهجرة الداخلية على غرار آثار الهجرة الدولية في المجال الاقتصادي والديمغرافي والاجتماعي ، مع بعض الفروق في التنظيم والاستمرار والتوجيه .

ان المدن تنمو كما سبق بالهجرة الريفية اليها . واذا لم تنظم تلك الهجرة اشتد الازدحام في المناطق الفقيرة وتجاوز امر تخطيط المساكن في الضواحي طاقة الحكومة . وقد تتصدع الاسر ويتشرد الاطفال وتستشرى الجنح والجرائم وتضطرب الاخلاق وتشتد العلل . ولكن هنالك تطورا عاما في العادات يجرى في مختلف المناطق قريبه او بعيده ، دانيه او قاصيه. ويزيد اشراف الحكومات في الوقت الحاضر على مختلف مرافق الحياة العامة والخاصة .

ان الهجرة الريفية في العصر الحاضر هي التي جعلت المدن تتكاثر وسكانها يزدادون ذلك الازدياد المتعاظم العملاق الى الحد الذى نجده اليوم . كان الريفيون قديما اكثر من المدنيين بوجه العموم . واليوم انقلب الميزان في البلاد الصناعية بسبب التطور الاقتصادى فاصبح مجموع سكان المدن أعلى بكثير من مجموع سكان الارياف . وبهذا الاتساع الكبير تغيرت حياة الانسان نفسها في المجال الاجتماعي والنفسي والتموني. لقد قل شان الجماعات الاولى كالاسرة الكبيرة والعشيرة والطائفة وامثالها مما كان يؤلف اطارا يحف بالمرء من كل جانب ويمسكه في معترك الحياة ويربطه بمحيطه الانساني ويمدنيته. فتفرقت تلك الجماعات وانتشرت في غمار الحياة وغدا المرء كائنا متنقلا بين سيول الجماهير الغفيرة يشعر بوحدته ولا يرتبط الا بعمله ووظيفته ، وحلت العلاقات المالية محل العلاقات الودية الشخصية وصار الانتاج والاستهلاك هما المقولتين الهامتين في كيان المدينة الكبيرة المتسعة.

ان التاريخ لا يرجع الى الوراء واشكال الحياة المتمهلة لن تعود . وهذا الوضع الحاضر انما هو عاقبة التطور الاقتصادى العميق . والمهم الآن هو اسباغ مزايا القلب والروح في أجواء المدن بالاضافة الى حسن التخطيط والتنظيم العقليين .

على ان الاتساع الكبير في عدد السكان المدنيين جعل الحكومات في بعض البلدان تتخذ التدابير المناسبة لتقوية تيار الهجرة الى الارياف ولا شك ان وسائل المواصلات اليسيرة وجمال الريف وادخال بعض الصناعات فيه يدعم ذلك ،كما ان شيوع الهاتف والراديو والتلفزيون يقلل العزلة فيه ويزيد من الاتصال بالمدن اى زيادة .

لقد اسهبنا في بيان اسباب الهجرة الخارجية والداخلية وآثارهما ما اتسع لنا مجال القول ، وذلك في توازن شديد بين الاسباب والآثار وفي تشابه كبير بين هاتين الهجرتين . وقد آن لنا ان نعرض طرق قياس الهجرة وتخمين عناصرها.

• • •

## القسم الثالث

## قياس الهجرة وتخمين مقاديرها

يعتمد العلم على القياس الى درجة انه قيل في تعريفه انه قياس المقادير . ذلك ان الظواهر اذا تلامحت بشكلها الكيفي بقيت غامضة وداخلها نصيب من الابهام . ومتى انقلبت بالقياس الى مقادير كمية ازداد وضوحها واشتدت دقتها وانجلت جوانبها العلمية. والهجرة كبقية الظواهر الديمغرافية تحتاج الى ان يتناولها القياس وتفتقر الى ان تعبر عنها الارقام . وثمة طرق متعددة لقياسها اصبحت متعارفة يسهل عرضها . ولكن لما كانت الهجرة متشابكة العوامل ، متفاوتة المعلومات في الدقة ، لزم الانتباه لذلك عند كل تطبيق ولدى اجراء كل حساب احصائي في هذا الشأن . ونحن نعرض هنا اشمل هذه الطرق واخصها بالتعليم .

### القياس المباشر ـ

يتيسر هذا القياس حين يتيسر تسجيل حركة الهجرة كما تجري في الواقع . واذا تمت الهجرة بالبحر او الجو من دولة الى دولة يصح الاعتماد على كشوف المسافرين في الباخرة او الطائرة لمعرفة نوع انتقالهم ، وذلك عند الاقلاع او الارساء . ولكن اذا كانت الحدود بين الدولتين برية غدا الاحصاء اقل دقة ما لم تتخذ التدابير لتمييز المهاجرين من السياح الذين لم يغيروا محال اقامتهم ولضبط حركة المرور على الحدود. وبوجه عام تؤخذ المعلومات في مراكز الهجرة عن خصائص المهاجرين الاجتماعية والاقتصادية والديمغرافية والقومية حين يهاجرون من دولة الى اخرى ثم تجمع وتصنف وتبوب وتغدو صالحة للافادة . وقد يعتمد في احصاء الهجرة على جوازات السفر او سمات الدخول او تصريحات الاقامة او تصريحات العمل . فهي كلها تبرز هجرة الأجانب . اما في شأن الهجرة الداخلية فان بيانات تغيير محال الاقامة ، والجوابات عن بعض السؤالات المطروحة في التعداد وسجلات الأحوال المدنية وسجلات المعاهد العلمية وغيرها تشف عن هذه الهجرة .

فمجموع القادمين الى البلاد والنازحين منها يدعى حجم الهجرة كما سلف ، وينسب الى متوسط عدد السكان في السنة او في خلال فترة زمنية مسماة فيحصل معدل حجم الهجرة . وهو يقيس حركة الهجرة الخارجية التي تحدث من البلاد الى خارجها والعكس ، فيظهر هذا القياس مدى نشاط تلك الحركة .

والفرق ما بين القادمين والنازحين او الداخلين والخارجين يدعى « صافي الهجرة » او « ميزان الهجرة » . وهو فيض الهجرة اذا اربى عدد المهاجرين الى البلد و « غيض الهجرة » ان نقص . وينسب صافي الهجرة الى عدد السكان في منتصف السنة فيحصل معدل صافي الهجرة او معدل فيض الهجرة او معدل غيض الهجرة بحسب الاعتبارات .

ويمكن ان تنسب النازحين الى متوسطعدد السكان خلال السنة فذلك معدل النزوح او معدل الهجرة من البلاد ، او تنسب القادمين اليه فذلك معدل القدوم او معدل الهجرة الى البلاد . وهكذا يتحصل معنا اربع علاقات بسيطةمتمايزة :

معدل حجم الهجرة = $\frac{\text{ق} + \text{ن}}{\text{ك}} \times \text{لا}$ (١)

معدل صافي الهجرة = $\frac{\text{ق} - \text{ن}}{\text{ك}} \times \text{لا}$ (٢)

معدل النزوح = $\frac{\text{ن}}{\text{ك}} \times \text{لا}$ (٣)

معدل القدوم = $\frac{\text{ق}}{\text{ك}} \times \text{لا}$ (٤)

(ق) عدد القادمين ،(ن) عدد النازحين ،(ك) متوسط عدد السكان في السنة (لا) عدد ثابت يعتبر في الغالب مائة او الفا .

ان الهجرة الى المجتمع بمثابة المولودية ،فهي تزيد في السكان ، والهجرة منه بمثابة الوفاة فهي تنقص السكان ، وان كان البون كبيرا جداوشاسعا بين الوفاة والهجرة من الوجهة الفردية ومن الوجهة الانسانية ، اطال الله اعمار المهاجرين ورد غربتهم . ولكن النظرة الديمغرافية على الاغلب حسابية . ثم ان معدل صافي الهجرةيشبه الى حد ما معدل النمو الطبيعي الذى هو الفرق بين معدل المواليد ومعدل الوفيات .

على انه يمكن ان نلاحظ ما يلي :

١ ـ معدل المواليد ومعدل الوفيات يتعلقانبمجتمع ما . بيد ان معدل الهجرة الى البلد يقرن طائفة من مجتمع بمجتمع آخر قد يختلف في كثيرمن الخصائص عنه .

٢ ـ معدل المواليد ومعدل الوفياتوامثالهما امور عامة ومستمرة في مختلف المجتمعات لا يخلو منها مجتمع ، على حين تيارالهجرة تتغير جهاته ويشتد او يضعف بحسب الظروف وبحسب البلدان والمجتمعات .

٣ ـ يمكن ايضا حساب نسب خاصة باعمارالمهاجرين من البلاد او اليها وبجنسيهم من الذكور والاناث ، وبقومياتهم وبصفات اخرى لهم اقتصادية او ثقافية او غيرها .

٤ ـ مهما دق ضبط الهجرة فهي لا شكاقل انضباطا من تسجيل المواليد والوفيات ولذلك كانت معدلاتها اقل دقة ايضا .

٥ ـ في حساب الهجرة الداخلية قد تعدهجرة المهاجر من مكان الى آخر مرتين : مرة بصفة النزوح ومرة بصفة القدوم .

**التخمين او القياس غير المباشر : ـ**

١ ـ يكون ذلك بطريقة الاحصاء الحيوى ،اذ يحسب الفرق بين نمو السكان الكلي المشتمل على الهجرة ونمو السكان الطبيعي المقتصر على المواليد والوفيات . فالفرق يعطينا ذلك التخمين:

$$\text{ك}_{\text{ز}} = \text{ك} + \text{م} - \text{و} + \text{ص}$$

(ك) عدد السكان فى التعداد الأول ، (ك ز)عددهم فى التعداد الثاني الذى جرى بعد فترة (ز) من الزمن ، (م) المواليد خلال الفترة ، (و)الوفيات ، (ص) صافي الهجرة

$$\text{فيكون ص} = (\text{ك}_{\text{ز}} - \text{ك}) - (\text{م} - \text{ن})$$

وفي هذه الحال ينبغي ان يكون تسجيل المواليد والوفيات دقيقا .

٢ ـ وكذلك تعتمد طريقة التعمير في القياس غير المباشر . وهي ان يؤخذ عدد السكان في التعداد الأول ثم يتنبه لنسب التعمير فى فئات الاجيال المختلفة ويحسب ما يصير اليه عدد السكان فى زمن التعداد الثاني . والفرق بين التعداد الثاني وحصيلة حساب التعمير يعطي صافي الهجرة :

$$\text{ص} = \text{ك}_{\text{ز}} - \text{ك}_{\text{ت}} \qquad \text{ك}_{\text{ت}} \text{ عدد السكان المحسوب بنسب التعمير}$$



ولما كان هذا الحساب يجرى على أجيال مختلفة من السكان امكن ان يكشف حاصل الحساب عن صافي الهجرة فى كل فئة من فئات الاعمار .

٣ ـ وقد يلجأ الى طريقة مكان الميلاد . ذلك ان اغلبية التعدادات فى العالم تضع سؤالا عن مكان ميلاد الشخص . فيصح عندئذان نقارن مكان الميلاد بمكان الاقامة الحالي لنستخلص صافي الهجرة في زمن التعداد . فنحن اذ ذاك نطلع على مقدار المهاجرين بين المقيمين من السكان . ولكن هذه الطريقة لاتعلمنا شيئا عن زمن هجرة المهاجر . وكذلك لا تشف عنها دائما ، اذ ربما عاد المهاجر بعد هجرته الى مكان اقامته الاصلي قبيل التعداد .

٤ ـ يضاف الى جميع ما سلف المسوح السكانية . فهي تستطيع ان تستشف بطرقها الخاصة عن تيارات الهجرة . ولكن طرق المسح بالعينة هذه عامة وليست مقصورة على الهجرة . فنكفى الاشارة اليها .

هذا ، ومتى عرفت المقادير السالفة امكن حساب قرائن او ادلة عددية مختلفة تشف عن مدى الفائض او النائض من الهجرة في كل بلد كما يلي :

$$\frac{\text{النازحون}}{\text{القادمون}} = \frac{\text{ن}}{\text{ق}} \qquad (1)$$

فيض الهجرة / القادمون = (ق ــ ن) / ق       حين ق > ن       (٢)

فيض الهجرة / النازحون = (ن ــ ق) / ن       حين ن > ق       (٣)

القادمون / حجم الهجرة = ق / (ق + ن)       (٤)

النازحون / حجم الهجرة = ن / (ق + ن)       (٥)

فيض الهجرة / حجم الهجرة = (ق ــ ن) / (ق + ن)       (٦)

وربمـا يجـدر ان نذكر امثلـة على بعض العلاقات السابقة فناخذها من استراليا :

عدد المهاجرين اليها خلال سنة ١٩٦١ = ١٢٧ر٥٨٦

عدد المهاجرين منها خلال سنة ١٩٦١ = ١٤٧ر٩٥

عدد سكان استراليـا مقدرا في ١ تموز ( يوليو ) سنة ١٩٦١ = ١٠ر٥٠٨ر١٨٦

معدل القدوم = (١٢٧،٥٨٦ × ١٠٠٠) / ١٠،٥٠٨،١٨٦ = ١٢،١

معدل النزوح = ٥٩،١٤٧ / ١٠،٥٠٨،١٨٦ × ١٠٠٠ = ٥،٦

الفرق بين المعدلين يعطي معدل ميزان الهجرة وهو فيض = ٦،٥

جمع المعدلين يعطي معدل حجم الهجرة او مدى نشاطها = ١٧،٧

اما القرائن التي سلفت فمن السهل حسابها . منها مثلا :

فيض الهجرة / القادمون = ٦٨،٤٣٩ / ١٢٧،٥٨٦ = ٥٤٪

وهذا معناه ان نسبة الفائض الى القادمين هو ٥٤ في المائة .

وكذلك يمكن ان نحسب :

(ق ــ ن) / (ق + ن) = ٦٨،٤٣٩ / ١٨٦،٧٣٣ = ٣٧٪

اى نسبة الفائض الى حجم الهجرة هو ٣٧ في المائة وهكذا . .

ولو اجرينا الحساب على ايطاليا عام ١٩٦١ لوجدنا ان ميزان الهجرة فيها هو غيض لأن تيار النزوح أقوى من تيار القدوم .

وقد ينسب فيض الهجرة الى مقدار النمو الطبيعي للسكان فنحصل على النسبة المئوية لنمو السكان بالهجرة الى نموهم الطبيعي .

$$\frac{\text{ق} - \text{ن}}{\text{م} - \text{و}} \times ١٠٠$$

( ق ) القادمون كما سبق ، ( ن ) النازحون ، ( م ) المواليد ، ( و ) الوفيات .

نأخذ المثال الآن على جاميكا بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٠

| | | |
|---|---|---|
| ميزان الهجرة | = | ١٣٠٦٠٥ ــ |
| النمو الطبيعي للسكان | = | ٣٦٦ ، ٠٧٥ |

وعليه يكون = $\frac{١٣٠٦٠٥ -}{٣٦٦ ، ٠٧٥}$ × ١٠٠ = ــ ٣٥ ، ٧

اى ان اكثر ثلث كمون نمو السكان مضاع بالهجرة من جاميكا .

هذا ويمكن حساب احتمال الهجرة او التعرض لها لفئة من فئات الاعمار وليكن العمر لهذه الفئة ( ز ) وذلك فى فترة سنة اى ز ، ز + ١

$$\text{نح}_{\text{ز}} = \frac{\text{ن}_{\text{ز}}}{\text{ك}_{\text{ز}} + \frac{1}{2}\,\text{و}_{\text{ز}}}$$

باعتبار ( حز ) احتمال نزوح الفرد من تلك الفئة او ذلك الفوج ، ( ن ) عدد النازحين من ابناء ذلك الفوج بذلك العمر في غضون السنة ، ( ك ز ) عدد ذلك الفوج فى منتصف السنة ( و ز ) عدد الوفيات في ذلك العمر خلال السنة نفسها . اما القادمون الذين هم فى سن ( ز ) وهم معرضون للهجرة فقد انضووا في عداد الفوج ( ك ز ) .

بيد ان احتمال القدوم لا يمكن اسناده الى عدد سكان منطقة الوصول لان القادمين هم من غير هؤلاء السكان وليسوا جزءا منهم .

هذا ومن المناسب ان ننتبه الى ان عدد المهاجرين لا يعادل عدد مرات الهجرة ، لان مهاجرا واحدا قد يقوم بالهجرة عدة مرات فى خلال حقبة من الزمان ولا سيما اذا تطاولت الحقبة . ويقترب عدد المهاجرين من عدد مرات الهجرة كلما قصرت تلك الحقبة . ولذلك اعتبرت السنة فى التصنيف الآنف معيارا لطول مدة الاقامة او مدة الغيبة .

## الهجرة والنموذجات الرياضية

كان العلماء عامة يتكلمون فى بحوثهم على القوانين الكلية والنظريات العامة . وقد طرا تطور فى فلسفة العلوم على اعتباراتهم ، فاصبحوا يتحدثون الآن في الغالب بدلا من تلك الالفاظ عن

النموذجات . ومن المناسب هنا ان نورد بعض النموذجات الرياضية الكثيرة المستعملة خاصة في تبين تيار الهجرة الداخلية كي نوفي البحث بعض حقه . وفي سياق بحثنا نبرز شيئا فشيئا صفات النموذج الرياضي لننتهي الى بعض تعبيراته المطبقة في هذا المجال .

النموذج الرياضي نظرية شرطية استنتاجية ومعنى ذلك انه جملة من القضايا او المصادرات تؤدي بعد قبولها الى جملة من النتائج والاعتبارات .

قد يعرض الباحث هذه الاعتبارات والنتائج على محك التجربة وعلى ميدان المشاهدة والملاحظة لمعرفة انطباقها على الواقع . ولكن يمكن الاستغناء عن هذه المقايسة. امكان الاستغناء هذا عن المقايسة اول السبيل للتفريق بين النظرية والنموذج ، لان النموذج امر فكري صرف يقدم حلا يمكن قبوله او رفضه . ربما يصح القول ان بعض النموذجات اكثر واقعية من غيرها . ولكن لا يجوز هنا القول انها صادقة او الصق بالصدق بالمعنى المنطقي للصدق . ومع ذلك فالنموذج ليس مجرد تركيب اعتباطي .

النموذج نظرية تحاول ان تفسر طبيعة ظاهرة ما بصرف النظر عن كونه اما صادقا واما كاذبا على حد التعبير المنطقي . وهذا معناه انه لا مانع من وجود عدة نموذجات تقدم ايضاحات متفاوتة لظاهرة واحدة دون ان يلغي بعضها بعضها . وهذه سمة ثانية لتفريق النموذج عن النظرية بالمعنى العام التي لا بد من ان تكون لها صفة الشمول او الكلية . لقد قالوا قديما : **لا علم الا بالكليات** . ولكن النموذج الرياضي قد يفسر حادثة خاصة او ظاهرة مفردة . لقد اتخذ النادر او المفرد في العصر الحاضر مكانه في فلسفة العلوم ، لان المفرد او النادر بصفته نادرا او مفردا قد يعارض العام والكلي فيستدعي اعادة النظر في المكاسب العلمية لتوسعة وجهة النظر . هذه امور معروفة في فلسفة العلوم نوه بها المفكر الفرنسي الراحل غاستون **بشلار** . ويمكن ذكرها هنا في مجال النموذج التي يطبق في الاحوال المفردة او الخاصة احيانا من المجال الانساني او الاقتصادي . يمكن مثلا التعبير عن قواعد سير مشروع من المشروعات الصناعية او الاقتصادية بنموذج رياضي . بل يمكن القول ان تقدم الرياضيات والعلوم الانسانية الحديث كان متصلا بدراسة الامور الخاصة او المفردة وبتحليلها . لا شك ان النموذج بطبيعته يشتمل على قضايا كلية ، ولكن احكام القضايا الكلية كانت تعجز وحدها عن ايضاح تلك الظواهر فكان لا بد من ان يلتحق بها بعض القضايا الجزئية او الاحكام المفردة .

هذه التوطئة البسيطة اردنا ان نقدمها لشرح بعض النموذجات الرياضية التي وضعها الباحثون لايضاح ظاهرة الهجرة الداخلية وقياسها . وتظهر محاولات تطبيق النموذجات الرياضية عليها جانبا من جوانب التطور في تطبيق الرياضيات على العلوم الاجتماعية .

لقد ظن الباحثون منذ منتصف القرن التاسع عشر انهم يستطيعون ان يضعوا قوانين او نظريات عامة للهجرة . لقد درس **رافنستين** Ravenstein ظاهرة الهجرة في انكلترا وعدد من المجتمعات الاخرى سنة ١٨٨٥ ، ولخص نتائج دراسته في سبع قضايا يمكن ان تعتبر مجموعها ضربا من النموذجات السكونية المشتقة من الواقع . وهذه الاحكام او القوانين هي الآتية :

١ ـ اغلب المهاجرين يؤثرون الامكنة القريبة وكلما نأت الشقة قل المهاجرون .

٢ – الناس الذين هم على مقربة من المدن الكبيرة يهاجر بعضهم اليها حين تزدهر الموارد الاقتصادية فيها ، والفراغ الذي يتركونه في اعمالهم يملؤه مهاجرون ريفيون يأتون من الاماكن القاصية في البلاد .

٣ – كل تيار للهجرة يقابله تيار معاكس يعدله .

٤ – اهل الحضر اقل اندفاعا نحو الهجرة من اهل الريف .

٥ – كلما كانت الهجرة قريبة اربى العنصر الانثوي فيها على الذكور .

٦ – تقدم الصناعة يزيد في معدلات الهجرة .

٧ – رغبة الناس في تحسين احوالهم الاقتصادية اقوى حافز لهم على الهجرة . هذا الى جانب حوافز اخرى غيره مؤثرة .

لقد مر نحو تسعين سنة على بيان تلك العلاقات ، وما زال اكثرها سليما وان كان غير حتمي . ومن المعلوم ان الامور الاجتماعية وعلاقاتها الجارية انما هي رهن التغير الدائم خلال الزمان بتغير الاحوال ، فهي « لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر » كما كان يقول **ابن خلدون.**



وكانت ميكانيك نيوتن مسيطرة على عقول العلماء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يحسبون انه يمكن اعتمادها في مختلف الاعتبارات ومتفاوت البحوث ، فقربوا في ايضاح ظاهرة الهجرة بينها وبين قانون تجاذب الكتل سواء كانت مغناطيسية او غيرها . ولما كانت الكتل هنا عبارة عن المدن والارياف زعموا اول الامر ان تيار الهجرة متناسب طردا بين كتلتي قطبين من السكان او مركزين لهم ، والكتلة هنا عدد السكان في كليهما ، ومتناسب عكسا مع مربع المسافة :

$$ق = \frac{ك \times كَ}{ب^{٢}}$$

يعتبر **زيف** Zipf ان توزع السكان في بلد ما ينظمه توازن قوتين متضادتين : قوة التنويع ، تيسر نقل المواد الاولية تيسيرا اقتصاديا الى مراكز الانتاج ، وقوة التوحيد ، تنظم نقل السلع والغلات الى المستهلكين. فالتوزع الحاصل يجعل نفقات النقل في حدها الادنى : وهي نفقات نقل السلع والاشخاص . ويختار العلاقة الانفة على الشكل $\frac{ك \times كَ}{ب}$ ، فيطبقها على طائفة كبيرة من الارقام التي تتعلق بوسائل الاعلام والمواصلات « كالبرقيات والمخابرات الهاتفية وحمولات السكك الحديدية والباصات والطائرات » في داخل الولايات المتحدة . وقد عمد باحثان آخران هما **جون.ك.ستوارت** John, Q. Stewart **ووليام ورنتز** William Warntz من انصار ما ندعوه بالفيزياء الاجتماعية الى استعمال العلاقة في رسم ما دعواه مصورات القوى الكامنة لتوزع السكان مستندين الى التشابه بين علاقتي زيف ونيوتن . وهنالك خطوط متساوية الكمون كما في الفيزياء .

ولما درس تيودور اندرسون Th. Anderson مؤخرا احصاءات الهجرة في الولايات المتحدة اعتبر العلاقة لي = ثا × $\frac{\text{ك} \times \text{كً}}{\text{ب}^{\text{به}}}$ ، ووجد ان (به) فيها تتغير من ٤ر. الى ٣ر٢ . فالقيم الضئيلة تتعلق بهجرة اهل المدن ، والقيم المرتفعة تتعلق بهجرة اهل الريف ، وانها بوجه عام هبطت بعض الشيء في غضون قرن ( من ١٨٥٠ الى ١٩٥٠ ) . ومن الواضح ان ( ثا ) في العلاقة يمثل عددا ثابتا آخر .

تلك العلاقة التي هي نموذج رياضي تدعى علاقة باريتو زيبف احيانا نسبة الى العالم الاقتصادي المشهور باريتو والى الباحث الذي عاود معالجتها . وهو نموذج بني اول الأمر على اعتبارات نظرية محض . ولا شك انه هو وامثاله لا يشف عن سداد الفروض التي يستند اليها الا بعد عدد واف من الامثلة التي ينطبق عليها .

ثم ان الذي يسوغ وجود ( ك ) و ( كً ) في البسط ( او الصورة ) هو اولا ان عدد الراغبين في الهجرة بالمكان الاصلي متناسب طردا مع عدد سكانه ، وان عدد وظائف العمل الفارغة في المكان المقصود متناسب ايضا مع عدد سكانها .

بيد ان هذا الفرض الأخير معرض للنقد ، وهو انه ان كانت تلك الوظائف الفارغة متناسبة في المكان المقصود مع عدد سكانه فذلك حين تكون حركة الهجرة قائمة على التعويض . أما حين تنشأ وظائف عمل جديدة في المجتمع الاصلي او المجتمع الآخر فلا بد من تغير ذلك التناسب . وربما كان الافضل في دراسة هجرة الغرباء الى البلد المقصود ان تعتبر ( كً ) ممثلة لعدد الغرباء فيه لا لعدد سكانه .



ثم ان علاقة باريتو ـ زيبف تقدم لنا تناظرا دقيقا في التجاذب بين سكان منطقتين . ولا شك ان تيار الهجرة من منطقة مسماة الى منطقة ثانية تختلف شدته عنها من المنطقة الثانية الى الأولى . ولكن هذا الاختلاف يمكن تلافيه بتغيير العددين الثابتين حسب اعتبار النزوح من المنطقة او القدوم اليها .

نموذج الهجرة هذا من مزاياه البساطة . ومن السهل معرفة المتغيرات الداخلة فيه . ولذلك كثر استعماله مع تعديلات متعددة واعتبارات متفاوتة مشتقة من مجرد النظر او مبنية على الواقع .

بيد ان باحثين آخرين اقترحوا نموذجات اخرى طبقوها على الهجرة . ولا بد ههنا من ايراد بعضها لزيادة الفائدة . وهي تعطي نتائج قريبة من دستور باريتو زيبف ، ولكنها تقتضي ادخال عدد اكبر من الثوابت . ويزداد سداد تطبيقها مع زيادة هذه الثوابت .

اقترح غ. كلدورف G. Kulldorf علاقة اسية على الشكل التالي :

لي = ثا ط ـ ل ( ب ـ هـ )

حيث ( لي ) عدد المهاجرين من المكان الاصلي ، ( ثا ، ل ، هـ ) ثوابت موجبة وحيث البعد بين البلدين ب $\geqslant$ هـ ، و ط هو العدد الاسي في اللوغاريتم الطبيعي (e) .

ثم اقترح علاقة ثانية على الشكل : $$\text{ي} = \frac{\text{ثا}}{\text{ب}} \; \text{هـ}^{\frac{-(\text{لوب} - \text{ر})^{2}}{\text{٢ ى}^{2}}}$$

حيث ب > ١ ، و ( ثا ، ر ، ى ) ثوابت ،( ولو ) اشارة الى اللوغاريتم .

ان أ.هـ.جونسن O.H. Johnsson ينظر الى الهجرة على انها سيال يصدره مركز وتمتصه بيئة هي السكان المقيمون في المكان المقصود . والعلاقة عنده هي : $\text{ي} = \frac{\text{ثا هـ} - \text{ر ب}}{\text{ب}}$

( هـ ) العدد الاسي في اللوغاريتم الطبيعي،( ر ) ثابت الامتصاص ، ( ب ) البعد ، ( ثا ) عدد ثابت .

وكل من هـذه العلاقات النموذجية قـد تستعمل في غرض آخر غير حساب الهجرة . فقد جربت هذه العلاقة الاخيرة في دراسة انتشار غبار الطلع من الازهار .

وقد تقدمت هذه الدراسات حين استطاع س.ا.ستوفر سنة ١٩٤٠ ان يقترح نموذجا رياضيا استغنى في التعبير عنه من ذكر المسافة الجغرافية المباشرة . فافترض ان عدد المهاجرين الى مسافة مـسماة يتناسب طردا مع عـدد « وظائف العمل المعروضة » في نهاية المسافة ، وعكسا مع مجموع وظائف العمل المعروضة في خلال هذه المسافة .

هنا تقع المشكلة في تعريف وظائف العمل المعروضة وحسابها . وكل ما يمكن فعله هـو حساب مجموع المهاجـرين الذين وصـلوا الى المنطقة وكانوا مقيمين بها في فترة الزمن المعتبرة ايا كان مصدر هجرتهم ، وهو ما اعتمده ستوفر نفسه . والتعبير الرياضي لهـذا النموذج هو :

$$\text{ي} = \text{ثا} \; \frac{\Delta \, \text{س}}{\text{س}}$$

( ي ) هو دائما عدد المهاجرين مـن المكان الاصلي المقيمين في المكان المقصود ، ( $\Delta$ س ) عدد وظائف العمل المعروضة في المكان المقصود ، ( س )عدد الوظائف المعروضة في الدائرة التي مركزها نقطة تمثل المكان الاصلي ونصف قطرها ب الذي هو البعد الجغرافي . ويتمثل المكان المقصـــود بشريط دائرى عرضـه ( $\Delta$ ب ) محصـور بين دائرتين متحدتي المركز نصفا قطريهما ب ـ $\frac{\Delta \text{ب}}{٢}$ ، ب + $\frac{\Delta \text{ب}}{٢}$ ، فتكون ($\Delta$ س ) عدد وظائف العمل المعروضة في هذا المكان الشريطي ، ( س ) عدد الوظائف المعروضـة في دائـرة ثالثة متحدة المركز مع الدائرتين الاوليين ونصف قطرها ( ب ) .

وقد اقترح ســتوفر نمطا آخـر لنموذج الهجرة الرياضي اخذه ووسعه الباحثان **اومرغال** Omer Galle **وكارل تاوبر** Karl Taeuber نكتفي بالاشارة اليه خوف الاطالة .

وقـد نجح تطبيق هـذين النموذجين على الهجـرات الامريكية نجاحا كبـيرا ، ولكنهما لم يمتنعا عن النقد ولا سيما حول ما يراد بالوظائف المعروضة . فقد تتسع الصناعية اتساعا كبيرا في منطقة ما ، فلا يشغل بعض الوظائف فيها وهكذا اذا حسبنا عدد الوظائف بشاغليها لا يكون الحساب دقيقا . اما في المناطق الريفية فالمزرعة تستطيع ان تغذى شخصا جديدا مثلاً دون زيادة وظيفة تقنية

له . فالقياس الذي يقتضي حساب العدد الكلي للمقيمين في المنطقة ربما لا يقابل العدد الحقيقي للوظائف المعروضة . ثم ان عدد المهاجرين المتوقع الذي يقيس تيار الهجرة هو جزء من العدد الكلي للمهاجرين المستعمل في النموذج والمعتمد في قياس الوظائف المعروضة . فالنتيجة يتضمنها الفرض .

وثمة نموذجات رياضية للهجرة غير ما سبق تتناولها من جهة تطورها وتبدل شدتها في خلال الزمن ، وهذه يمكن ان ندعوها تطورية . وقد اقتصرنا على النموذجات القليلة الآنفة اذ كانت تشتمل على القليل ، المهم من المتغيرات كعدد السكان وعدد المهاجرين والبعد بين البلدين وعدد وظائف العمل المعروضة .

وللنموذجات اصناف كثيرة منها النظري ومنها الوصفي ، منها السكوني ومنها التطوري ، منها الحتمي ومنها الاحتمالي ، وهلم جرا .

ومجمل الكلام ان عدد المهاجرين المتبادل بين منطقتين تابع طردا لقوة النبذ في المكان الاصلي ، وقوة الجلب في المكان المقصود ، وعكسا للبعد الجغرافي اي المسافة المكانية او لعدد الوظائف المعروضة في الطريق وهو ما يمكن تسميته بالبعد الاجتماعي .



## القسم الرابع

## الهجرة في البلاد العربية

يختلف النظر الى الهجرة في البلاد العربية باختلاف موقف الباحث ، فاذا نظر اليها على انها وطن واحد كانت الهجرة من بعضها الى بعض هجرة داخلية . واذا نظر الى الدول القائمة فيها اعتبرها هجرة خارجية دولية . اما الموقف الاول فيسوغه ان الشعب فيها يكاد يكون واحدا ، وقد اختلط بعضه ببعض في غمار التاريخ مكونا بلغته وثقافته وحضارته وعاداته وماضيه وامجاده وآلامه وآماله كتلة من البشر متجانسة متماسكة من ارسخ شعوب الدنيا كيانا واعمقها وجودا في الارض وفي السماء .

واما الموقف الثاني فيسوغه ان لكل جزء منها حكومة ذات سيادة على ارضها وعضوية في هيئة الامم ونظاما اقتصاديا وسياسيا يختلف عن نظام البلد الآخر . ومع ذلك فالهجرة البشرية على الرغم من تلك الحواجز مستمرة بين تلك الدويلات ( التصغير هنا للتحبب ) ، لان اقامة الحواجز لا تستطيع ان تحول دون مجرى الظواهر الطبيعية ولا ان تمس الجذور القوية الممتدة في باطن تلك البلاد . وكل شيء في تطور الانسانية يحفز على الظن ان تلك الربوع سوف يزيد تقاربها وتضامنها وتعاونها في شتى الميادين . واذا كانت اوروبا على اختلاف قومياتها ولغاتها وعاداتها وماضيها تتقارب وتحاول تأليف كتلة ذات كيان متضامن ومتعاون فان البلاد العربية لكي تضمن تقدمها ولحاقها بالموكب الانساني الحضاري لا بد من ان تزيد تقاربها وتآلفها وتعاونها في مجالات متعددة وان بقيت السيادة الكاملة لكل منها مصونة ومحصنة .

وهكذا لا مندوحة من دراسة الهجرة فى كل دولة منها . وحقا تكاد تكون الهجرة على الرغم من تشابهها فيها من بعض الجوانب متفاوتة الخصائص جدا . ويحتاج تأمل الهجرة في كل دولة من تلك الدول وايضاح سماتها الى افاضة واسعة فى تأمل الأرقام وتبين التطور الاقتصادى والديمغرافي والاجتماعي والسياسي . وهذا يؤلف موضوعا يحتاج الى معالجة مستقلة ربما تتاح فى المستقبل القريب . ومع ذلك يجدر ذكر بعض الامثلة البسيطة مع الارقام للدلالة على جوانب من تلك الهجرة . وربما لا تميز هذه الأرقام أحيانا بين العرب والاجانب من المهاجرين .

لقد غدت بعض البلاد العربية مناطق تستقبل المهاجرين كامارات العربية المتحدة وقطر والكويت وليبيا والسعودية بسبب التطور الاقتصادى المتصل باستخراج النفط على ان بعضها الاخر كان وما زال مصدرا للمهاجرين كسوريا ولبنان . ونحن هنا نلم ببعض خصائص الهجرة فى الكويت ثم فى سوريا ولبنان .

الكويت بلد من أصغر البلاد في العالم ودخل الفرد فيه من اعلى المستويات . من اهم الملامح الديمغرافية لهذا البلد وجود عدد كبير من المهاجرين غير الكويتيين فيه وقد جاوزوا في العدد السكان الاصليين فى السنين الأخيرة . والجدول الاتي يعطي فكرة واضحة عن عدد المهاجرين والأصليين فى البلاد وهو يبين التركيب السكاني في اربعة تعدادات للسكان بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٧٠ .

| السنة | الكويتيون | غير الكويتيين | المجموع |
|---|---|---|---|
| ١٩٥٧ | ١١٣٦٢٢ | ٩٢٨٥١ | ٢٠٦٤٧٣ |
| ١٩٦١ | ١٦١٩٠٩ | ١٥٩٧١٢ | ٣٢١٦٢١ |
| ١٩٦٥ | ٢٢٠٠٥٩ | ٢٤٧٢٨٠ | ٤٦٧٣٣٩ |
| ١٩٧٠ | ٣٤٧٣٩٦ | ٣٩١٢٦٦ | ٧٣٨٦٦٢ |



معدل النمو السنوى العام فى الفترة بين ١٩٥٧ و ١٩٧٠ يبلغ ٢ ، ١٠ ٪

واذا طرحنا معدل النمو الطبيعي فى الكويت وهو حول ٥ ، ٣ ٪

حصل معدل فيض الهجرة وهو ٨ ، ٦ ٪ وهو معدل مرتفع جدا .

ويرجع هذا الارتفاع الى ان الاقتصاد الوطني يتسع اتساعا كبيرا لا مندوحة فيه عن الحاجة الى الطاقات البشرية . هذا برغم ارتفاع معدل النمو الطبيعي وتشجيع الدولة له وهو من أعلى المعدلات فى العالم .

ان معظم النشاط الاقتصادى يقوم به المهاجرون والجدول الاتي يبرز التفاوت بين الكويتيين والمهاجرين ذكورا واناثا فى عامي ١٩٦٥ و ١٩٧٠ .

| | النسبة المئوية للقوة العاملة في مجموع السكان | | | النسبة المئوية للقوة العاملة في مجموع السكان | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | ذكور | اناث | المجموع | ذكور | اناث | المجموع |
| الكويتيون | ١ ، ١٩ | ٥ ، ٠ | ٦ ، ١٩ | ٢ ، ١٨ | ٦ ، ٠ | ٨ ، ١٨ |
| غير الكويتيين | ٠ ، ٥٤ | ١ ، ٣ | ١ ، ٥٧ | ٥ ، ٤١ | ٧ ، ٣ | ٢ ، ٤٥ |
| المجموع | ٦ ، ٣٧ | ٩ ، ١ | ٥ ، ٣٩ | ٥ ، ٣٠ | ٣ ، ٢ | ٨ ، ٣٢ |

ويتبين مما سبق ان سكان الكويت يزدادون بسرعة كبيرة وان اكثر من نصف هذا الازدياد يعود الى الهجرة . ولا شك انه في التقديرات السكانية لمستقبل الكويت تبرز الهجرة الخارجية عاملا من اهم العوامل الديمغرافية . هذا وان شدة تيار الهجرة الى البلد ومنه مسالة تتعلق بسياسة الدولة وهذا امر لا يمكن توقع اتجاهاته المقبلة على الرغم من ان البلاد ما تزال بحاجة الى مزيد من الأيدى العاملة فى النشاط الاقتصادى لسنين عديدة .

## الهجرة من سوريا ولبنان

هذه الهجرة قديمة العهد نسبيا وكانت فى الغالب تابعة لتيارات الهجرة العالمية كلما حصل تيار حمل معه فريقا من السكان . والذى كان يسهّل هذه التبعية في السابق الاستعمار والضيق وتجزئة البلاد وقلة الاستقرار الاجتماعي وسوء توزيع الثروة . كان اللبنانيون يطلق عليهم السوريون ولهذا قرنّا ذكر سوريا ولبنان معا فى الهجرة .

حملت الهجرة اول الامر السوريين الى بقية البلاد العربية ولا سيما مصر فاقاموا فى القاهرة والاسكندرية وهذا شيء طبيعي يجرى فى بلاد شقيقة . وكان فى طليعة المهاجرين المثقفون هربا من الضغط التركي ثم التجار والعمال . ولما ان وصل تيار الهجرة العالمية في أواخر القرن التاسع عشر الى سوريا بدات الهجرة تستخف السوريين دفعات قوية الى الولايات المتحدة حول سنة ١٨٩٠ ولكن القوانين التي وضعتها هذه البلاد في سبيل الهجرة خفف تيارها . وقد جذبت المكسيك السوريين واللبنانيين اليها حتى بلغ عدد المهاجرين منهم خمسة عشر الف نسمة سنة ١٩٢٧ . ثم صدف المهاجرون عنها للاضطهادات الدينية التي نشبت فيها ، وتحول القسم الاكبر من المهاجرين الى امريكا الجنوبية ولا سيما البرازيل والارجنتين والاوروغواي ، وبعضهم توقف فى بوليفية وفنزويلة . ثم شرع السوريون ينتجعون افريقية ولا سيما بعد سنة ١٩٢٥ . وقد حدثت الهجرة الى الشرق الأقصى بطريق غير مباشر اذ يسافر السورى مبدئيا الى الولايات المتحدة ويجمع بعض الثروة ويعبر المحيط الهادى . وقد تحصل الهجرة الى تركيا وايران فى بعض الظروف . وما تزال الهجرة تجري نحو امريكا الجنوبية وافريقية وذلك ان بعض الأسر كانت قد هاجرت اليهما فهي تدعو بعض افرادها او اقربائها الى اللحاق بها . ويكاد يوجد السوريون واللبنانيون الآن في اغلب بقاع الارض .

وقد بلغت شدة الهجرة من لبنان وسوريا بالنسبة لعدد السكان حدا جعل الشعراء يشيدون بالأوبة ويتغنّون بالحنين الى الوطن . وربما استطاع الشعر ان يقول فى بعض الأحيان ما لا يقوله النثر فى بيان آفات الهجرة . يقول الشاعر القروى :

ردّوا على الوطن القديم ترابه ... هذا اقل البر يا غيّابه
ذاك الاهاب الغضّ تحت ثيابكم ... بالامس كان اهابه وثيابه
تتعجبون لضعفه ولو انكم ... فيه لكنتم جنده وحرابه
ليت الاحبة عند ازماع النوى ... للغرب اغلق دونهم ابوابه
او ليت بُرء الشام ادرك ان في ... سفر الزنود العامرات خرابه

ويصعب احصاء المهاجرين السوريين واللبنانيين في العالم ويزيد في صعوبة هذا الاحصاء ان فريقا من المهاجرين تجنسوا بالجنسية الأجنبية . ويقدر عدد المهاجرين بمليوني نسمة تقريبا اكثرهم في امريكا الجنوبية .

ويؤثر المهاجر مكانا على مكان في هجرته اذا كان له قريب او صديق فيه والا تبع ذلك مجرى الصروف . وللاخبار المروية عن مكان الهجرة واحوال الآيبين منه والقوانين الموضوعة حول ذلك تاثير كبير . وتالقت نجوم كثير من المهاجرين في ميادين الثقافة والادب والعلم والسياسة والاقتصاد . وادب المهجر الحديث يذكرنا بادب الاندلس القديم . ولكن تلك الجاليات بدات تنصهر في المجتمعات الأجنبية شيئا فشيئا وتنسى ذرّيّاتها لغتها الأصلية بالتدريج .

وقد توطن هؤلاء المهاجرون الأماكن التي هاجروا اليها ما عدا فريقاً آثر الاياب الى الاوطان منهم من اخفق في هجرته ولم تفتح امامه ابواب العمل والرزق فانكفأ الى اهليه . ومنهم من جمع ثروة ضخمة تكفيه وتكفي اسرته فرجع حامداً نجعته .

ويبدو من ذلك ان لهذه الهجرة بعض المزايا وهي جلب الثروات المجمعة في البلاد الاجنبية . ويضاف ان المهاجرين لا ينسون اهليهم فهم يمدونهم بالمال في الحين بعد الحين . وتلوح هذه الهجرة الديمغرافية مستتبعة لهجرة مالية أضعف منها تجرى بعكس اتجاهها . هذا زيادة على الدعاية الجيدة التي يقوم بها المهاجرون لبلادهم الأصلية .

بيد ان مساوىء الهجرة اكثر من مزاياها لانها تلحق بالبلاد نقصا في القوى الديمغرافية والاقتصادية . فالمهاجرون كما سلف شباب اوكهول اي هم في سن العمل والانتاج . فلما هاجروا اضاعت البلاد فيهم رجالا منتجين ، كما تضيع فيهم مجموع النفقات التي استدعتها تربيتهم وتنشئتهم وربعها ، ولا تفي بهذه الخسارة ثروتهم المجمعة ان عادوا بها الى البلاد او ارسلوا نصيبا ضئيلا منها الى اهليهم ، لانهم في بلد الاغتراب قد اشتغلوا واشتركوا في بعض المشروعات او استصلحوا الارض فزادوا راس المال هناك . ولو لبثوا في بلادهم الأصلية وعملوا فيها لبقيت آثارهم فيها وتضاعفت العوائد والفوائد . ومع ذلك فثم مجال للمناقشة تتلامح جوانبه مما سبق في القسمين الاول والثاني من هذا البحث ، وهنالك دراسات حديثة تقدر توزع اللبنانيين في العالم سنة ١٩٥٩ على الشكل الآتي :

| | | |
|---|---|---|
| امريكا الشمالية | ٤٢٠ ٠٠٠ | ( منهم ٠٠٠ ٤٠٠ بالولايات المتحدة ) |
| امريكا اللاتينية | ٦٩٢٠٠٠ | ( منهم ٠٠٠ ٣٥٠ بالبرازيل )<br>( و ٠٠٠ ٢٠٠ بالارجنتين ) |
| افريقيـــة | ٧٠ ٠٠٠ | ( منهم ٠٠٠ ٣٠ في مصر ) |
| اوقيانوسيـــة | ٢٧ ٠٠٠ | |
| اوروبـــا | ٥ ٠٠٠ | |
| جزر الكنارى او الخالدات | ٣٥٠ | |
| آســـية | ١٥٠ | ( وربما كان هذا التقدير منخفضاً ) |
| المجمـــوع : | ١٢١٤ ٥٠٠ | |

اى حوالي مليون وربع المليون . وفي تلك السنة نفسها كان عدد اللبنانيين اولي الجنسية اللبنانية في لبنان نفسه مليونا ونصف المليون . وعندئذ يؤلف المهاجرون من اللبنانيين ٤٥٪ تقريبا من الرعايا اللبنانيين عامة . فكان لبنان المثقف الممول يضع رجلا على الجبل في ارضه ورجلا على اليابسة في ما وراء البحار .

اما الهجرة الخارجية الى سوريا ولبنان فقد كانت على دفعات بسبب بعض الكوارث كهجرة الارمن على اثر مذابحهم سنة ١٨٩٤ و١٨٩٥ وبعد تسلط حزب تركيا الفتاة على الحكم . وكذلك هجرة الاشوريين سنة ١٩٣٣ . بيد ان اهم هجرة تلقتها سوريا بل اكبر آفة عرفتها البلاد العربية منذ هجمات التتر والحروب الصليبية هي الهجرة الصهيونية . انها غزو سياسي وعسكري تحت ظاهر قومي لاناس ينتسبون لقوميات مختلفة وتحت ظاهر ديني دين موسى براء منه . وقد تسببت بجلاء الفلسطينيين الى مختلف البلدان . ولعل في الآفاق العالمية ما يبعث على الأمل في احلال السلام وتوطيد العدالة .

هنالك هجرة دائمة بين سوريا ولبنان ، ولبنان هو الذي يتلقى الآن هجرة العمال السوريين لارتفاع مستوى الاجور وللنشاط الاقتصادي الواسع فيه . وقد تلقى ايضا هجرة الاغنياء والمتمولين السوريين مع رؤوس اموالهم المهربة اليه .

وربما كان من المناسب هنا ان نورد تحقيقا احصائيا بالعينة اجرته مديرية الاحصاء المركزي ببيروت على القوى العاملة بلبنان في تشرين الثاني سنة ١٩٧٠ ظهر فيه ان عدد الغرباء من عرب واجانب يبلغ حوالي ١٧٧٦٧٥ يؤلف المهاجرون العرب منهم ٩٠٪ والاجانب ١٠٪ . ذلك العدد لا يشمل الفلسطينيين الذين يقدر عددهم بحوالي ١٣٠٥٠٠ ممن يعيشون في المخيمات ، وربما وصل عددهم الآن الى ٣٠٨١٧٥ . اما مديرية الامن العام فتقدر عدد الغرباء المقيمين في لبنان بنحو ٥٦٤٠٥١ بالاستناد الى تصريحات الاقامة وتجديداتها . منهم ٢٧٩٥٤١ سوريا و ١٩١٢١٧ من بلاد عربية اخرى و ٩٣٢٩٨ من الاجانب .

واذا قدر سكان لبنان في تلك السنة بما يقرب من ٢٠٠٠٠٠ ٢٠٣٩٥ فان الغرباء يؤلفون ربع السكان تقريبا ( ٢٣٪ بالضبط ) .

اما الهجرة الداخلية في سورية ولبنان فلا مندحة من الالمام بها . اذ يهاجر الفلاح او القروي الى المدينة متى تعلم نظرا للبون الكبير بين حياة المدن وحياة الريف ولاتساع مجال العمل في المدينة . والريف السوري في الداخل على جماله مهمل للغاية . ولا يكاد المرء يجد فيه الضروري من الشروط الصحية والاجتماعية والثقافية . ولو انه اخذ بالعناية والانعاش والتعهد وحسنت الاحوال الصحية والاجتماعية فيه لامكن خلق تيارات للاصطياف والاستجمام على الاقل . ومن الناس من يغلب عليهم حب الطبيعة والميل الى الهدوء والتأمل فيؤثرون المقام في الريف ولو بعض اشهر السنة .

ويهاجر الفلاحون المعوزون الى المدينة طلبا للعمل والرزق والكفاف ويقيمون عادة في ضواحيها قبل ان تنالها يد التنظيم . وقد يتشرد اطفالهم ولا يزال التشرد في بلاد الشرق احدى الآفات الكبيرة . وتبعته لا تقع على الافراد فحسب بل على المجتمع الذي لا يعالجه معالجة ناجعة .

ويفد كثير من الفلاحين وفودا موسميا رجالا ونساء الى المناطق الزراعية في موسم الحصاد ليقوموا به تلقاء بعض الأجور الزهيدة فتمتلىء بهم اسواق المدن قادمين اليها من القرى القريبة. وهم حين يكونون في ساحات حمص وحماة بانتظار عقود العمل يقومون برقصات الدبكة الشعبية الجميلة الشائقة للتسلية . وقد ضؤلت هذه التحركات بسبب دخول آلات الحصاد الحديثة .

كذلك نجد في بادية الشام تحركا موسميا للبدو الرحل في رعاية الماشية . وفي لبنان الشمالي هجرة موسمية طريفة يترجح بها سكان قرية زغرتا بين هذه القرية ابان الشتاء للاعمال الزراعية وبين قرية اهدن في الجبل للكسب حين يحل موسم الاصطياف .

وسوف يوزع الفلاحون في سوريا على اراضي الجزيرة توزيعا منظما بعد الانتهاء من سد الفرات .

على انه لا يسعنا في نهاية هذا البحث الا ان ننوه بتيار من الهجرة جديد وفريد في نوعه الى البلاد المتقدمة الفنية ، وهو هجرة العقول . ونخص هنا في البحث هذه الهجرة من سوريا .

## هجرة العقول

ذلك ان البلاد المتقدمة بسبب تقدمها المطرد السريع بحاجة ماسة وملحة الى العلماء والمتخصصين ولا تكاد تسد الجامعات والمعاهد العلمية تلك الحاجة المتزايدة ، كما ان نفقات اعدادهم وتخصصهم كبيرة باهظة ، ثم ان عوامل التنافس بين الدول الصناعية المتقدمة تقتضي الاعتماد على الكفايات العلمية الكبيرة . ولهذا طفقت تلك الدول تجتذب تلك الكفايات بالمغريات المادية والمعنوية ، ولا سيما من بلدان العالم الثالث .

ان الحاجة التي نوهنا بها الى العلماء قد اشتدت في السنين الاخيرة بسبب مقتضيات النمو والانتاج ، كذلك نجد الربح الكبير الذى افادته الدول المتقدمة في المال وفي الوقت من هجرة العقول اليها قد عزز ذلك التيار ودعمه . وكل زيادة في جانب يقابلها خسران في الجانب الاخر . فقد الت الخسارة بالبلاد التي تنطلق منها عناصر ذلك التيار ولا سيما ان تلك العناصر في الغالب ناشئة فتية تومض بالوعود . فكان فقدها في بلادها الاصلية « ضِغثاً على ابّالة » كما يقول المثل العربي القديم . وليس ما يمنع تلك الدول المتقدمة ازاء الربح من راس المال البشرى هذا من ان تضع لامتصاصه خططا سرية وعلنية باطنة وظاهرة .

ان هذا التيار في الحقيقة يندفع من مختلف البلاد متقدمة ومتخلفة بحسب الاغراء المادى والظروف الملابسة . ولكن نسبة الكفايات الفكرية المهاجرة في مجموع السكان لدى بعض البلدان المتخلفة اعلى منها لدى البلدان المتقدمة حين تهاجر طائفة من علمائها ومفكريها الى بلاد اوسع منها واكثر اغراء . ذلك ان بعض الكفايات العلمية في ايطاليا وفرنسا وانكلترا وغيرها تهاجر الى الولايات المتحدة ، على حين أن كثيرا من العناصر الفتية العلمية تهاجر من بلاد العالم الثالث الى مختلف نواحي العالم المتقدم .

والذى يسترعى الانتباه ازدياد عدد الاختصاصيين الذين يهاجرون من البلاد العربية الى اوروبا والولايات المتحدة . وهذه الزيادة ناشئة عن قوتي نبذ وجذب كما هو شان تيارات

الهجرة عامة . قوة النبذ فى البلد الاصلى ضآلة الرواتب والاجور واضطراب الاحوال الاجتماعية وقلة المختبرات التي يستطيع المتعلم الناشيء فيها ان يمارس اختصاصه ودرايته ، كذلك ضآلة فرص العمل العلمى وانخفاض المردود في البحث وعدم وجود ميزانية تدعم الباحث وتزوده بالعناصر الضرورية فى بحثه وانتاجه ، على حين يقابل كل ما سلف فى البلاد المتقدمة مزيد من المكافآت المالية والمعنوية واعداد هائل من الاجهزة والمراجع ووسائل البحث والنشر والتقدير وسهولة تبادل المكاسب العلمية وتنامي الاختصاصات المتنوعة بحيث تتعاون أسباب المعرفة المتفاوتة على تقدم سير العلم وتضامن جوانب الرقي .

هذه الهجرة التي تجتاح البلاد الاصلية تستنزف خيراتها وتطيح بمواردها وتعوق تقدمها. ان العالم الذى اعدته بلاده قد كلفها نفقات باهظة عليه ان يعوضها بعد تكونه العلمي بانتاجه وباسهامه فى تقدمها ، وذلك انما يتم في سني حياته المنتجة ، فكان هجرته الى البلاد الغنية هدية من فقير معدم جمع بلغة معيشته وقدمها للموسر الثرى ليزيد ثراءه ويساره ، ولا سيما ان تلك السنين المنتجة سوف تمضي فى البلد المقصود .

هنالك تخمينات كثيرة حول تلك الهجرة فى مختلف البلدان ، ربما يكون من المناسب ان نعطي مثالا واحدا على هذا النوع من الهجرة في بلد عربي على الاقل وهو سورية .

تخمين هجرة الكفايات العلمية في الفترة ١٩٥٦ – ١٩٦٩

| | الطب | الهندسة | العلوم الاساسية | الطب البيطري | الزراعة | الاستان طب | الصيدلة | المجموع |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ارقام تخمينية | ٢٧٦٩ | ٣٠٤٩ | ١٣٩٢ | ٤٤ | ٤١٩ | ١٩٥ | ٣١٤ | ٨١٨٢ |
| نسبة المهاجرين بين المختصين فى القطر | ٦٥٪ | ٦١٪ | ٥٩٪ | ٥٠٪ | ٣٩٪ | ٢٤٪ | ٣٣٪ | ٥٧٪ |

من هذا الجدول يبدو ان اكثر من نصف المختصين فى سوريا يغادرونها الى بلد آخر واذا علمنا ان البلاد في امس الحاجة الى هؤلاء النازحين ، وقد خسرت عليهم مبالغ طائلة فى تنشئتهم العامة واعدادهم الاختصاصي ، تبينت لنا العواقب الفاشمة لهذه الهجرة والمواقف العاقة لأولئك المهاجرين . ولا بد من اتخاذ التدابير التشريعية والاجتماعية والمالية لاسترداد تلك الكفايات والامساك بها واسباغ التكريم لها والعمل على تهيئة المجال المناسب لانتاجها المثمر. وقد كان للعلم فى ماضي البلاد العربية اعلى مكانة واجل شأن واسمى غاية . ومثل هذا الغبن واقع فى بقية البلاد العربية . وهو من العقبات العاتية التي تعترض فى سبيل تقدمها السريع . ولا شك ان الخسارة من هذا النوع تستدعى خسارات تالية متفاقمة . ان العالم في الحقيقة بمثابة مدرسة يتخرج حوله العلماء ويدربهم ، ولذلك خسارته ليست خسارة فرد واحد ولا ضياع مبلغ من المال وانما هي فقدان افراد متعددين ، ومبالغ طائلة وامكانات معنوية كثيرة . ولذلك ينبغى اعطاء العالم مكانة طليعية فى تنمية المجتمع ، وتقديم أفضل الاحوال المناسبة ، وعونه على القيام بأعباء رسالته الفكرية وتشجيع انتاجه ونشاطه على صعيد وطنه وفى المجال العالمي ان امكن .

## خاتمة

ان سمات الهجرة منذ الحرب العالميةالأخيرة تبدلت تبدلا عميقا في انحاء الأرض فقد اتسع اشراف الدول على تيارات الهجرةواستحكم ، ولا سيما عقب الفوضى التي استمرت طوال الحرب في هذا الشأن فأصبح تيار الهجرةفي العصر الحاضر موجها او ماخوذا على الاقل بالضبط اى بالتشجيع او التعويق حسبسياسات الحكومات . ثم ان اقواما جلوا عن مساكنهم واوطانهم بسبب الحرب الغاشمة وبعضالاتفاقيات التي تلتها بعضهم استقر ، وبعضهم آب او يرغب في الأوبة ، وبعضهم رغب في هجرةجديدة . كل ذلك جعل هيئة الأمم المتحدة وطائفة من الدول تولي عنايتها الاشراف على أولئك الناسواعادتهم الى مواطنهم الاصلية ، او تتكفل مساعدتهم بوجه عام ، ولو الى أمد محدود ،سواء كانوا لاجئين او منقولين او مهاجرين . وربما كان من المناسب في ختام هذا البحث انلقي نظرة على الهيئات العالمية والحكومية التي تجعل نصب اعينها الاشراف على تلك التحركات. فلقد تألف اكثرها بغاية هذا الاهتمام الى زمن محدود وهي :

١ ـ لجنة الحكومات لعون اللاجئين(.C.I.R)

٢ ـ ادارة هيئة الأمم المتحدة للعونوالتعمير (.U.N.R.R.A)

٣ ـ الهيئة العالمية لعون اللاجئين ( .I.O.R ) وقد خلفت المنظمتين السابقتين من سنة ١٩٤٦ الى ١٩٥٢ وكان مركزها جنيف .

٤ ـ اللجنة العليا للاجئين في هيئة الأمالمتحدة (.U.N.H.C) اتت بعد الهيئة السالفة وتجددت مدتها عدة مرات .

٥ ـ هنالك جمعية غير تابعة لهيئة الأممركزها جنيف تهتم بالمهاجرين الاوربيين وتساعدهم في هجرتهم وهي ( .C.I.M.E ) لكونت سنت ١٩٥١ بمبادرة من الولايات المتحدة.

٦ ـ وثمة لجان اضيق مما سبق تهتمبالمهاجرين . منها لجنة في المجلس الاوربي ، ومنها منظمة الصليب الاحمر وغيرها .

٧ ـ وفي البلاد العربية وكالة غوث اللاجئين (UNRWA)تهتم باللاجئين الفلسطينيين . ولكنها على خلاف المنظمات السابقة لا تستطيع انتساعدهم على الرجوع الى أوطانهم . وجل عملها تخفيف البؤس الذى هم فيه .

تلك المنظمات على الرغم من اعمالها الجيدةلا تسمو الى غاياتها المجيدة .

والخلاصة ان الانسان بطبيعته يتداولهعاملا النبذ والجذب الاجتماعيان ، وتتنازعه قوتان : النزوع الى الحركة والتنقل والتغيير ،ثم الميل الى الهدوء والاقامة والمحافظة . فهو يضطرب ويقيم ، ويتحرك ويسكن ، وهلم جرا . وهو اينما حل وحيثما رحل يجازف ويركب الاخطار . وينجم عن كل ذلك ظواهر انسانيةواجتماعية ليست الا جزءا من الظواهر الطبيعية

العامة . لقد استعرنا فيما سبق لفظ التيار من بعض الظواهر الطبيعية كتيارات البحار والسيول والمد والجزر للتعبير احيانا عن ظاهرة الهجرة . ولما كانت الظواهر الطبيعية تحتاج الى التنظيم للاستفادة منها ولتوزيع خيراتها الثرة الثرية بدلا من التعرض لآفاتها المدمرة ، كذلك نرى لزوم الاهتمام بالظواهر الانسانية التي تنضوي الهجرة في نطاقها ، لكي تنظم ، ان في الداخل وان في الخارج ، تنظيما معقولا يتحامى الفتن ويتلافى الكوارث ويمنع الحروب ويدفع النزاع ويسعى لوئام المجتمعات واسباغ العدالة والسلام في ربوع امنا الارض .

على اننا في عصر يؤذن كل شيء فيه بالتغير نظرا للتطور الكبير في التكنولوجيا . ولا احد يستطيع ان يستشف المستقبل وان يتوقع ما فيه من مفاجآت . وربما جاء يوم فتح فيه في باب الهجرة فصل يتعلق بعدد النازحين الى كواكب جديدة ملائمة .



* * *

د. عبدالكريم أحمد

# مشكلة التزايد السكاني وأثرها في تطور التربية في البلاد النامية



شهدت الاعوام القليلة الماضية ظاهرة ملفتةللنظر ، وتثير قدرا كبيرا من القلق ، هي التزايد السريع في عدد السكان في العالم . اذ تؤكد كل التوقعات ان عدد سكان العالم ، الذي يبلغ الآن اقل من اربعة آلاف مليون نسمه ، سيصل في غضون ٤٠ عاما الى حوالي ثمانية الاف مليون نسمة ، اى الضعف تماما اذا استمرت الزيادةبالمعدل الراهن . وبرغم ان هذه الزيادة ليست مفاجئة ، بمعنى انها جاءت نتيجة لعوامل طبيعيةمعروفة تماما، فانها برزت على السطح في السنوات الاخيرة ، واتخذت ابعادا دفعت عددا كبير من الخبراء الاجتماعيين والاقتصاديين الى الاصرار على انها باتت خطيرة فعلا وارتفعت اصواتهم تحذر من نتائجها ، وتدعو بشدة والحاح الى

تكتيل الجهود لمواجهتها ، وتؤكد ان « الانفجار السكاني » يهدد الحضارة البشرية كلها بكوارث فظيعة اذا نحن فشلنا في ايجاد الحلول الملائمة لها . (١)

ومنذ اربع سنوات أصدرت الامم المتحدة دراسة عن حالة سكان العالم ، كانت العبارة الأولى التي استهلت بها هذه الدراسة هي : « يمكن ان نقول من يقين ان العصر الحديث شهد تحولا ثوريا حقيقة في ميزان تكاثر الجنس البشري ... فلم يتسن قط في أي عهد من عهود التاريخ خفض معدل الوفيات بين البشر الى المدى الذي تسنى في غضون السنوات المائة الأخيرة » . وتعقد الدراسة مقارنة بين البلاد النامية والمتقدمة في هذا الصدد ، فتشير الى ان هذه الظاهرة السكانية ( هبوط معدل الوفيات ) بدأت في البلاد المتقدمة . منذ منتصف القرن الماضي ، اما في البلاد النامية فقد برزت الظاهرة الى الوجود « بروزا أكثر فجائية وأكبر حجما ابتداء من منتصف القرن الحالي فحسب » .

وقد يساعدنا على توضيح ابعاد هذه الزيادة ان نعرض صورة لتطور الزيادة السكانية في العالم مستقاة من نتائج دراسة نشرتها منظمة اليونسكو في مايو الماضي ضمن حملة التنبيه والتحذير التي اشرنا اليها .

كان عدد سكان العالم في مطلع القرن الماضي ، اي منذ اقل من ١٧٥ سنة ، حوالي الف مليون نسمة ، ثم زاد هذا العدد الى ٢٠٠٠ مليون نسمة في عام ١٩٣٠ ، ثم الى ثلاثة آلاف مليون في عام ١٩٦٠ ، وسيصل الى حوالي ٤٠٠٠ مليون في العام القادم . اي ان عدد سكان العالم ، الذي زاد حوالي ٣٠٠ مليون نسمة فقط في سنة الالف عام ، ثم زاد حوالي ٧٠٠ مليون نسمة في الـ ٢٠٠ عام التالية ، (٢) زاد حوالي ١٠٠٠ مليون في ١٣٠ سنة ( من ١٨٠٠ الى ١٩٣٠ ) ، ثم الف مليون اخرى في الـ ٣٠ سنة التالية ( من ١٩٣٠ ــ ١٩٣٦ ) ثم الف مليون ثالثة في حوالي خمسة عشر عام فقط .

ان هذه الصورة الرقمية لاشك مقلقة ، وهي تفسر الى حد كبير تشاؤم القائلين بانه اذا استمرت الزيادة بهذا المعدل فان سكان العالم سيصلون الى ٦٥٠٠ مليون نسمة قبل نهاية هذا القرن .

وكما اشرنا **ترجع هذه الزيادة الى عملية طبيعية بحتة لا تنطوي على عنصر المفاجاة ، فكلما تقدم الانسان في مدارج الرقي صار اكثر قدرة على محاربة العوامل التي تجعل عمر الفرد اقل مما يستطيع ان يصل اليه بحكم تكوينه البيولوجي ، مثل المجاعات والكوارث الطبيعية والامراض**

---

( ١ ) من اهم الشواهد على الخطورة التي يضفيها الخبراء على نتائج هذه الظاهرة ان الانباء طالعتنا مؤخرا بان هيئة الامم المتحدة دعت الى عقد مؤتمر عالمي ضخم يضم ممثلين عن ١٥٠ دولة للنظر في مواجهة آثارها . وقد تم انعقاد هذا المؤتمر في النصف الثاني من شهر اغسطس الماضي ، وقال كورت فالد هايم في خطاب افتتاحه « ان هذا المؤتمر اخطر واهم مؤتمر دولي تنظمه الهيئة ــ اذ يتعين على المؤتمر ايجاد الحلول المناسبة لمشكلة الانفجار السكاني الصحوبة بانخفاض المواد الغذائية في جميع انحاء العالم مما يهدد بحدوث مجاعات رهيبة وخاصة في الدول النامية » .

( ٢ ) يقدر الخبراء ان عدد سكان العالم قبل استقرار الجنس البشري في الزراعة ( اي منذ حوالي ٨٠٠٠ عام ) كان لا يزيد عن عشرة ملايين نسمه باي حال من الاحوال ، بل لعله كان اقرب الى خمسة ملايين . وانه بلغ ٣٠٠ مليون نسمه منذ الفي عام فقط .

**الوبائية ، والحد من آثارها المدمرة** . وادت ذلك بدوره الى انخفاض معدل الوفيات واطالة الفترة التى يستطيع فيها الفرد ان ينجب . وقد تحقق هذا التقدم كله تقريبا فى المائتى سنة الماضية — وهي الفترة التى زاد فيها عدد السكان من ١٠٠٠ الى ٤٠٠٠ مليون نسمة دون أن نتنبه لمغزى هذا التصاعد السريع فى معدل الزيادة . وهكذا وجدنا انفسنا لأول مرة فى التاريخ البشرى ، أمام « ثورة ديموجرافية » تهدد فى رأى البعض ، بكارثة ماحقة .

**ولسنا فى حاجة ، ونحن حيال هذه الصورة الى تاكيد ان مثل هذا التزايد فى السكان له آثار عميقة على الجهود المبذولة لنشر التعليم وتحسين نوعيته ، وبخاصة فى البلاد النامية** . فالجانب التربوى من الصورة يشير الى ان مجموع من هم فى سن الدراسة من ( ٥ الى ١٩ سنة ) قد زاد فى الفترة بين ١٩٦٠ و ١٩٦٨ حوالى ٢٠٠ مليون تلميذ ، اى بمعدل زيادة سنوية ٢ر٣٥ (٣) ويرى الخبراء ان متوسط الزيادة السنوية فى عدد هذا القطاع من السكان سيصل الى ٣٦ مليون نسمة سنويا طوال الربع قرن التالى ، اى ان على الاجهزة التربوية ان تستعد لمواجهة عبء اضافى على ما تحمله الآن يقدر بحوالى الف مليون تلميذ قبل ان ينتهى هذا القرن .

فاذا ادخلنا فى اعتبارنا ان هذه الارقام تنصب على العالم كله ، الدول المتقدمة والنامية على السواء ، وانها تمثل فى الواقع عبئا بالنسبة للبلاد النامية اكبر بكثير مما تمثله بالنسبة للبلاد الأخرى ادركنا بعض ابعاد المشكلة بالنسبة لنا ، وعندما نضيف الى ذلك الأعباء الاضافية التى تقع على عاتق الاجهزة التربوية فى المنطقة التى نعيش فيها كما سيأتى تفصيلا والمعوقات الكثيرة الأخرى التى تقلل من فعالية اية جهود تبذل فى سبيل التغير الاجتماعى عموما فيها ، نصبح فى وضع افضل لدراسة هذه المشكلة وتقدير متطلبات مواجهتها .

لقد حاولنا فى هذه المقدمة ان نعرض الخطوط الرئيسية للقضية المطروحة ، ويبقى امامنا الآن ان نتناول كلا من هذه النقاط بشىء من التحديد فيما يتصل بالبلاد النامية ، ولكن قبل ان نخوض فى هذا الجزء من البحث ينبغي ان نشير الى حقيقتين هامتين ، تتعلق اولاهما بالقضية ككل ، والأخرى بظروف البلاد النامية بصفة خاصة .

ان هذا التزايد المذهل فى عدد سكان العالم ، الذى بلغ من حدته ان صار يطلق عليه « **الانفجار السكانى** » ، ليس ظاهرة منعزلة ، بل هو جزء من تطور واسع النطاق يمثل ثورة حضارية شاملة فى جميع مناحي الحياة ، الاقتصادية والعلمية ، واكبها — ونجم عنها — تغير ضخم فى الخريطة السياسية للعالم وبخاصة وضوح انقسام الجنس البشرى الى مجموعتين متميزتين من الشعوب — شعوب متقدمة واخرى نامية (٤) . وقد صاحب هذا التطور الضخم تطور آخر على صعيد الوعي الاجتماعي والفردى هو فى الحقيقة الذى يضفى على كل التطورات الأخرى مغزاها الحالى .

---

**( ٣ ) زاد عدد سكان العالم فى نفس الفترة اكثر قليلا من ٥٠٠ مليون نسمه اى بمعدل ٢٪ سنويا وهو اقل من معدل زيادة تلاميذ المدارس كما نرى .**

**( ٤ ) يرى البعض ان اهم المشكلات التى يواجهها العالم الآن ثلاث : زيادة الهوة بين الامم الغنية والامم الفقيرة ، زيادة العدد المطلق للأميين ، الانفجار السكاني ( وقائع اليونسكو ١٩٧٢ ) . ولكن من الجلى ان هذا الرأى لا يمس الا بعض جوانب الصورة .**

**والحقيقة الأخرى** التي نريد الاشارة اليهاهنا هي انه من الخطأ ان نتصور ان كل المشاكل التربوية التي تعانيها البلاد النامية ترجع اساسا الى ما يطلق عليه الانفجار السكاني ، فهناك عوامل اخرى عديدة يتطلب الأمر عرضها حتى تأتي الصورة متكاملة ويمكن الاحاطة بالمشكلة وجذورها اذ ان البلاد النامية تختص بمجموعة من السمات المشتركة التي لها أثر كبير في تفاقم المشكلة وفيما يترتب عليها من ظواهر تربوية خاصة، ولا مندوحة امام الباحث من التعرض لهذه السمات اذا اراد ان يعطي انطباعا صحيحا عن القضية ، خصوصا وان هذه السمات تترك آثارا مباشرة وغير مباشرة في كل مناحي النشاط البشري ، الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، في هذه البلاد بحيث لا يمكن استيعاب خلفية اية قضية من قضاياها دون الالمام بها . (*)

فكل البلاد النامية تقريبا تعرضت مثلا لسيطرة اجنبية ، واستغلال اقتصادي شوهها نموها واضعفا بنيتها الاجتماعية والاقتصادية بصورة تكاد تكون متماثلة فيها جميعا ، ونحن وان كنا لا نستطيع ان نعزو كل ما بين البلاد النامية من تشابه في السمات الى هذا العامل وحده ، الا انه لا ريب في ان التشوية الذي تعرض له نموها بسببه كان له أثره الواضح فيها جميعا .

• • •

كان متوسط المواليد في البلاد النامية والمتقدمة على السواء حتى منتصف القرن الماضي يبلغ حوالي ٤٠ في الالف والوفيات حوالي ٣٠ في الالف ، ثم بدأ معدل الوفيات ينخفض في البلاد المتقدمة حتى وصل الآن الى اقل من ١٠ في الالف ، بينما ظل ثابتا تقريبا في البلاد الأخرى حتى منتصف القرن الحالي ، اي منذ اقل من خمسة وعشرين عاما ، اذ ظل معدل الوفيات فيها فوق ٣٢ في الألف . ولكننا لا نلبث ان نفاجأ في السنوات القليلة الماضية ( ومما يسترعي الانتباه أن هذه الفترة ذاتها هي الفترة التي بدأ فيها انحسار الاستعمار الغربي ) بهبوط معدل الوفيات في هذه البلاد الى النصف تماما ، اي حوالي ١٦ او ١٧ في الالف ، كما صاحب ذلك بطبيعة الحال ارتفاع في متوسط الاعمار من حوالي ٤٠ سنة الى اكثر من خمسين سنة .

**وبذلك صارت المحصلة التي لدينا الآن هي انه اذا كان الجنس البشري كله يتزايد في الوقت الحاضر بما يقدر بحوالي ٧٠ مليون نسمة سنويا ، فان اكثر من ٥٥ مليون منها في البلاد النامية وحدها ، بينما لا تتجاوز الزيادة السنوية في البلاد المتقدمة في اوروبا وامريكا الشمالية واستراليا واليابان اكثر من ١٤ مليون ، اي بنسبة ٤ الى ١ .**

وفيما يتصل بالأطفال، وهم العنصر الرئيسي حاليا في الجانب التربوي من المشكلة ، فان معدل الوفيات بينهم في البلاد النامية هبط من ٢٢٠ الى ١٤٠ في كل الف طفل ، بل ان بعضها هبط فيه

---

( * ) لا يفوتنا هنا ان نسجل ان ذلك لا يعني ان كل البلاد النامية متطابقة بعضها مع بعض ، فهناك اختلافات واضحة بينها وتنفرد كل منها ، او كل مجموعة منها ، بعدة خصائص يجب ان تؤخذ في الاعتبار عند محاولة اكتشاف الحلول الملائمة لمشاكلها . ولهذا السبب عمدنا الى تخصيص مكان خاص للبلاد العربية في هذا البحث . وفيما يتصل بالسمات المشتركة بين البلاد النامية ، انظر مثلا « عبد الكريم احمد » « القومية والمذاهب السياسية » القاهرة ١٩٧٠ . حيث يوجد بحث مسهب حول الموضوع والاراء المختلفة فيه وقائمة بالمراجع التي تعالجه .

المعدل الى مادون ٣٠ ف الألف ـ حوالى المعدل السائد ف بعض اكثر البلاد تقدما . (٦) ويعنى ذلك ان على الأجهزة التعليمية ان تواجه زيادة سنوية ف مجموع من يجب تعليمهم تبلغ ٤٪ على الأقل من هذا المصدر وحده، بالاضافة الى الزيادة الأصلية .

كما يعنى من ناحية اخرى، لها صلة مباشرة ايضا بالواقع التربوى ف البلاد النامية ان اية محاولة لتحسين مستوى المعيشة وتحسين اوضاع الطبقات الأقل دخلا ، التي تتالف منها الأغلبية الساحقة من سكان هذه البلاد ، مقضى عليها بالفشل الى حد كبير ، او على الأقل لا يمكن ان تصيب سوى نجاح ضئيل جدا ، لان ارتفاع معدلات الزيادة السكانية تبتلع معظم نتائج الجهود المبذولة ف هذا السبيل ، كما يبدو بوضوح من نتائج التجربة الجزائرية والمصرية ف هذا المجال ، وهما من التجارب الرائدة التى كتلت فيها كل امكانيات المجتمع لتحقيق هذا الهدف .

وعندما نعود الى الجانب التربوى البحت نجد ف معظم البلاد النامية عاملين آخرين مهمين ساعدا على ذلك التدفق الرهيب الذى شاهدته المدارس فيها .

ففى مواجهة الاستعمار الأجنبي كان لمطلب « الاستقلال » والتخلص من النير الأجنبي والاستغلال الاقتصادى المصاحب له اولوية خاصة على الأهداف الاخرى ف هذه البلاد ، فكرست له شعوبها اكبر قدر من جهودها على حساب غيره من الأهداف ، ومن بينها العمل على تعليم ابنائها ، فظلت النسبة الغالبة بينهم محرومة منه . وقد حصلت معظم هذه الشعوب على استقلالها بعد نضال طويل ودام ف كثير من الحالات ، وكان على راس هذه الحركات النضالية عادة قيادات من المثقفين من ابناء البلاد ممن لا ينتمون الى « طبقة اجتماعية معينة » ، وبحكم ان هذه القيادات تفتقد الى التأييد الطبقى ف دعم حكمها للبلاد بعد الاستقلال فانها لم تجد امامها سبيلا سوى السعى للحصول على تأييد الجماهير . وف الغالب كان من اهم ما قدمته القيادات الجديدة لجماهير شعوبها اتاحة فرصة التعليم وتيسير سبله وتخفيض نفقاته ، او رفعها كلية عن عاتق التلميذ . ومن الجلى ان ذلك ادى الى تدفق سيل ضخم من الطلاب والتلاميذ مما القى عبئا ثقيلا تنوء به اكتاف الأجهزة التربوية ف هذه البلاد .

وعلينا ان نضيف الى ذلك مصدرا آخرا من مصادر زيادة عدد من يجب ان يتمتعوا بالخدمات التعليمية ف البلاد النامية، ونعنى به ظاهرة الاقبال على تعليم الفتيات ف مناطق كثيرة من هذه البلاد . فالى عهد قريب كان عدد البنات ف المدارس اقل بكثير من الأولاد ، وكان ذلك يرجع الى عزوف الأهالى عن ارسال بناتهم الى المدارس لاسباب دينية واقتصادية واجتماعية . ولكن ف الفترة الأخيرة بدات تظهر ف عدد كبير من هذه المناطق اتجاهات اجتماعية تؤدى الى زيادة الاهتمام بتعليم البنات ، والنتيجة الطبيعية لذلك هى زيادة مجموع التلاميذ من ناحية ، وضرورة تغيير بعض جوانب مهمة من النظام التعليمي ذاته من ناحية اخرى . وكلها اعباء تعتبر جديدة ، ومفاجئة ، على الأجهزة التربوية خصوصا ف المناطق التى مازالت تطالب بان يكون للاناث مدارس خاصة لا يختلطن فيها بالذكور .

---

(٦) جمعت هذه المعدلات والمتوسطات وما سبقها ، من نشرات هيئة الامم المتحدة وبعض وكالاتها المتخصصة ومن النشرات الاحصائية الرسمية المتاحة التى تصدرها بعض الدول .

هذا ، ويلعب التركيب السكاني من الناحية العمرية دورا غير صغير في زيادة المشاكل التربوية حدة في البلاد النامية . اذ ان نسبة من هم في سن الدراسة التقليدية ـ اى اولئك الذين بين الخامسة والخامسة عشرة على الاقل ـ الى مجموع السكان تزيد في هذه البلاد عنها في البلاد المتقدمة كثيرا ، ففى الاولى تبلغ هذه النسبة حوالي ٤٣ في المائة ـ وتصل في البلاد العربية الى ما يقرب من ٤٧ ٪ ـ ولا تكاد تصل في الثانية الى اكثر من ١٨ في المائة . وبعملية حسابية بسيطة نجد **اولا** : ان المجهود الذى يجب ان تبذله الاجهزة التعليمية في البلاد الاقل حظا تزيد ـ عندما يتساوى عدد السكان ـ حوالى ٥٠ ٪ عن المجهود الذى يلقى على عاتق الاجهزة المقابلة في البلاد الاكثر تقدما بسبب هذا العامل وحده ، **وثانيا** : بنفس العملية الحسابية البسيطة نستطيع ان نتبين ان في مثل هذه الاوضاع تكون نسبة ما يبقى بعد ذلك من السكان القادرين على الانتاج ـ اى اولئك الذين بين الخامسة عشرة والخامسة والستين ـ اقل في البلاد النامية منها في البلاد الاخرى ، وبالتالى فان عدد من يمكن توفيرهم للقيام بالخدمات التربوية ، وكذلك ما يمكن تخصيصه من امكانيات مادية ، اقل بكثير ايضا . واذا اخذنا في الاعتبار ما نعرفه من ضعف انتاجية الفرد في بلادنا عموما ، وانه لا يستطيع عادة ان يستمر في العمل الى الخامسة والستين ( بل ان متوسط العمر نفسه لا يصل الى هذا السن (٧) ) ، وكذلك ان نسبة كبيرة من الاناث في كثير من المناطق النامية لا يسمح لها حتى الآن بالعمل او تعمل في اعمال غير منتجه مثل الخدمة في المنازل ، لعزوف الكثيرين عن تعليم بناتهن كما اسلفنا ، استطعنا ان نتصور مدى العبء الكمى وحده ، الذى ترزح تحته الاجهزة التعليمية في البلاد النامية .



وقد اندفعت معظم المجتمعات النامية ، بعد ان تخلصت من الاستعمار مباشرة ، ولم يحدث ذلك الا منذ عهد قريب جدا بالنسبة لعدد كبير منها ، في صراع مرير ضد عوامل التخلف الداخلية الثلاثة ، الفقر والجهل والمرض . واعتبر قادة هذه المجتمعات ان التغلب على الجهل بالذات ونشر التعليم على اوسع نطاق هو الضمان الوحيد للمحافظة على الاستقلال الذى حققته بلادهم باعتباره الوسيلة الرئيسية في القضاء على العاملين الآخرين وفي تحقيق التنمية التى تتيح لشعوبهم الحياة الانسانية الكريمة .

فاذا اضفنا الى ذلك ان القيم الاجتماعية تغيرت كثيرا في معظم هذه المجتمعات بعد ان دخلت في مضمار الدول المستقلة ، وخصوصا تلك التى مرت بثورات اجتماعية ، بحيث ان « الجدارة » ـ التى تحولت في البلاد النامية الى مجرد الحصول على « الشهادة المدرسية » ـ اخذت تحل محل الانتماء الاجتماعي في بعض المجتمعات ومحل المال في مجتمعات اخرى ، في توفير الامتياز الاجتماعي والاقتصادى . وقد جعل هذا التحول في القيم التعليم الوسيلة الرئيسية للرقى الاجتماعي والاقتصادى بالنسبة للافراد في هذه البلاد ؛ وبذلك برز عامل آخر من العوامل التى حدت

---

( ٧ ) يبلغ متوسط عمر الفرد في البلاد المتقدمة ٧١ سنة ، ولا يتجاوز ٥٨ سنة في البلاد النامية .

بالجماهير الى التدفق على المدارس . ودفعت القيادات الى زيادة هذا التدفق اشتعالا باعتبار ان التعليم هو العصا السحرية التى يمكن ان تحقق للمجتمعات سبل التقدم (٨) .

الا ان البلاد النامية فى اندفاعها نحو التعليم لم يكن لديها الوقت الكافى ، ولا الإمكانيات الفنية والمادية ، لتطوير نماذج تربوية خاصة بها تسد احتياجاتها الحقيقية ، ولذلك عمدت فى أغلب الاحيان الى التقليد الأعمى للنماذج الأوروبية باعتبارها خلاصة ما بلغته « التربية الحديثة » من تقدم وفعالية. بل كثيرا ما راينا بعض التربويين فى بلادنا يقبلون على نماذج ثبت فشلها فعلا فى البلاد التى وضعتها أصلا . كما سارع بعضهم الى التقاط اى اتجاه جديد فى تكنولوجيا التربية يظهر فى البلاد المتقدمة ــ التى تختلف ظروفها وواقعها تماما ــ حتى قبل أن يتثبت أصحابه أنفسهم من صلاحيته . وقد ادى ذلك الى ارتفاع فى نفقات التعليم بشكل يتجاوز كل الحدود المتصورة للعائد منه ، كما كان عاملا مساعدا فى القضاء على النماذج التعليمية الخاصة التى كانت أصلا فى هذه البلاد ــ مثل « الكتاتيب » فى بعض البلاد العربية ــ وكانت هذه النماذج ذات قيمة تربوية لا تنكر ولكنها تحطمت باسم **« تحديث التربية »** دون ان تبذل اية جهود حقيقية لتطويرها بحيث تتفق مع التغيرات الكبرى الأخرى التى تمر بها المجتمعات النامية .

واكثر من ذلك ، كان من نتائج هذا الاندفاع فى تقليد النماذج التربوية الغربية ان أصبح النظام التعليمى فى البلاد النامية اكثر تأثرا باحتياجات البلاد المتقدمة التى نقلت عنها هذه النماذج منها باحتياجاتنا التى تختلف تماما . وقد كان لذلك آثار ضارة فى كثير من الأحيان ، ليس أقلها انها ارغمتنا على زيادة الاعتماد على البلاد المتقدمة اكثر فاكثر ، فى حين أصبحت لدينا أعداد ضخمة من الخريجين فى مجالات لاحاجة بنا اليها ، ونقص واضح فى المجالات التى نحن فى مسيس الحاجة اليها فعلا ، مما نجم عنه مشكلة عسيرة الحل هى مشكلة بطالة ذوى المؤهلات العليا وما يترتب عليها من آثار اقتصادية وسيكلوجية واجتماعية سيئة . (٩) فمن الأمور

---

( ٨ ) يعبر احد خبراء التربية فى معرض شرحه للجهود المبذولة فى تحديث « التربية فى جنوب آسيا عن وجهة نظر مقاربة قائلا : ان التعليم يمكن ان يصير اكثر العوامل فعالية فى تضييق الهوة مع الوقت بين الرخاء والفقر ... الا برغم ان التعليم لا يستطيع ان يساعد كثيرا على التقريب بين الدخول على المدى القصير ، فانه بالتأكيد يستطيع ان يفعل الكثير فى اثراء حياة الفقراء كما فى حياة الاغنياء . ويختم رايه بان « المجتمعات النامية تستطيع ، بمعونة النوع الملائم من التربية ان تحقق اكتفاء وتوافقا قد لا يستطيع تحقيقها بعض المجتمعات الثرية » .

Prem kirpal ,, Modernization of Education in South Asia ; The Search for Quality.,, International Review of Education No. xvII 1971.

( اوردها تقرير لجنة فور ص ٣

وبرغم ان الكاتب يسجل عدة اتجاهات فى هذه العبارة قد لا نتفق معه فى بعضها ، الا ان حديثه ينبىء عن مدى ما يعلقه بعض التربويين فى البلاد النامية على التعليم كدواء للامراض التى تعانى منها هذه البلاد وكوسيلة لتحقيق اهدافها.

( ٩ ) يذهب بعض علماء الاجتماع الى ان اندفاع البلاد النامية فى الاخذ بالتنمية على الانماط الغربية ادى الى عدة نتائج ضارة بهذه البلاد أ ــ تركيز التنمية فى المدن على حساب الريف مما يؤدى الى اتساع الهوة الاقتصادية والاجتماعية بين سكان المدن والريف ب ــ صارت الانماط الانتاجية والاستهلاكية تعكس حاجات الاغنياء اكثر مما تعكس حاجات الفئات الافقر حالا ، جـ ــ تزايد الاعتماد من جانب البلاد النامية على البلاد الغنية ، وتناقص القدرة على الاعتماد على الذات د ــ تحكم ايدى قليلة فى الانتاج واستبعاد الجمهرة الساحقة من التأثير فيها .

Peter Harper : ,, Prospects '' Vol. III No. 2 1973 P. 192.

والرأى هنا ينصب على التنمية بمعناها الواسع الا اننا نرى بأعيننا انه ينطبق تماما على التنمية فى المجال التربوى .

المسلم بها ان النظام التعليمي عندما يكون مجرد تطبيق لنماذج قامت فى بيئة مختلفة يثير مشاكل ويترك فجوات تحدث اضرارا بالغة على كل المستويات ويعرقل النمو الطبيعي للمجتمع الذى يتعلق به الأمر .

**وعلى اكتاف هذا النظام التعليمي المشوه والاجهزة القاصرة القيت اعباء الزيادة المتصاعدة فى اعداد التلاميذ الناجمة عن الانفجار السكاني والعوامل الأخرى التى اشرنا اليها .** وقد بذل العاملون فى الخدمات التعليمية فى بعض البلاد النامية ـ بمعونة مشكورة من جانب بعض المنظمات الدولية ـ جهودا بطولية لمواجهة هذه الاعباء وبرغم ذلك كانت النتائج مخيبة للآمال وغير مرضية بالنسبة لجميع الاطراف ، وتعالت الاصوات من كل جانب وتوالت الاتهامات بالعجز والتقصير وكثرت الحلقات والمؤتمرات واللجان المتخصصة لاستقصاء الأسباب وعلاج الحالة .

ولسنا هنا بصدد الدفاع عن رجال التربية والمشتغلين بالخدمات التعليمية فى البلاد النامية ومحاولة تبرئتهم من هذه النتائج التى خيبت الآمال البراقة الاولى المعقودة على التعليم . ولكننا لابد ان نسجل بعض المعوقات وجوانب النقص والاعباء الاضافية الملقاة على عاتق الاجهزة التعليمية فى البلاد النامية حتى تتضح الصورة اكثر امامنا .

**اولا :** ان كل البلاد النامية تقريبا تمر ، بحكم ظروفها وتطلعها الى التقدم ، بفترة من الانتقال السريع من مجتمعات زراعية تقليدية الى مجتمعات تلعب فيها الصناعة دورا متزايدا فى الانتاج . ويصاحب هذا الانتقال عادة قلقلة اجتماعية واقتصادية عميقة الأثر فى تكوينها ، كما تتطلب تدريبا شاقا على وسائل الانتاج الحديثة ، وتكوين المهارات والخدمات التى تفتقد اليها واللازمة لسير المجتمع الحديث فى جميع المجالات ـ ومن الجلى ان العبء الاكبر فى القيام بهذه المهام يقع على عاتق الاجهزة التربوية بمختلف انواعها ، بما فيها أجهزة تعليم الكبار .

ونستطيع ان نضيف الى هذه الظاهرة ان اللهفة على التنمية الاقتصادية السريعة بهدف رفع مستوى المعيشة لدى شعوب طال حرمانها من كثير من مستلزمات الحياة ، دفع البلاد النامية الى تكتيل الجهود فى هذا الاتجاه وتكريس كل الامكانيات المتاحة لهذا الغرض . وتحت هذا الشعار ربط النظام التعليمى فى كثير من الحالات بالاحتياجات الاقتصادية فى اطار ما يسمى **« بخطة العمالة » . ومن المعروف ان محاولة تنظيم البناء التعليمي بما يتفق مع متطلبات التوسع الاقتصادى ( الذى قد يتطلب مثلا زيادة عدد الفنيين المتوسطين اكثر مما يتطلب زيادة عدد المؤهلين تاهيلا جامعيا ) تواجه عادة عقبات شديدة ناجمة عن تطلع معظم التلاميذ الى الالتحاق بالتعليم العالى والجامعي ، لما يعود عليهم به من مزايا اقتصادية واجتماعية ، حتى عندما تكون الامكانات المتاحة غير كافية لاستيعابهم جميعا .** وعلى الأجهزة التعليمية ان توفق بين هذه الاتجاهات المتعارضة والا تكون قد فشلت فى جانب هام من مهمتها .

ولا يسعنا هنا الا الاشارة الى أن الضعف المشهود للامكانيات المادية والفنية فى البلاد النامية يجعل قيام الاجهزة التربوية فيها بهذه المهام اصلا بطريقة مرضية مشكلة عسيرة جدا ، خصوصا

بالنظر الى ان من السمات المشتركة بين هذه البلاد انها جميعا تقريبا تعانى عجزا شديدا فى معظم الكفاءات الفنية والادارية الضرورية للقيام بالمهام التى تتطلب تدريبا علميا طويلا ومكلفا(١٠).

**ثانيا** : لا يقتصر العبء الملقى على عاتق الاجهزة التعليمية فى البلاد النامية على القيام بالمهام الخاصة السابقة ، بالاضافة الى المهام العادية التى تقوم بها الاجهزة المقابلة فى البلاد المتقدمة ، وفى ظل ظروف اجتماعية قاسية ونقص شديد فى العناصر الاساسية فى العملية التربوية ، هنالك مهمة اخرى ضخمة تقوم بها هذه الاجهزة تتطلب جهودا شاقة وخبرات متعددة ومرونة كبيرة فى مواجهة مشكلاتها ، وهى مهمة محو الامية. **فمن المعروف ان الامية متفشية بشكل وبائى فى معظم البلاد النامية ، وقد بدات بعض هذه البلاد فى محاربة هذا المرض منذ عشرات السنين ، ولكن برغم كل الجهود المبذولة فى محو الامية يزداد العدد المطلق للاميين عاما بعد عام ( وان كانت نسبتهم لمجموع السكان تقل ) بسبب النمو السكانى الكبير** . ففى حين كان عدد الاميين فى العالم ٧٠٠ مليون فى عام ١٩٥٠ صار يقدر بأكثر من ٧٨٣ مليون فى ١٩٧٠ – اى بعد عشرين عاما من الجهود المتصلة فى هذا المجال . فضلا عن ان نتائج التجارب العديدة التى نشاهدها فى ميدان محو الامية فى مختلف البلاد النامية اثبتت بما يدع مجالا للشك ان الاساليب الحالية المستخدمة لا تحقق الاهداف المرجوة ، ولا حتى ما يقرب منها ، فى المدة المحددة لها . ومازال امام التربويين الذين يعملون فى هذا الميدان ان يبذلوا جهودا اكبر لبلورة الاساليب المثلى التى تحقق نتائجا اسرع واكثر ثباتا .

**ثالثا** : لقد تبين بالاحصاءات الدقيقة ان هناك خسائرا كبيرة فى الطاقات والمال تحدث اثناء العملية التعليمية فى البلاد النامية ، من ابرز شواهدها ترك الدراسة قبل انتهائها لاسباب مختلفة ترجع فى كثير من الاحيان لاسباب اقتصادية . الا ان قسما كبيرا من هذا الفاقد يرجع ايضا الى عيوب فى النظم التعليمية يمكن تلافيها .

فالنظام التعليمي فى معظم البلاد النامية مثلا يعطى اهمية خاصة لاجتياز « الامتحان » فى الانتقال من سنة دراسية الى اخرى . ويؤدى ذلك الى نتيجتين مباشرتين . فهو يدفع عددا من التلاميذ الذين « رسبوا » الى الانصراف كلية عن التعليم قبل ان يكونوا قد حصلوا اى شئ له قيمة دائمة وبذلك ينضمون الى جحافل الاميين ، كما تكون النفقات التى تكبدها المجتمع لتعليمهم قد ذهبت هباء . ومن ناحية اخرى لا يخفف انصراف هؤلاء « الراسبين » من التعليم من العبء الكلى لان اعدادا مقابلة من الذين يرسبون يبقون « للاعادة » وهم كفيلون بزيادة العبء الى ما كان عليه او اكثر . (١١) .

ولا شك فى ان جانبا غير صغير من الفاقد التعليمي الكبير الذى يزيد من تكلفة التعليم فى البلاد النامية ، ويلقى اعباء من نوع خاص على المدرسة يعود ايضا الى ضعف المستوى الصحى

---

**( ١٠ ) من الامثلة البارزة على ذلك ان الاستقصاء الذى اجرته اليونسكو فى عام ١٩٦٦ حول الاوضاع التعليمية فى افريقيا جاء فيه ان خريجى العلوم يمثلون ٢ر. لكل ......١ من السكان ويقابل هذا الرقم ٢ر. ، ٤ر١ ، ٢ على التوالى لآسيا ( بما فيها اليابان ) وامريكا اللاتينية والبلاد العربية .**

**( ١١ ) بدات بعض البلاد النامية فى الاتجاه الى تعديل نظمها التعليمية لتلافى هذه الظاهرة ، ولكنها ما زالت حتى الآن منتشرة على نطاق واسع وفى حاجة الى جهود جادة للتخلص منها بصورة مرضية .**

بين التلاميذ ، بسبب سوء التغذية والعادات غير الصحية المنتشرة بين الفئات الأفقر حالا من سكان هذه البلاد ، وما ينجم عن ذلك من ضعف عام في مستوى التحصيل والأداء بينهم . لذلك نجد ان من الواجبات الرئيسية التى تطالب بها المدرسة الاهتمام بنوع خاص بصحة روادها ، بل وتغذيتهم مجانا في كثير من الأحيان ، وما يترتب على ذلك من مجهود خاص للقيام بالمهام الكثيرة المتعلقة به .

**رابعا** : هناك نوع آخر من المهام التى تفرضها الظروف على العملية التربوية في كثير من البلاد النامية تتطلب جهودا اضافية وتعقد المناهج وتقتطع جزءا غير صغير من وقت وطاقات الأعداد المحدودة المتاحة من المعلمين . ففى عدد من البلاد النامية ، وبخاصة تلك التى تتألف من جماعات مختلفة لغويا او دينيا او سلاليا وتسعى الى دعم وحدتها ، يقع على عاتق المدرسة دور كبير في القيام بهذه المهمة وتطالب بالاسهام بنصيب الأسد عادة في اعداد سكانها لتقبل فكرة الوجود في دولة واحدة . ويكون ذلك شاقا بصفة خاصة في البلاد التى تتعدد فيها الجماعات المختلفة لغويا وتجد المدرسة نفسها مضطرة الى القيام بمهامها المختلفة بأكثر من لغة مع المحافظة على عدم المساس بأى من القيم المتباينة التى يثير المساس بها حساسيات خاصة في مثل هذه التجمعات السكانية المختلطة .

ويزداد هذا النوع من المهام تعقيدا عندما يكون على النظام التربوى في بلد من البلاد النامية ان يواجه اختلافات كبيرة في مستوى التعليم وانتشاره وكفاية عناصره بين منطقة ومنطقة داخل البلد الواحد ـ كما هو الحال بين المدينة والريف في الأغلبية الساحقة من هذه البلاد . (١٢)

ولا يقتصر هذا النوع من المهام على البلاد المؤلفة من جماعات مختلطة ذات خلفيات حضارية متباينة ، وهى مهام لا يدرك عادة مدى تعقيدها وآثارها العميق في العملية التربوية سوى من يعانونها فعلا ، بل يشمل جانبا آخر من المجهود التعليمى في كل البلاد النامية تقريبا . فهذه البلاد كما اشرنا حظيت بالاستقلال بعد نضال شاق بحيث صارت المحافظة على هذا الاستقلال هدفا تربويا قائما بذاته ؛ ولذلك صار من واجبات المدرسة العمل على المحافظة على « الشخصية القومية » وبث « روح الوطنية » ودعم « الوحدة القومية » . وقد يبدو ان هذه المهمة ليست ذات شأن كبير بالنسبة لما اسلفنا من مشاكل ومهام ، وبخاصة ان شيئا من هذا القبيل يقع ايضا على عاتق المدرسة في البلاد المتقدمة . ولكننا نستطيع ان نتبين الى اى مدى تحتل هذه المهمة مركزا متميزا بين أهداف التربية في البلاد النامية ومقدار ما تستغرقه من طاقات ووقت ، عندما نراجع مقررات المؤتمرات والحلقات التى تتعرض لمشكلات التعليم واهداف التربية في هذه البلاد ، فان مطلب المحافظة على الطابع القومى وترسيخ دعائم الشخصية القومية يعتبر مهمة ذات اولوية خاصة نجد صداها بوضوح في البرامج المدرسية والمواد الاضافية التى تلتهم جزءا غير صغير من جهود المدرسين والتلاميذ على السواء (١٣) .

●●●

(١٢) لا يقف الامر عند الاختلاف بين المدينة والريف ، فقد توجد هذه الاختلافات بين مناطق بأكملها . ففى الهند مثلا تبلغ نسبة عدد المقيدين في المدارس في المرحلة الاعدادية ٧١٪ في كيرالا بينما لا تزيد عن ٢٢٪ في بيهار . ويبلغ الفرق اكثر من ذلك في السودان بين بعض المناطق الشمالية والجنوبية .

(١٣) انظر مثلا ما تيوز وعقراوى ، « التربية في الشرق الاوسط العربي » ص ٦٩٢ ، وهو ترجمة عربية لدراسة قاما بها في البلاد العربية من ١٩٤٥ الى ١٩٤٧ . وهما وان كانا يتحدثان عن هذه الظاهرة اصلا في البلاد العربية فانها تشمل كل البلاد النامية باختلاف درجات نموها . ففى مؤتمر البندقية الذى عقد في ١٩٧٢ يعبر مندوب غينيا عن افكار من هذا القبيل قائلا « ان بعث ثقافة وطنية يعني تمكين البلاد من ان تجد من جديد روحها وتوازنها المعنوى واعدادها لاستيعاب التقدم دون ان تذوب فيه » ( وقائع اليونسكو . اكتوبر ١٩٧٢)

هذه هي بعض المهام التي تلقى على عاتق أجهزة التعليم والتربية في البلاد النامية والعقبات التي تواجهها . وهذا هو جانب من الظروف القاسية التي عليها ان تقوم بدورها في ظلها .

وعلينا ان نشير هنا الى ان « المدرسة » في هذه البلاد يفترض فيها ان تقوم بهذه المهام جميعا ، بالاضافة الى المهمة التقليدية ، في غمرة تطور سريع لا تكاد تستطيع ان تلاحقه ، وبدون أية مساعدة جدية من المؤسسات والوسائل التربوية الأخرى في المجتمع ، مثل وسائل الاعلام الحديثة التي يفترض فيها انها من الوسائل الأساسية في التعليم (١٤) .

وعندما نأخذ ذلك كله في الاعتبار نستطيع ان نتصور الدلالات الحقيقية للتزايد السكاني السريع ، الذي يزيد كل مشكلة من هذه المشاكل حدة ويجعل كل عقبة اكثر خطورة واصعب حلا ، وان ندرك مدى تأثيره في تطور التربية في البلاد النامية .

وسنحاول ان نعرض بالتفصيل نتيجة واحدة من النتائج التي تفجرت بصورة يكاد يعجز معها الجهد التربوي عن تحقيق اى تقدم في البلاد النامية ، وهي مشكلة « الكم والكيف » التي تعتبر اخطر ما يواجه التربويين في هذه البلاد من قضايا .

ولكن لما كانت هذه القضايا كلها حيوية جدا وخطيرة حقيقة بالنسبة لبلادنا فاننا سنفرد السطور التالية لتسجيل دلالات ما تقدم بالنسبة للعرب .

منذ قرابة عشرين عاما ألقى أحد رواد التربية الحديثة من العرب محاضرة يحذر فيها من مخاطر الزيادة السكانية السريعة ويعزو ظاهرة « ان الانسانية في كثير من انحاء العالم تتعذب لما يعانيه الافراد والجماعات من ألم الجوع الى « الزيادة المطردة في السكان » . ثم ينتهي الى ان هذه الحالة الأسيفة « حدت بأحد علماء الانتروبولوجيا ان يتساءل : هل لنا بعد هذا ان نعيب على الاسكيمو الذين يقتلون العجائز » ؟ (١٥)

وليس بغريب ان ترتفع احدى الصيحات الأولى للتنبيه الى خطورة المشاكل الناتجة من التزايد السريع في عدد السكان من بلد عربي . اذ أن عدد سكان البلاد العربية زاد في غضون السنينات الماضية وحدها بنسبة تقرب من ٣٢٪ من مجموع السكان ، اى ان العرب زادوا حوالى ٣٠ مليون نسمة في عشر سنوات بمعدل نمو سنوى ٢ر٣٪ ؛ وهو معدل لا تكاد تعرفه اية منطقة اخرى

---

( ١٤ ) قد يكون من المفيد هنا ان نورد بعض الارقام التي تدل على ضعف ما يمكن ان يكون لوسائل الاعلام الحديثة من فعالية في هذا الميدان في البلاد النامية فقد قدرت نسبة الصحف في افريقيا بنسخة واحدة لكل ١٠٠٠ من السكان ، وفي البلاد العربية ١٨ نسخة لكل ١٠٠٠ ، وفي اوروبا وامريكا ٢٥٠ لكل الف . وتقدر نسبة اجهزة الراديو بجهاز واحد لكل ١٠٠٠ في افريقيا ، اما في امريكا فعدد أجهزة الراديو اكثر من عدد السكان ( ١٣٣٩ لكل ١٠٠٠ ) . ومن اجهزة التلفزيون لا يوجد في كل البلاد النامية سوى خمسة ملايين جهاز بينما يوجد منها في البلاد المتقدمة حوالي ٢٤٥ مليون ، اى بنسبة واحد الى ٤٩ برغم من ان عدد السكان الاولى يبلغ ثلاثة امثال الثانية .

( ١٥ ) د . امير بقطر في محاضرة القاها في ٢٦ ديسمبر ١٩٥٣ بعنوان « التربية الجنسية ومشكلة السكان » نشرت في مجلة « التربية الحديثة » العدد الرابع – ابريل ١٩٥٥ . ونحن وان كنا نختلف معه فيما يوحي به من ان السبب في الجوع الذي يعانيه عدد كبير من سكان العالم هو مجرد « الزيادة المطردة في السكان » ، الا اننا اردنا ان نسجل هنا صيحة التحذير المبكرة هذه .

فى العالم ، ربما باستثناء بعض المناطق فى امريكااللاتينية . فاعلى معدل لتزايد السكان فى الفترة ذاتها فى البلاد النامية الاخرى هو حوالى ٢ر٦٪ ،بينما تكاد تقف الزيادة السكانية فى البلاد الاكثر تقدما عند ١٪ فقط . (١٦)

وتشير الدراسة التى اعتمدنا عليها فى توضيح ابعاد هذه الصورة الى انه من المتوقع ان ترتفع نسبة الزيادة السكانية فى السبعينات الى اقل قليلا من ٩ر٢٪ اى حوالى ٤٨ مليون نسمة فى السنوات العشر من ١٩٦٠ الى ١٩٧٠ .

فما هو نصيب المدرسة العربية من هذه الارقام ؟ فى عام ١٩٧٠ كان عدد من هم فى سن المدرسة من ابناء العرب ( بين ٥ ــ ١٤ سنة ) يبلغ حوالى ٢٣ مليون تقريبا ، ومن الطبيعى ان نتوقع زيادة هذا العدد بصورة يقول عنها كاتب هذه الدراسة انها « زيادة خطيرة ومحرجة » خلال السبعينات ، وهى حوالى ٢٤ مليون طفل جديد . اى ان الزيادة المتوقعة خلال السبعينات ستبلغ حوالي ٧٥٪ من المجموع فى عام ١٩٧٠ .

وتؤكد الدراسات التى تجرى حاليا فى بعض اجهزة الاحصاء السكانى والتربوى فى البلاد العربية ان هذه الارقام غير مبالغ فيها ؛ بل انها تكاد تكون اقل مما تسفر عنه المؤشرات المختلفه (١٧) .

الا ان المدرسة العربية لا تستوعب كل هذا العدد كتلاميذ ؛ فهناك قسم غير صغير منهم ، بخاصة فى المناطق الريفية والصحراوية ، لا تراهم المدارس . ولكننا نستطيع ان نتصور العبء الكمي على مدارس التعليم العام بمراحلة الثلاث : الابتدائى والاعدادى والثانوى ، عندما نرجع الى الارقام المتاحة فى هذا الصدد من النشرات الرسمية لبعض الدول العربية . ونستطيع ان ناخذ نموذجا الاحصاءات التعليمية فى مصر ، اذ هى تمثل اكثر من ثلث مجموع سكان البلاد العربية كلها .

فى العام الدراسى ٦٧/٦٦ كانت المدارس الابتدائية فى مصر تضم قرابة ثلاثة ملايين ونصف وفى عام ٧٣/٧٢ كان الرقم قد اقترب من اربعة ملايين تلميذ ، بمعدل زيادة سنوية من ٣٪ الى ٥ر٢٪ فى السنوات الثلاث الاخيرة .

وبلغ عدد تلاميذ المرحلة الاعدادية فى ٦٧/٦٦ حوالى ٦٧٨ الفا ، ارتفع الى اكثر من مليون فى العام الماضى ٧٣/٧٢ ، بمعدل زيادة بين ٦ر٩٪ واكثر من ١٠٪ فى السنوات الثلاث الاخيرة . وفى

---

( ١٦ ) الدكتور محمد الغنام « التربية فى البلاد العربية» ( مطبوعات المركز الاقليمي لتخطيط التربية وادارتها فى البلاد العربية ــ بيروت ) ص ٨ وما بعدها . وهذا المؤلف وثيقة مهمة من الوثائق التربوية العربية تتضمن كثيرا من الاحصاءات والافكار المبنية على دراسة مستفيضة للواقع التربوى العربي. ويحدد الغنام المعدلات السنوية المتوسطة للزيادة فى البلاد العربية المختلفة ( مستندا الى تقديرات قسم السكان فى منظمة الامم المتحدة ) من عام ١٩٦٣ و ١٩٦٨ كما يلي : الجزائر ٩ر٢٪ ، السعودية ٧ر١٪ ، البحرين ٣ر٢ ، العراق ٤ر٢ ، الاردن ٣ر٢ ، الكويت ٨ر٦٪ ، ليبيا ٧ر٣٪ ، المغرب ٩ر٢٪ ، قطر ٦ر٧٪ ، مصر ٥ر٢٪ ، السودان ٩ر٢ ، سوريا ٩ر٢ ، تونس ٢ر٢٪ ، جنوب اليمن ٢ر٢٪ .

( ١٧ ) تدل الاحصاءات التقديرية الرسمية فى مصر على ان عدد السكان زاد من حوالى ٥ر٢١ مليون فى ١٩٥٢ الى ٨ر٣٤ مليون بمعدل نمو سنوى ٣٨ر٢٪ من ١٩٥٢ الى ١٩٦٠، و ٥٤ر٢٪ من ١٩٦٠ الى ١٩٧٠ ثم هبط الى ٢٤ر٢ بعد عام ١٩٧٠ ــ ويعزى الهبوط فى المعدل فى السبعينات الى تضاؤل معدل المواليد نتيجة لحملات تنظيم الاسرة والارتفاع العام فى مستوى المعيشة والتعليم .

المرحلة الثانوية وصل عدد التلاميذ فى ٦٧/٦٦ الى ٢٤٤ الفا ارتفع الى ٣٢٢ الفا بمعدل زيادة وصلت الى ٤٫٨٪ فى عام ٧٢/٧١ و ٣٪ فى العام الماضى (١٨) .

**ونستطيع ان نخلص من هذه الارقام الى حقيقتين لكل منهما اثره البالغ فى الاعباء الملقاة على عاتق المدرسة العربية . الاولى** هى أن عدد الخدمات التعليمية حاليا فى البلاد العربية لا تصل الا الى ثلث من يجب أن تصل اليهم على أحسن الفروض ، وان لنا ان نتوقع ان يتزايد هذا العبء بسرعة كبيرة فى السنوات القادمة . **والحقيقة الثانية** هى ان معدلات الزيادة فى عدد تلاميذ التعليم العام مرتفعة عن معدلات النمو السكانى كما هو واضح من معدلات الزيادة فى المرحلة الاعدادية فى السنوات الثلاث الأولى من السبعينات التى تفوق كثيرا معدل النمو السكانى فى اوائل الستينات . ولا شك أن الحقيقة الأولى تساعد كثيرا على تفسير هذا الارتفاع فى معدل زيادة التلاميذ بالنسبة لمعدل النمو السكانى . ولكن هناك أيضا اسباب أخرى هى بعض ما أشرنا اليه فيما يتعلق بالبلاد النامية . ولعل أوضح هذه العوامل ، وما يمكن ان نتحقق منه بالارقام ، هو الاقبال المتزايد فى مصر على تعليم البنات ، فقد ارتفع عدد التلميذات فى التعليم العام بمراحله الثلاث ، ومعه دور المعلمين والمعلمات ، من حوالى ٦٢٣ الفا فى عام ٥٤/٥٣ الى ما يقرب من ٢ مليون فى عام ٧٢/٧١ أكثر من ثلاثة ارباعه فى المرحلة الاولى الابتدائية ، اى ان هذه الاعداد ستتزايد أكثر فأكثر فى المستقبل القريب جدا (١٩) .

**وهناك عامل آخر هام** ، من العوامل التى سبقت الاشارة اليها عند الحديث على البلاد النامية عموما ، ينطوى أكثر من غيره على تفسير للاندفاع نحو التعليم فى مصر فى السنوات الخمس والعشرين الماضية ، هو تغير وجهة النظر العامة الى التعليم واعتباره أحد العناصر الرئيسية ، بل والعنصر الأول ، فى التقدم الاجتماعي والاقتصادي مع التشجيع الكبير من جانب القيادات الحاكمة لهذا الاتجاه . ولا نعتقد انه يمكن تفسير زيادة عدد التلاميذ المقيدين فى المدارس الابتدائية مثلا الى ثلاثة أمثاله فى أقل من عشرين عاما ( من ١٫٤ مليون فى ١٩٥٣ الى قرابة ٤ مليون فى ١٩٧٢ ) الا اذا ادخلنا فى الاعتبار هذا العامل .

ولا يقتصر العبء الكمى الذى تتحمله معظم المدارس العربية على هذا التصاعد السريع فى عدد الاطفال الجدد . اذ الى جانب اولئك الذين لم يبدأوا تعليمهم بعد ، هناك أولئك الذين بدأوا المرحلة الاولى ولم يستطيعوا اكمالها لأى سبب ممن يجب تعليمهم منذ البداية . (٢٠)

---

(١٨) هبط معدل الزيادة السنوى فى المرحلة الثانوية فى مصر من ٩٫١٦٪ فى ٦٧/٦٦ الى ٦٫٦٪ فى ٦٨/٦٧ ثم الى ٣٫٦٪ فى ٦٩/٦٨ و ١٫٦٪ فى ٧٠/٦٩ واخيرا الى ١٫٧٪ فى ٧١/٧٠ ثم عاد الى الاوضاع ثانيا الى ٤٫٨٪ فى ٧٢/٧١ ، وليس هناك تفسير ديموجرافي او اجتماعي واضح لهذا الهبوط الاخير . وقد يرجع السبب الى تعديلات فى بعض الاوضاع الاحصائية التي عدل عنها فى السنوات التالية .

(١٩) اخذت هذه الارقام من دراسة نشرها مركز التوثيق التربوى فى القاهرة عام ١٩٧٢ بعنوان « التربية والتعليم فى جمهورية مصر العربية » .

(٢٠) هذا ويقدر البعض بان قرابة نصف عدد تلاميذ المرحلة الابتدائية لا يستمرون الى نهايته ويخرجون بعد سنة او اثنتين او ثلاثة ، اى انهم لا يمكن ان يكونوا قد استفادوا شيئا ويجب العمل على استعادتهم الى حظيرة المدرسة وتعليمهم منذ البداية . ( نشرت الصحف القاهرية ان وزير التربية والتعليم فاجأ بعض مدارس التعليم الالزامي ووجد ان اغلبية التلاميذ الذين مرت عليهم اربع سنوات ما زالوا لا يعرفون القراءة والكتابة بصورة مرضية ) . والتقدير السائد بين المشتغلين بالتربية فى مصر مثلا ان حوالي ثلث الميزانية المخصصة للتعليم الالزامي يضيع بسبب هذه الفئة التى لا تتم تعليمها الى نهاية المرحلة الابتدائية ولا تكون قد استفادت شيئا .

**ويؤدى التوزيع السكانى فى البلاد العربيةبين الريف والحضر الى زيادة الخدمات التعليمية صعوبة بالنظر الى الاوضاع السائدة فى الريف العربي وانخفاض مستوى المعيشة فيه .** ومن المعروف ان نسبة سكان المدن فى البلاد العربية اقل من ٤٠٪ من مجموع السكان ويعيش الباقي فى الريف ـ بالاضافة الى نسبة صغيرة مازالت تعيش كبدو برغم الجهود المبذولة لتوطينهم وتعويدهم على الاستقرار الزراعى والحرفى . وبمعنى آخر فان اكثر من نصف العرب الذين يجب ايصال الخدمات التعليمية اليهم يتطلبون جهودا مضاعفة فى ظل ظروف لا تتوافر فيها العناصر الاساسية للعملية التعليمية بصورة تتيح للاجهزة المختلفة اداء دورها التربوى بشكل جدى . (٢١)

واخيرا ، وليس آخرا ، لا يسعنا هنا الا الاشارة الى ان البلاد العربية كانت من اوائل البلاد النامية التى اخذت بمفهوم تكافؤ الفرص التعليمية وتشبثت بمبدأ ديموقراطية التعليم وعملت جاهدة على تطبيقه (٢٢) .

وكانت نتيجة كل هذه العوامل توسعا ضخما فى التعليم امتد الى كل ركن فى الساحة العربية برغم الظروف الشديدة القسوة التى تحدثنا عنها .

**والسؤال الذى يتبادر الى الذهن هنا هو** : هل امكن تدبير متطلبات هذا التوسع من مدرسين مؤهلين تأهيلا ملائما ، وابنية مدرسية وادوات كافية وكتب مدرسية ووسائل تربوية مساعدة فى مستوى لائق ؟ او بمعنى آخر هل امكن الاحتفاظ بالمستوى المأمول . (٢٣) وهو مستوى مرتفع الى حد كبير اذا صدقنا الشعارات المرفوعة للتعليم ؟

يجيب على هذا التساؤل احد خبراء التربية العرب قائلا : هناك ما يشبه الاجماع على ان توسع التعليم فى هذه البلاد لم يصاحبه بوجه عام تحسين مقابل لنوعيته ، بل ان هذا التوسع لم يحصل فى الغالب الا على حساب هذه النوعية ؟ (٢٤)

ان مشكلة الكم والكيف هذه ليست قاصرة على البلاد العربية كما اشرنا ، وليس السبب فيها هو التصاعد المستمر فى معدل الزيادة السكانية وحدة ، ولكن لا شك ان هذا العامل هو احد العوامل الرئيسية التى ادت الى هذه الظاهرة وزادتها حدة وبروزا فى البلاد النامية كلها .

•••

---

( ٢١ ) ان ضعف الخدمات التعليمية فى الريف فى البلاد العربية امر ملحوظ استرعى انتباه معظم المشتغلين بامر التربية فى البلاد . وقد كانت « قلة حظ ابناء الريف من فرص التعليم » احد اوجه النقص فى التعليم العربى التى سجلها مؤتمر وزراء التربية العرب الذى عقد عام ١٩٧٠ فى مراكش .

( ٢٢ ) كان من مقررات مؤتمر وزراء التربية العرب المذكور تأكيد حق كل مواطن عربى فى التعليم بالقدر والجودة اللازمين للحياة العصرية .

( ٢٣ ) جاء فى مقررات هذا المؤتمر ايضا « الاخذ بمفهوم التربية المستديمة المتكاملة انماء لشخصية الانسان ، وتجديدا للمعرفة ، ومواكبة للتطورات العلمية والاجتماعية فى عصر سريع التغير » و « اهمية تحقيق التوازن الكمى والتحسين النوعى للتعليم وكذلك بين الجوانب النظرية والعملية فى التربية المدرسية » .

( ٢٤ ) القنام ، المرجع السابق ص ٣٠ . وهو يصل الى هذه النتيجة بعد ان اكد ان جميع البلاد العربية تقريبا تشكو من نقص خطير فى معظم عناصر العملية التعليمية من المعلمين الى المبانى والاجهزة الى مستوى الكتب ونتائج الامتحانات .

**كان التوسع الكمى فى التعليم فى البلادالنامية نتيجة شبه حتمية للعوامل العديدة التى اشرنا اليها . وقد صاحب هذا التوسع هبوطملحوظ فى نوعية التعليم فى معظم هذه البلاد .**

فهل أصبح لزاما على قادة البلاد النامية وشعوبهاان يختاروا بين الكم والكيف ، بمعنى أنه من المستحيل ، أو على الاقل من العسير جدا ، تحقيقالتوسع الكمى فى التعليم الا على حساب نوعيته مادامت الامكانيات المادية والفنية المتاحة قاصرةعن تحقيق الهدفين ، الكم والكيف معا ؟ وانه اذا اريد تخريج مواطنين متعلمين تعليما حديثاوجيدا فلا بد من الحد من عدد الذين تتاح لهم فرص التعليم بحيثيصبح وقفا على نخبةمتميزةتختار على أساس معايير محددة ، مثل درجة الذكاء او القدرة على التحصيل او القدرة علىالانفاق .

هذا هو ما يطالب به البعض الآن كما قالمدير عام اليونسكو فى تقريره الذى أشرنا اليه سابقا . فهو يتحدث من ذلك متسائلا : ان البعضيطالب الآن بالحد من سرعة الانطلاق الرائع الذى شهدته السنينات فى التعليم فى البلاد الناميةبحجة المحافظة على الكيف : فهل هذا هو الحل الأمثل ؟

وهل اذا سلم الخبراء التربويون وقادةالبلاد النامية بوجود هذا التناقض بين الكم والكيف يستطيعون التحدث بعد ذلك عن« ديمقراطية التعليم » ، وهل تقبل شعوب البلاد النامية هذا الحل ؟



لاشك ان « ديموقراطية التعليم » هدفتصبو الى تحقيقه كل الدول ، متقدمها وناميها على السواء . ولكن فى حين ان الدول المتقدمةاستطاعت ان تقطع شوطا طويلا فى تحقيقه فى ظروف موالية وفى مدة زمنية مريحة نسبيا بحيثكان فى وسعها ان تتغلب شيئا فشيئا على كثير من المشاكل التى تواكب مثل هذه المسيرة ، فان البلادالنامية فى تطلعها الى تحقيقة بدورها وجدت نفسها فجأة تواجه انواعا جديدة من المشاكلالصعبة وبخاصة المشكلة التى نتحدث عنها ، مشكلة الكم على حساب الكيف او الكيف علىحساب الكم .

وقد كثر النقاش حول هذه القضيةواختلطت فيها المفاهيم بحيث تراكمت الأفكار والحلول بصورة تتطلب من الدارس ان يبذلجهدا خاصا فى تحليل مضامينها وتنسيقها حتى يستطيع ان يتبين خيوطها الأساسية .

ان أول ما يطالعنا فى هذا الخليط من الافكارهو تساؤل يلح فى طلب اجابة واضحة تنير السبيل لما يمكن ان يأتي بعد ذلك ، وهو : ماهي مقتضياتالديموقراطية فى ميدان التربية ، وبمعنى آخر ماهو جوهر مفهوم تكافؤ الفرص التعليمية ؟

من الملاحظ ان الاقبال المتزايد على التعليمظاهرة عامةفى جميع انحاء العالم وفى كل المجتمعات ايا كان مقدار تقدمها او نموها وايا كانت اوضاعهاالاجتماعية والسكانية او ثقافتها او مميزاتها الحضارية . ومن ناحية أخرى فان آراء الناسفى اى بلد فى العالم وتصوراتهم عن مجتمعاتهم فى المستقبل مهما تنوعت فان عنصرا رئيسيا منعناصر هذا التصور لا بد ان يكون تنمية الموارد الطبيعية والبشرية التى يملكونها .

فهل هذا الاقبال هو نتيجة الرغبة فىالتنمية ، ام ان هناك قيمة اخرى تتدخل فى الأمر بحيث لا يمكننا تفسير ديموقراطية التعليمفى ضوء هاتين الحقيقتين ؟

**هناك اجابتان مختلفتان على هذا التساؤل ،تذهب احداهما** الى ان ديموقراطية التعليم ، وهي هنا مقترنة بمفهوم تكافؤ الفرص التعليمية ، تعنى « مقعدا فى قاعة الدرس لكل راغب فى التعليم » فى المجتمع . وبرغم ان هذه الاجابةتنصب على ان المجتمع عليه ان يكفل مكانا فى المدارس لجميع ابنائه دون اشارة الى محتوىما يتلقاه التلميذ او نوعية التعليم ، وبالتالي نوعية المواطن الذى تخرجه المؤسسات التعليمية، فليسهناك فى الوقت الحاضر ، فى حدود علمنا ، من يقبل هذا التفسير ، بل يصر اصحاب هذه الاجابةدائماعلى انالكم يجبان لا يكون على حسابالكيف باى حال ، وانهما يجب ان يسيرا جنبا الى جنبفى كل خطوة يتقدمها المجتمع الى الامام تربويا ؛ وان كانوا لا يحددون ماهية هذا « الكيف » اوالاسس التى يتصورونها لتحديده .

**ويذهب اصحاب الاجابة الثانية** الى انديموقراطية التعليم هى اساسا مفهوم يتحقق بالارتقاء بالمجتمعككل تربويا وسد احتياجات التقدمتكنولوجيا واجتماعيا بحيث يعم « الخير » جميع ابناء المجتمع . فالديموقراطية هنا لا تنصب علىتكافؤ الفرص التعليمية لافراد المجتمع دون تمييز باعتبار ان ذلك هو « خير » المجتمع تربويا ، بلتنصب على « خير » آخر اكثر عمومية واوسع نطاقا .



ولكن اول ما يتبادر الى الذهن هنا هوان تحقيق هذا الهدف يتطلب اختيار اكثر الأفراد قدرة على ملء الفجوات الموجودة ، او المتصورة ،فى البناء الاجتماعي ومنحهم فرصة اوسع وتصيبا اوفر فى المجهود التربوى للمجتمع . وهذا فى رأينابرغم انه يخلصنا من مشكلة الكم والكيف من حيث تصبح الزيادة الكمية غير مطلوبة لذاتها ، ينطوىعلى نفى مباشر لمفهوم ديموقراطية التعليم كما تفهمه اغلبية الناس عموما .

اذا ان الاهتمام تربويا « ببعض » افرادالمجتمع دون الآخرين ، ايا كانت المبررات « والخير » الذى يحققه ذلك ، يجعل من مبداتكافؤ الفرص مفهوما مشوها ، خصوصا عندما ناتي الى المعيار الذى سيختار بمقتضاه المحظوظونوتعيين الحكم الذى سيضع مواصفات اولئك الذين يرشحون لملء الفجوات ، بل ومن الذىيحدد هذه الفجوات ؟ وهل معيار تحديد أولويات ملء الفجوات ـ حتى اذا اتفق عليها ـ هواحتياجات المجتمع القائم ام مجتمع المستقبل ؟ وغير ذلك من الثغرات الأخرى التى تخلق مشاكلاجديدة بدلا من ان تحل المشكلة التى تواجهنا اصلا .

**ولنعد الآن الى تحليل الاجابة الأولى لعلنانخلص منها الى بعض الافكار التى قد تنير امامنا السبيل .**

علينا اولا ان نسجل ان ديموقراطية التعليملا يمكن ، كما اسلفنا، أن تعنى مجرد تكافؤ الفرص للجميع فى الحصول على مقعد فى مدرسة ، او انيكون التعليم ـ بصرف النظر عن نوعيته ـ فى متناول كل راغب فيه ، بل انها تعنى ايضا وبنفسالقدر منالتركيز ان يكون مضمونالتعليم واهدافه مما يحقق الاهداف الديموقراطية بصفة عامة ،وان يرتفع مستوى الفرد من جميع النواحى معنويا وماديا ـ اى ان لا يكون مجرد وسيلةلاعداده لكسب لقمة العيش .

ومن ثم فان مجرد المساواة فىفرص الدخولفى المدارس لا تعنى التكافؤ فى الفرص التعليمية ، حيث ان اولئك الذين لديهم قدرة اقتصاديةمرتفعة يستطيعون الحصول على مساعدات

تعليمية اضافية تتيح لهم سد النقص فى الخدمة التعليمية التى يتلقونها مع زملائهم الأرق حالا ، كما يساعد على التفوق المدرسى على هؤلاء الزملاء ـ اى ان انخفاض مستوى الخدمات التعليمية تعنى فى الحقيقة تمييز « البعض » على غيرهم حتى وان وصلت هذه الخدمات الى الجميع .

**نستطيع ان نخلص من ذلك اولا الى انه لا ديموقراطية فى التعليم ، ولا تكافؤ فى الفرص التعليمية ، الا اذا سار التقدم فى الاتجاهين معا ـ زيادة مطردة فى عدد من تصل اليهم الخدمات التعليمية وتحسين فى نوعية هذه الخدمات ـ فهما يمثلان فى الواقع جانبين مترابطين تماما لقضية واحدة .** وعلينا ان ندرك انه برغم الضغوط الهائلة التى يمثلها التصاعد الكبير فى النمو السكانى وغيره من العوامل الأخرى التى تزيد من التدفق على التعليم ، فان التوسع الكمى غير المصحوب بجهود مقابلة لتحسين النوعية لا يحل المشكل ، بل انه فى الحقيقة يخلق مشاكل جديدة اكثر خطورة وينحدر بفكرة التربية باكملها الى مستوى الشعارات الديماجوجية التى تعتبر مرضا متفشيا فى كثير من البلاد النامية . بل ان شعوب هذه البلاد ذاتها قد بدات ، كما تدل الشواهد التى يستطيع ان يلمسها كل من يهمهم الأمر ، ترفض هذا النوع المشوه من التعليم وصرنا نسمع اصداء المطالبة بتحسين النوعية فى كل المحافل (٢٥) .

ان عدم التناقض بين الكم والكيف فى التعليم والترابط العضوي بينهما قد صار امرا مسلما به من الجميع نظريا ، ولكن التطبيق الفعلى مختلف تماما . اذ يبدو ان الأجهزة التعليمية فى البلاد النامية وما يتوفر لديها من امكانيات مادية وفنية اضعف من ان تتحمل اعباء هذه المهمة المزدوجة ، ومن المشاهد بصفة عامة ان النظام التربوى فى بلدنا عندما يعجز عن ملاحقة الزيادة فى الاعداد او سرعة التطور الاجتماعى ينخفض مستوى الخدمات التى يقدمها ، وهكذا تنشأ مشكلة الكم والكيف .

والواقع ان الضغوط الاجتماعية والسياسية المختلفة التى اسلفنا الاشارة اليها دفعت العاملين فى الخدمات التعليمية فى البلاد النامية الى منح الأولوية للتوسع الكمى والتركيز على تخطى العقبات التى تعترضه بحيث اخذت القضايا الاخرى التى تتعلق بالمضمون والمستوى تتراجع عما هى جديرة به من اهتمام . فلم يعد لدى هؤلاء التربويين وقت او طاقة كافية لمواجهة القضايا التى يتطلب التغير السريع اعادة النظر فيها مثل علاقة التربية بالمجتمع وبالمتعلم نفسه او علاقة التربية بالمعرفة . بل ان المشتغلين بالتخطيط التربوى ، الذين يعتبرون الدعامة التى يعتمد عليها المجتمع فى المحافظة على التوازن المطلوب بين الهدفين ، انصرفوا عن هذه القضايا ولم نعد نجد فى انشطتهم وكتاباتهم اهتماما حقيقيا بالمستوى والمضمون .

وقد جاءت فقرة فى التقرير الذى قدمه مدير عام اليونسكو فى اوائل عام ـ ١٩٦٩ عن نشاط المنظمة ما يؤكد هذه الظاهرة اذ يقول : « ان الدور الأساسي الذى قامت به نظريات

---

**( ٢٥ ) جاء فى تعليق على مؤتمر وزراء التربية الافريقية الذى عقد فى نيروبي ١٩٦٨ ، « ان المبدا العام الذى يحظى الان بالتأييد والقائل بان النمو ( الكمي ) ليس هدفا يمكن تحقيقه بمعزل عن نوعيته وعن ما يسهم به فى التوافق الاجتماعي والسعادة البشرية ، ان هذا المبدا ينطبق ايضا على التربية».**

R. Ochs ,, Prospects '' Vol. III N2 Summer 1973.

التخطيط التربوى وتطبيقاتها لادماج التربية فى خطط التنمية فى بلاد العالم الثالث ومواجهة مقتضيات التزايد السكانى وانطلاق الامانى الديموقراطية نتيجة للاستقلال ، ان هذا الدور يفسر دون شك ان تلك النظريات والتطبيقات كانت فى البداية تنحصر تقريبا فى النواحى والعوامل التربوية التى يمكن قياسها كميا ؛ ثم يستطرد مدير عام اليونسكو موضحا « كان تخطيط التربية يبدو وكأنه مقياس لكميتين : الاهداف من جهة والوسائل من جهة اخرى ، وفيما بين اعداد النماذج الاقتصادية القياسية من جانب ، واقامة اجهزة التعبئة من جانب آخر ، افلتت حقيقة التربية ، وهى السلوك التربوى الانسانى ، حتى صارت فى المكان الثانى من الاهمية ... لقد كان تخطيط التربية ينظر اليه ويستفاد منه على الاكثر فى ترشيد التوسع الكمى للتعليم فى البلاد النامية ».

ونحن وان كنا نوافق مدير عام اليونسكو على ان الضغوط المختلفة تفسر اندفاع المخططين التربويين لتكريس جهودهم فى الاتجاه الكمى واهمالهم لما اطلق عليه « حقيقة التربية » ولكنها ، فى نظرنا ، لاتبرر هذا الاهمال . كما نختلف معه فى ان ذلك حدث فى « البداية » فقط ، لأنه ما زال يحدث حتى الآن على جميع المستويات ولا يقتصر على التخطيط التربوى وحده ، بل ينصب على جهود الخبراء من كل نوع تقريبا فى ميدان التربية . اننا نرى باعيننا ، بل ويشارك بعضنا مرغمين فى ذلك ، كيف يلجأ العاملون فى المؤسسات التربوية احيانا الى مواجهة الزيادة الكمية فى التلاميذ بواسطة اجراءات يعلمون تماما ما تحدثه من اضرار بالغة ، مثل تحميل احد عناصر العملية التربوية اعباء اكثر مما اعدت له لتخفيف الضغوط التى يتعرضون لها ـ فعندما لا تتوفر الامكانيات لبناء مدارس مثلا يضطر بعضهم الى الاتجاه الى نظام الفترتين فى اليوم الواحد فتستخدم الابنية المتاحة لفريق من التلاميذ صباحا ولآخر مساء او يتجهون الى استخدام ابنية غير صالحة بالمرة كقاعات للدرس ، وهم يعلمون تماما ان عدد المعلمين المتاحين وطاقاتهم لا يمكن ان تكفى لمواجهة هذا الاجراء الذى يلقى اعباء شبه مستحيلة على المدرسين وعلى العناصر الاخرى مما يترك اثرا بالغ السوء فى نوعية الخدمات التعليمية المقدمة ، ولكنهم يحتجون بان عملية اعداد المدرس اللائق شاقة ومكلفة وطويلة وان محاولة توفير المدرسين دون اعداد كاف اسوأ تأثيرا فى النوعية فى نهاية المطاف .

ان مواجهة مشكلة الكم والكيف هذه لا تتحقق بالحلول الجزئية والجزافية او الشعارات الديماجوجية الجوفاء والاجراءات التى تخفف الضغوط . ان الامر يتطلب حلولا جذريه شاملة تنصب على اعادة النظر فى اهداف التربية ذاتها واساليبها ونظمها . ان هذا ، فى رأى معظم من يعتد برأيهم من الخبراء ، هو الامل الوحيد فى التوفيق بين مطلبين ملحين بنفس الدرجة لا معنى لديموقراطية التعليم الا بهما معا . وفى سبيل ذلك ينبغى عدم الضن باى جهد لاجتذاب ذوى الكفاءات الرفيعة الى مهنة التعليم ودعم اجهزة البحث التربوى بأفضل الخبرات .

ان القدرة البشرية التى سجلت التقدم المذهل الذى عرفه العصر الحديث فى مختلف مناحى الحياة لا يعجزها ان تجد الحلول الملائمة لهذه المشكلة ـ التى لا يكون هناك معنى لأى تقدم اذا لم نحلها .

ومن الحلول المطروحة فى هذا الصدد محاولة الحد من النمو السكانى المطرد الذى يشهده العالم الآن . وبرغم ان الزيادة السكانية الضخمة ليست هى العامل الوحيد الذى ادى الى المشكلة الكبرى

التى يواجهها التطور التربوى الآن ، وبرغم ان علاج هذه الزيادة لن يؤدى الى اكثر من تخفيف الضغط وتاجيل الحاجة الملحة الى حل المشكلة فى جوهرها فان من واجبنا الا ننهى هذه الدراسة قبل ان نسجل بعض الافكار المتصلة بها .

الواقع ان وجهات النظر تختلف بشكل واضح فيما يتصل بخطورة الزيادة السكانية السريعة فى العالم واساليب التعامل معها . فالبعض يذهب الى ان هذه الزيادة تهدد العالم فى المستقبل القريب بكارثة بحيث اذا لم تتخذ اجراءات حاسمة وسريعة فلن تمضى بضع سنوات حتى « ياكل الناس بعضهم بعضا » .

وهناك فريق آخر يجنح الى التفاؤل على اساس ان التقدم التكنولوجى الباهر الذى تحقق حتى الآن ، والذى يتحقق كل يوم ، كفيل بسد حاجات الملايين الزاحفة من البشر .

وبرغم ان هذه الفريق يعلن صراحة اعتراضه على التركيز المغالى فيه على بعض الاجراءات ، مثل تنظيم الاسرة وسياسات تحديد النسل ، بل ويعتقد دعاته ان الزيادة السكانية هى زيادة فى عدد الايدى العاملة ومن الممكن ان تكون ميزة كبرى اذا احسن استخدامها ، فانه يتفق مع اصحاب الراى الاول فى ان هناك حاجة ماسة الى اصلاحات جذرية ، اقتصادية واجتماعية وتربوية وسياسية ، على نطاق عالمى .

ولكن ماهى « الاجراءات » التى يقترحها كل من الفريقين ؟ يؤكد بعض اصحاب الراى الاول ، وهم الذين يطلق عليهم « المالتسيون الجدد » New Malthusists ضرورة ايقاف النمو السكانى بصورة حاسمة عن طريق الوسائل الدعائية ان امكن ، والا فبالاجراءات التشريعية ، بل وعن طريق التدخل البيولوجى اذا تطلب الامر . كما يطالب هذا البعض كذلك بالحد من التعليم بحيث يقتصر على سد احتياجات العمالة .

وينظر عدد من دعاة هذا الاتجاه الى القضية على انها اساسا مشكلة اخرى من مشاكل البلاد النامية ويجب معالجتها على هذا الاساس . فالهدف الجوهرى فى راى بعضهم هو ان تحقق البلاد النامية معدلا متوسطا لنمو الانتاج القومى الاجمالى لا يقل عن ٦٪ ، لانه بذلك اذا امكن ايقاف معدل النمو السكانى عند ٢٫٥٪ زاد الناتج القومى للفرد بنسبة ٣٫٥٪ فى السنة وهذا كاف لمضاعفة الدخل المتوسط للفرد خلال عشرين عاما . (٢٦)

**والملاحظة التى تسترعى الانتباه فى مثل هذا الراى انه فى الوقت الذى تطالب فيه الدول النامية بالحد من التزايد السكانى ، نجد بعض الدول المتقدمة تسعى الى « استيراد السكان »** ، فبرلين مثلا تدفع اعانة مهاجرين . وقد ترددت اصداء هذه الملاحظة فى اقوال المدافعين من الاتجاه الثانى الذين يذهب بعضهم ، كما جاء فى مقدمة التقرير الذى وضعته اللجنة الدولية لتنمية التربية

---

( ٢٦ ) دينال بهرمان « كيف يسخر العلم والتكنولوجيا فى خدمة التنمية » وهو مقال نشر فى « وقائع اليونسكو » اكتوبر ١٩٧٢ ، تعليقا على اعمال لجنة الامم المتحدة الاستشارية لتطبيق العلوم والتكنولوجيا فى مجالات التنمية . ومن الجلى ان كاتب المقال يرى ان مضاعفة دخل الفرد فى البلاد النامية ـ على انخفاضه الشديد حاليا ـ فى عشرين عاما هدف كاف ، اما التطلع الى مستوى قريب مما تحقق فى البلاد الاخرى فامر فى رايه بعيد المنال وحتى ذلك الهدف المتواضع لا يمكن ان يتحقق الا بايقاف النمو السكانى عند ٢٫٥٪ سنويا .

برئاسة ادجار فور ، الى ان مثل هذه العلاجات من شأنها ان تدعم الفوارق غير العادلة القائمة الآن داخل كل مجتمع وبين الشعوب المختلفة وتعميقها وأن تزيد من التشويه الاجتماعي الذى يعتبر لب المشكلة . (٢٧)

ويهاجم هذا التقرير وجهة نظر « المالتسيين الجدد » من ناحية اخرى ، على اساس انه حتى لو قبلت وجهة النظر هذه فانه من العسير جدا تطبيقها لضعف امكانيات التنبؤ باحتياجات العمالة ومواصفاتها فى ظل التغير الاقتصادى والتكنولوجي السريع والمستمر الذى يمر به العالم الآن ، وبخاصة فيما يتصل بالبلاد النامية.

وكانت التوصية التى انتهت اليها اللجنة صاحبة التقرير فيما يتصل بالربط بين التعليم والعمالة هى « ان هدف التربية فيما يتصل بالعمالة والتقدم الاقتصادى ينبغى الا يكون مجرد اعداد الشباب والبالغين لمهنة محددة بذاتها طوال الحياة ، بقدر ما يكون العمل على خلق افضل الظروف والمواصفات للتحرك داخل المهن المختلفة وتوفير الحافز الدائم لاثارة الرغبة فى التعليم والتدريب لدى الفرد » ، وهى توصية تنطوى كما نرى على اتجاه معاكس تماما لما يدعو اليه المالتسيون الجدد .

ويعبر ، بصورة أوضح واكثر تأكيدا ، عن هذا الاتجاه المعاكس المالتسية الجديدة بحث القى فى المؤتمر الذى عقدته اليونسكو فى باريس فى مطلع هذا العام حول موضوع « السكان والقانون » جاء فيه « ان نمو السكان يؤدى الى انجاز اقتصادى افضل، على المدى الطويل، من الجمود السكانى » ، ثم يضيف صاحب البحث ان وجهة النظر القائلة بان خفض معدل الزيادة السكانية فى البلاد النامية خطأ ، « وقبولها واصدار قوانين للحد من النسل على اساسها قد يؤدى الى مأساة » .



ومما هو جدير بالذكر ان وجهات النظر الرسمية المعلنة التى عارضت الدعوة الى سياسات الحد من النمو السكانى تنقسم الى نوعين . فبعضها يتخذ هذا الموقف على اساس ايديولوجى ، والبعض الآخر يتخذه على اساس ما تمليه ظروفه الطبيعية والمادية .

فقد قال **المراقب الصينى** فى اجتماع لجنة السكان التابعة لهيئة الامم الذى عقد فى جنيف فى نوفمبر من العام الماضى « اننا قد تعلمنا من تجربتنا الخاصة انه غير صحيح وغير صادق القول بان الزيادة السكانية هى السبب الرئيسى فى فقر البلاد فى آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية وتخلفها ، وان اتباع سياسة سكانية يؤدى بصورة قاطعة الى حل مشكلات الفقر والتخلف » .

ويحدد السوفييت وجهة نظرهم فى هذه القضية على اساس ايديولوجى أوضح كما يأتى : « تدل التجربة التاريخية على ان النمو السكانى لا يمكن ان يكون عقبة للنمو الاقتصادى والثقافى . اذ لما كانت الحياة الاجتماعية اساسها هو مستوى الانتاج المادى وظروفه ، فان حل مشكلة الموائمة بين النمو الاقتصادى والاجتماعى والنمو السكانى لا يتطلب الحد من النمو السكانى ليتلاءم مع النمو الاقتصادى ... ، ولكنه يكمن فى تحقيق معدلات من النمو الاقتصادى تتجاوز معدل النمو السكانى وتضمن ارتفاعا فى مستوى المعيشة » .

---

(٢٧) Learning to Be من مطبوعات اليونسكو ١٩٧٢ ، ولنا عودة الى هذا التقرير فيما بعد والى بعض التعليقات التى اثيرت حوله .

**اما النوع الثاني** من وجهات النظر الرسمية التي تعارض الدعوة الى سياسات الحد من النمو السكاني فتمثلها بعض الدول النامية التي تملك مساحات شاسعة من الارض وموارد ضخمة بالنسبة لعدد سكانها مثل البرازيل وشيلي . وتذهب وجهات النظر هذه الى ان التركيز على مشكلة زيادة السكان بهذا الوصف ودون ربطها اصلا بالموارد الطبيعية غير المستغلة في كل بلد امر غير مقبول ، فالبلاد التي تزايد عدد سكانها في القرن الماضي اعتمادا على الموارد الطبيعية البلاد الاخرى – وهي لا تزال تعتمد على هذه الموارد لرفاهتها ، بل ولحياتها حتى الآن – تريد من البلاد النامية ان تحد من الزيادة السكانية فيها حتى لا يزيد عدد سكان العالم الى حد يهدد بكارثة . اي ان البلاد التي يبلغ معدل السكان فيها بين ١٠٠ و ٣٠٠ لكل كيلو متر مربع لا تتحمل اية اعباء في مواجهة الكارثة التي تهدد العالم ، في حين يطلب الى البلاد التي يبلغ المعدل فيها اقل من ٢٠ نسمة للكيلو متر المربع ان تتحمل وحدها العبء الرئيسي في علاج المشكلة .

ومن هذا المنطلق قال مندوب شيلي في هيئة الامم المتحدة في نوفمبر ١٩٧١ ان مشكلة النمو السكاني قضية مصطنعة تثيرها الدول المتقدمة كحجة تبرر بها تقاعسها عن القيام بواجباتها حيال المجتمع العالمي ، وان ما يتطلبه الامر حقيقة هو مواجهة اسباب التخلف عن طريق زيادة المساعدات التجارية والمالية وتسهيل انتقال التكنولوجيا الحديثة والتعاون بين البلاد المتقدمة والنامية في جميع ميادين المساعدة الفنية . »

ومن ناحية اخرى ترى بعض البلاد النامية الاخرى تبني وجهة النظر المعارضة على اساس انها « تدرك تماما ان رفع مستوى معيشة الفرد وحل مشكلة البطالة ، او حتى ضمان استمرار المعدل الحالي للتعليم المدرسي ، يكاد يكون مستحيلا اذا استمر المعدل الحالي للنمو السكاني » كما قال مندوب تونس .

**وبين البلاد العربية تبنت كل من مصر وتونس والمغرب سياسات تهدف للحد من التزايد السكاني،** فقد اصدرت الحكومة التونسية مثلا عددا من التشريعات في هذا الاتجاه ، مثل رفع سن الزواج وتحديد المعونات العائلية لمن لديهم اكثر من ثلاثة ابناء ، واباحة عمليات الاجهاض .

وهكذا نرى ان القضية تتعدد فيها الاتجاهات بحيث لا يكاد يعرف عن يقين اى سبيل هو الصحيح ، ويعتمد اكثر الخبراء اراءنا في الوقت الحاضر الى الاكتفاء باطلاق صيحات التنبيه والدعوة الى العمل على اكتشاف الحلول ، كما فعل مدير عام **اليونسكو** في تقريره عام ١٩٦٩ الذي اسلفنا الاشارة اليه عندما قال « **المهم ان يعرف المجتمع البشري الآن انه سائر في عملية تحول سكاني وتقني وفكري وخلقي على نطاق لم يسبق له مثيل ، وان تغيير التعليم جذريا يقع في صميم هذه العملية . وحل مشكلة التعليم ... عامل مؤثر في درجة الوضوح والتمكن من فهم الانسانية لهذا التحول والسيطرة عليه ، ومن ثم فعليه تتوقف الى حد ما طبيعة هذا التحول » ، او كما فعل سكرتير عام هيئة الامم المتحدة في خطاب اعلانه لعام ١٩٧٤ « عام السكان العالمي » قائلا « يولد كل سنة ١٢٧ مليون طفل ، ويبلغ سن الدراسة ٩٥ مليون فرد ، ويصل ١٩ مليون الى سن الخامسة والستين ،**

**وينتظر ان يرتفع هذا المعدل في المستقبل .. ان كل امة وكل مجتمع وكل اسرة يجب ان تقيم بأناة مدى تأثير هذه الاتجاهات في امالها في الحياة الافضل وفي التربية الارفع وفي الصحة الاحسن وفي السعادة » .** (٢٨)

ان هذه التصريحات الرصينة تلم باطراف القضية كلها تقريبا وتدعو الى العمل الجاد على حلها ، لكن بعض البلاد المكتظة فعلا بالسكان مثل مصر لا تستطيع ان تحلها بمفردها حلا جذريا يستأصل المشكلة من منابعها ، كما انها لا تستطيع ان تنتظر حتى يتكتل الجنس البشري ويسخر قدراته العظيمة في الوصول الى جوهر هذا التحول والسيطرة عليه ، وليس امامها الا ان تلجأ الى بعض الحلول الجزئية المطروحة لتخفيف الضغط والحصول على متنفس مؤقت : فترة من الوقت تمكنها من التقاط انفاسها وتتيح لها المشاركة في ايجاد الحل .

وليس لهذا السبب وحده تلجأ بعض مثل هذه البلاد الى الدعوة لتحديد النسل وتنظيم الاسرة ، فللامر جانب آخر مهم جدا بالنسبة لها . فتنظيم الاسرة له هدف اخر ينصب على رفع مستوى « الاسرة » ـ وهي الوحدة البشرية الاساسية ـ وعلى تأكيد كرامة المرأة والطفل بمنح المرأة فرصة حرمت منها طويلا ومنح الطفل نصيبا اكبر من الرعاية الضرورية لنمو الكائن البشري في المراحل الاولى من نموه .

فالى عهد قريب جدا كانت المرأة في معظم المجتمعات التقليدية ينظر اليها على ان مهمتها الوحيدة في الحياة هي الانجاب وتربية الاطفال والاعمال المنزلية الاخرى ، وان الرجل هو المسئول عن النشاط الخارجي الذي يوفر للاسرة الدخل الذي يعيش به . ولكن الملاحظ الان في جميع بلاد العالم تقريبا ان عدد النساء اللاتي يعملن في الانشطة الاقتصادية المختلفة خارج المنزل يتزايد ، بحيث بدأت الفوارق بين الجنسين في هذا المجال تزول شيئا فشيئا . وكان من آثار ذلك ان بدأ الاتجاه الى تعليم الفتيات لاعدادهن للقيام باعمال افضل تدر عائدا اقتصاديا اوفر ـ وليس لاعدادهن لحياة افضل واسعد في مجتمعاتهن . وقد آن الاوان لتغيير هذا الاتجاه والاهتمام بالمرأة لذاتها ، ولعل الجهود المبذولة في بعض البلاد لتنظيم الاسرة تكون بداية خطوة سليمة في هذا الاتجاه .

كما انه من الملاحظ ان اطفال الاسر الصغيرة العدد يتمتعون عادة بصحة افضل ومستوى اقتصادي وثقافي ارفع ، ومن هنا ايضا كان تنظيم الاسرة هدفا ضروريا اذا اردنا لابنائنا حياة اسعد .

ولكن ما الحل في القضية الرئيسية التي يدور حولها البحث ، قضية تزايد السكان بهذه الصورة المذهلة ؟

ان القضية من الخطورة بحيث تتطلب منا وقفة قصيرة من التأمل نحاول فيها البحث عن الطريق المؤدي الى حل . فالعالم يمر الآن فعلا بمرحلة من التغير السريع الذي كادت ابعاده تفلت من مقدرة البشر على الاستيعاب والمحاولات التي يبذلها خبراء التربية ، والخبراء الاخرون في

---

**(٢٨) The Unesco Courier مايو ١٩٧٤ . وهو عدد خاص اصدرته المنظمة بمناسبة « عام السكان العالمي » بعنوان « وغدا كم سيكون عددنا » .**

مختلف الميادين الاجتماعية والتقنية للحاق بالتغير السريع ، ومحاولة التنبؤ بخط سيره في كل من هذه الميادين لم تحقق حتى الان النجاح الذي يتوقعه اولئك الذين يحسنون الظن بالتقدم الذي بلغه الانسان في العصر الحديث .

ولسنا هنا بمعرض البحث عن حل شامل للقضية بجميع جوانبها العديدة ، وكل ما نطمع فيه هو اثارة بعض النقاط التي قد تفيد في تحديد الطريق الذي يمكن ان نسير فيه سعيا وراء حل للجانب التربوي منها .

ولكن برغم ان التربية ، كما يقول تقرير « لجنة فور » ، عالم قائم بذاته ، فانها في الوقت ذاته انعكاس للعالم كله . انها جزء من المجتمع تعمل على تحقيق اهدافه وتنمية موارده ، ولكنها ايضا تؤثر فيه ربما اكثر من اي عامل مفرد اخر .

**فما هي حقيقة المشكلة التي تواجه التربية الان ؟**

ان المشكلة الحقيقية في اعتقادنا هي ان الانماط التربوية التقليدية التي حددنا انفسنا داخل اطارها في البحث من الحلول هي في الواقع انماط قامت اصلا لفائدة قلة في عالم يعيش فيه الكثيرون ، مثلها في ذلك مثل الانماط الاقتصادية والاجتماعية التقليدية الاخرى . وعندما بدات القيم التي تعتمد عليها هذه الانماط تنهار فوجئنا بان هؤلاء « الكثيرين » يريدون ايضا ، ومن حقهم ، ان يحصلوا على ما كان متاحا للقلة فقط . وعندما عجزنا عن ايجاد الحلول على أساس الانماط التقليدية تهيجنا واتجهنا الى تحطيم ما هو قائم دون تفكير جدي في البديل . لقد حطمنا الاسس التربوية القائمة وهبطنا بمستواها الى الحضيض تقريبا واكتفينا بان نلقي التبعة على مشكلة « الكم والكيف » لاننا عجزنا عن ايجاد الحلول — وكان من الطبيعي ان نعجز مادمنا قد كبلنا انفسنا مقدما باسس ونظم واساليب تربوية لم تعد صالحة اصلا لمواكبة التغييرات الكبرى التي يمر بها الجنس البشري الان . ان التغيير المطلوب صعب ، ومحاولة القيام به على الاسس التقليدية مستحيل .



**ومن المعروف ان تغيير النظام التربوي في مجتمع ما حتى يتكيف مع الظروف المتغيرة امر عسير ، لان النظم التربوية تملك على حد قول البعض ، قوة دفع ذاتية تدفعها الى المحافظة على ذاتها والى مقاومة التغيير** . ولكننا لا نتحدث هنا عن صعوبة تغيير النظام التربوي في مجتمع ما ، بل نتحدث عن الصرح التربوي القائم باكمله ، نتحدث عن « وجهة نظر » الجنس البشري في طريقة حياته باكملها ، وعن تغيير اسس الحضارة الغربية التي سادت العالم المعاصر باكملها .

اننا نتحدث عن ثورة يجب ان تقوم داخل عالم التربية حتى تواكب التغيير الثوري الذي يمر به العالم وتمهد السبيل لوجهة نظر جديدة تجعلنا في وضع افضل لحل المشاكل الكبرى التي نواجهها . ان ربط التخطيط التربوي « بالعمالة » مثلا قد اصبح الشعار المفضل في معظم البلاد النامية ، وبعض البلاد المتقدمة ، برغم اننا جميعا نعرف عن يقين ان التعليم عندما يوضع في خدمة التنمية الاقتصادية يؤدي الى التركيز على تنمية احدى قدرات المتعلم على حساب قدراته الاخرى ويخلق منه كائنا ذا جانب واحد . فهل فكرنا في ربط « العمالة » بميول الناس وقدراتهم بدلا من اخضاع هذه القدرات والميول للعمالة ؟

ان تقرير لجنة فور الذى اشرنا اليه يعتبر **من السمات** التى تتميز بها التربية فى العصر الحديث ان نموها يجنح الان على نطاق العالم ، ولاول مرة فى تاريخ البشرية ، الى ان يسبق التنمية الاقتصادية ، بعد ان كانت التربية تتبع باستمرار النمو الاقتصادى . ويؤكد ان الدول السابقة فى هذا المضمار بنجاح هى اليابان والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية !! .

ان هذا ، فى رأينا ، لم يحدث من قريب أو بعيد ، وكل ما حدث هو ان التربية كانت تتبع النمو الاقتصادى فى ظل مبدأ اقتصادى واجتماعى معين ، وهو مبدأ حرية التعامل laissez Faire ، وصار ذات الشىء يحدث الان فى ظل مبدأ اقتصادى واجتماعى آخر هو « التخطيط » .

لم يحدد التقرير المذكور **سمة اخرى** من سمات التربية فى العصر الحديث ، وهى ان التربية تعمل الان ، ولاول مرة فى التاريخ ايضا ، على اعداد الناس لنوع من المجتمعات لم توجد بعد . ويشير الى ان هذا الاتجاه يبدو بوضوح فى البلاد التى تسعى نحو اقامة مجتمعات تختلف جذريا عن حاضرها فى اعقاب تغييرات عميقة حدثت فى نوعية قيادتها الاجتماعية او السياسية . ولا شك ان ذلك صحيح الى حد بعيد جدا ، فاحدى سمات العصر الحديث كله ان « تتصور » طلائع المجتمعات تنظيما جديدا تراه افضل لمجتمعاتهم ويقنعون شعوبهم باستخدام ارادتها فى خلق المجتمعات التى تصوروها ، ويعملون بكل الوسائل الدعائية ، ومنها التربية ، لتحقيق هذا الهدف . ولكن هذه المجتمعات التى « لم توجد بعد » تقوم فى الحقيقة على الاسس والانماط القديمة برغم كل ما يحيطها من بريق ، وليست دور التربية فى هذا كله سوى « اداة » او « مثلث القط » ، فليس لها أى دور ايجابى حقيقى فى اعداد الناس لان يتصوروا بانفسهم نوع المجتمعات التى تلائم قيمهم الجديدة قبل أن تعدهم للعيش فيها .

**والسمة الثالثة** التى يتحدث عنها التقرير هى التناقض الذى بدا يظهر بين انتاج المؤسسات التعليمية وحاجات المجتمعات التى تعمل فيها هذه المؤسسات ؛ وهذا ايضا صحيح ، والسبب الرئيسى فيه يؤيد وجهة النظر التى نحاول عرضها هنا . انه يرجع فى جوهره الى التغيير الجذرى فى القيم ، التى اصبحت ترى أن من حق الكثيرين « ان يحصلوا على الخير ، والثبات العنيد للانماط التقليدية ، التى قامت فى خدمة القلة .

• • •

وما دمنا بصدد الحديث من محاولة التخلص من الانماط ذاتها باعتبارها قيدا على حركتنا يجعلنا عاجزين تماما عن اكتشاف الحلول الجذرية الشاملة لمشاكلنا الكبرى ، فان الفرصة مواتية للتحدث عن فكرة « التقدم » فى البلاد النامية والانماط التى صيغ فيها .

ان مفهوم التقدم بمعنى « اللحاق » بالمجتمعات الاكثر تقدما ينطوى بوضوح على أن البلاد النامية يجب ان تسير فى ذات الطريق الذى سارت فيه البلاد الاخرى وأن « تتقولب » فى الانماط السائدة فيها .

ومن وجهة النظر التى نعرضها يعتبر مفهوم التقدم بهذا المعنى قيدا على البلاد النامية ويضعها فيما يشبه « قميص المجانين » الذى يصنع خصيصا ليشل حركتهم حتى يمنعهم من الايذاء .

ولكن لحسن الطالع بدات بوادر التغيير فى هذا الاتجاه تبدو هنا وهناك ؛ اذ برغم ان « النموذج الغربي » ظل هدفا رئيسيا من اهداف التنمية والتقدم بالنسبة للبلاد النامية ، فانه قد اخذ الآن يفقد بعض بريقه لديها . فقد بدات بعض المجتمعات النامية تفكر فى تطوير نظم اجتماعية وسياسية خاصة بها . « نابعة من ترابها » ، وان كانت المحاولات التى قامت فى هذا الاتجاه لم تحقق نجاحا لانها لم تستطع ان تتخلص من الانماط الاجتماعية والسياسية التقليدية فى بلورة افكارها . ولكن البذرة وجدت ، وستنمو اذا هيئت لهـا الظروف المواتية .

لقد آن الاوان لان يتخذ التقدم فى البلاد النامية من البلاد المتقدمة نماذج لا ليحتذى بها ولكن ليتجاوزها بهدف خلق حضارة اكثر تلاؤما مع القيم الجديدة التى تمخض عنها تطور الوعى البشرى .

ان المشكلة التى يواجهها الجنس البشرى الآن جديدة تماما ، ومن ثم فهي تحتاج الى حلول جديدة قد يكون بعضها بمثابة قفزة فى الظلام . الا اننا نستطيع ان نقلل من مخاطرها الى الحد الادنى اذا نحن وفرنا لها ماهي جديرة به من جهود وامكانيات مادية وتقنية ومهارات بشرية متاحة .

ومن الطبيعي ان تعجز البلاد النامية عن القيام بهذه المهمة وحدها فى وقت مناسب ، ولكن هل المشكلة هي مشكلة البلاد النامية وحدها ؟



يبدو ان هذا هو التصور الغالب فى كثير من دوائر الغرب . فعلماء البلاد المتقدمة ومفكروها قد اكتفوا حتى الآن بتقديم النصائح الجاهزة التى لا تستند الى دراسة جادة او بحث علمي عظيم . ونظرة واحدة الى مجموع ما ينفق فى انشطة البحوث فيها تدل على ان ما نقوله لا يمكن الا ان يكون صحيحا . (٢٩)

**ان المشكلة ليست بالقطع مشكلة البلاد النامية وحدها ، بل ان ظواهرها فى البلاد المتقدمة تكاد تكون اكثر شيوعا .** وفى ميدان التربية وحده تكفي مظاهرات التمرد والقلق التى ظهرت بين الطلبة فى اكثر بلاد العالم تقدما فى السنوات الاخيرة للدلالة على مدى حاجة الانظمة التربوية فيها الى تغيير . فالحاجة الملحة الى القيام بثورة فى المفاهيم التربوية ليست مقتصرة على بعض البلاد فى العالم دون البعض الآخر . انها ظاهرة عامة نجمت عن سرعة نمو الوعي البشرى وعدم ملاحقة التغييرات الاجتماعية والفنية والاقتصادية لهذا النمو بسرعة كافية ، وهي تقض مضاجع التربويين فى جميع انحاء العالم .

---

(٢٩) يقدر ان ٩٨٪ من مجموع انشطة البحوث والتنمية التى تجرى فى العالم ( خارج البلاد الاشتراكية ) تضطلع بها امم متقدمة وتخصص منها حوالي نصفها لشئون الدفاع والفضاء والطاقة الذرية ، كما ينصب ٢٦٪ منها على البحوث الصناعية المرتبطة بالاستهلاك و ٢٢٪ للبحوث الاساسية ، ولا يبقى سوى ١٪ تقريبا للبحوث التي يفترض انها تهم العالم الثالث .

وحتى اذا كانت هناك مشاكل تمس البلادالنامية أكثر من غيرها ، هل يعني ذلك ان تظل البلاد النامية بلادا نامية وتظل البلاد المتقدمة بلادامتقدمة ؟

ان انقسام العالم الى دول متقدمة واخرى‌نامية ، فضلا عن انه ليس الصورة المثلى للعالم فى الوعي البشرى الجديد ، يعرقل جهود الجنس‌البشرى ككل فى الاستفادة من قدراته العظيمة ، ولن نرى بشائر الفجر الجديد الا عندما نتكاتف‌جميعا على تحقيق الوحدة لعالم متناسق نعيش فيه فى سلام .



* * *

علي السلمي *

# المدخل الإداري لعلاج المشكلة السكانية بالدول النامية



تحتل المشكلة السكانية اهتماما بالغا لدى الاقتصاديين والسياسيين ورجال علم الاجتماع وغيرهم من المشتغلين بقضايا التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وقد اسهمت فروع مختلفة من المعرفة الانسانية في محاولات تحليل تلك المشكلة وتحديد مظاهرها ومسبباتها . كما شاركت جميعا وبدرجات متباينة في تقديم مقترحات علاجها والتخفيف من آثارها .

وبرغم انقضاء السنوات الطويلة منذ الكشف عن خطورة المشكلة السكانية واحتمالاتها المدمرة للرفاهية الانسانية عموما ، وبرغم الحصيلة العلمية الوافرة من الدراسات والنظريات التي تحاول سبر غورها والتماس الحلول لها ، فما زال التقدم نحو الحل الحاسم لتلك المشكلة العالمية يسير وئيدا . والاحساس بتفاقمها واحتمال خروجها من السيطرة يهدد الاستقرار الاقتصادى والاجتماعى لكثير من شعوب العالم .

* الدكتور علي السلمي استاذ ادارة الاعمال المساعد بكلية التجارة بجامعة القاهرة ، والمعار للتدريس بكلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة الكويت . له العديد من المؤلفات والبحوث . ومن اهم مؤلفاته : الادارة العلمية والسلوك الانساني في الادارة .

وفى بحثنا هذا سنحاول تحليل العلاقة الحقيقية بين المشكلة السكانية وبين عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، واستعراض المداخل التقليدية لعلاج مشكلة تزايد اعداد السكان ، ثم نطرح مدخلا جديدا يناقض كثيرا من تلك المداخل السابقة ، ويقدم اطارا متكاملا للتعامل مع السكان باعتبارهم عنصرا فعالا فى احداث النمو الاقتصادى والاجتماعي ، ويبعد الفكرة الشائعة من ان الكيان السكاني للمجتمع يمثل عبئا اقتصاديا يجب التخلص منه او تقليصه .

ويعتمد مدخلنا فى دراسة وتحليل المشكلة السكانية على مفاهيم ونظريات علم الادارة (١) باعتباره العلم المختص بدراسة طرق تحليل المشكلات واتخاذ القرارات ، واعداد الخطط الهادفة الى تامين العلاج الامثل للمشكلة ، وصولا الى تحقيق نتائج وغايات ينشدها المجتمع او بعض فئاته ، وذلك فى حدود ما هو متاح من موارد وامكانات ، وفى اطار الظروف والاوضاع السائدة وما قد تفرضه من قيود على حرية الحركة والتصرف .

وعليه فان بحثنا يتعامل مع المتغيرات الآتية :

ـ المشكلة السكانية .

ـ التنمية الاقتصادية .

ـ التنمية الاجتماعية .

كذلك يحاول البحث اختبار بعض الفروض الاساسية وهي :

ـ ان تزايد عدد السكان المستمر هو العامل الاساسي فى احداث التخلف الاقتصادى والاجتماعي .

ـ ان الزيادة المضطردة فى اعداد السكان تعوق جهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

ـ ان السبيل الامثل للدولة النامية لكي تحقق النمو الاقتصادى والاجتماعي يتحدد فى ضبط الزيادة السكانية ووضع قيود على اعداد السكان .

ـ ان انخفاض عدد السكان فى الدولة النامية يؤدى الى الاسراع بمعدلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وسوف نعمد الى تحليل هذه الفروض واختبارها معتمدين على اسلوب التحليل المنطقي ، الذى يستند الى الاسس والمفاهيم النظرية . ولابدلنا اذن من ان نحدد اولا الاطار الفلسفي الذى يدور هذا البحث فى نطاقه .

---

١ ـ يمثل علم الادارة المعاصر حصيلة متكاملة من المبادىء والمفاهيم والمعارف مستمدة من التحليل النظرى والتجريبي للمشكلات الانتاجية ، والتي تتفاعل مع كثير من العلوم الاجتماعية والرياضية فى تكوين اطار فكرى شامل .

## الاطار الفلسفى للبحث

ينطلق هذا البحث من ركيزة فلسفية مؤداها ان التنمية الاقتصادية والاجتماعية هي عملية حركية Dynamic ومستمرة ، تحتاج الى حشدكل الموارد والامكانات المتاحة من ناحية ، كما تحتاج الى التخطيط والتنظيم العلميين من ناحيةاخرى . ومن ثم فان احداث التنمية الاقتصادية والاجتماعية انما يتوقف بالدرجة الاولى علىامرين : **الاول** هو انواع وكميات الموارد والطاقات المتاحة للاستغلال فى المشروعاتالانمائية ، **والثانى** هو اسلوب وكفاءة ادارة عمليات الانماء (٢) .

وانطلاقا من هذا المفهوم نصل الى الاسسالمبدائية الاتية :

١ ـ ان السكان هم عنصرق احداث التنميةالاقتصادية والاجتماعية فى اى مجتمع .

٢ ـ ان عدد السكان ليس هو البعدالوحيد للاسهام فى التنمية ، بل ان نوعيات هؤلاء السكانوخصائصهم تمثلبعدا اخطر واهمفىعمليات التنمية .

٣ ـ ان التنمية الاقتصادية والاجتماعيةلا تعتمد فقط على الطاقات المتاحة فعلا ، بل ترتكز الى حد كبير على ما يمكن الكشف عنه منطاقات وما يظهر من موارد محتملة .

٤ ـ ان القدرة على الاستفادة القصوى منالطاقات والموارد المتاحة والمحتملة هي العنصر المتحكم فى تحديد معدل النمو الاقتصادىوالاجتماعى ، وان هذه القدرة ترتهن بالسكان دون غيرهم من عناصر وموارد الانماء .

وحيث نصل بتفكيرنا الى هذه المرحلة ،فان المنطق يقودنا الى استنتاج رئيسي يحكم التحليل الوارد في هذا البحث تماما ، وهو انكفاءة الادارة وفعاليتها فى المجتمع تمثل العامل الحاسم فى تقرير مصير جهود التنمية الاقتصاديةوالاجتماعية .

## المشكلة السكانية :

تختلف الاساليب المستخدمة فى التعبير عمايسمى بالمشكلة السكانية وذلك بحسب الخلفية العلمية والاهتمام الخاص بمن يقوم بالتعبير .**فالتعبير الاقتصادى عن المشكلة السكانية** يتبلور عادة فى انها الزيادة المستمرة فى اعداد السكانبمعدلات تفوق معدلات انتاج السلع والخدمات اللازمة لاشباع احتياجاتهم ، الامر الذى ينعكسفى انخفاض نسبي للدخل القومي ، وتقلص نصيب الفرد من هذا الدخل ، ومن ثم ينحدر مستوىالمعيشة ويتهدد المستوى العام للرفاهية الاقتصاديةفى المجتمع. ويستخدم تعبير « الانفجارالسكاني » عادة للدلالة على الزيادة الصافية المتعالية فى اعداد السكان بالقياس الى احجامالسلع والمنتجات ، خاصة الغذائية منها .

---

٢ ـ يتفق معظم كتاب الادارة الآن على ان مشكلة التنميةالاقتصادية والاجتماعية هي فى الاساس مشكلة ادارية ، ومن ثم يركزون على اهمية ما يسمى « ادارة التنمية » Development Administration

**ومن ناحية ثانية نجد علماء الاجتماع** ينظرون الى المشكلة السكانية من زاوية آثارها الاجتماعية من حيث التغير المترتب عليها في الهيكل الاجتماعي ، واختلاف الاهمية العددية للطبقات الاجتماعية المختلفة . وهم يركزون على المشكلات الاجتماعية الناجمة عن الزيادة السكانية، ومنها مشكلات انحراف الشباب وانتشار الجرائم ، والتحولات الاخلاقية في المعتقدات والقيم الناشئة عن الفقر وانخفاض مستوى المعيشة . كذلك يهتم علماء الاجتماع في تحليلهم للمشكلة السكانية بآثارها على الحركة الاجتماعية Social Mobility وعلى حركات الهجرة سواء الداخلية او الخارجية . وهم يخلصون في النهاية الى استنتاجات تشير بشكل او آخر الى الاخطار المصاحبة لزيادة اعداد السكان ، ومن ثم فهم يباركون الحلول القائمة على منطق ضبط الزيادة السكانية بشكل عام .

وعلى النقيض من اسلوب علم الاقتصاد ومنهج علم الاجتماع ، فان **علم الادارة** ينظر الى المشكلة السكانية نظرة شمولية متكاملة ، ويأخذ بعين الاعتبار ابعادها المختلفة ، وذلك وفقا لمنطق ان السكان هم احد عناصر المجتمع ، وبالتالي فهم يمثلون نظاما فرعيا Sub-System ضمن نظام اكبر Total-System (٢) هو التكوين الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والحضاري للمجتمع .

وبالتالي فان المشكلة السكانية في التصور الاداري هي عدم القدرة **على استغلال الطاقات والموارد البشرية المتاحة والقدرات والمهارات الانسانية التي يملكها المجتمع بدرجة تحقق الاهداف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لهذا المجتمع** . ومن ثم فان المنطق الاداري يرفض اعتبار زيادة السكان في حد ذاتها مشكلة ، كذلك فان هذا المنطق لا يعتبر ان تحقيق خفض في عدد السكان سوف يؤدي بالضرورة الى تحسين الاوضاع الاقتصادية او المعيشية للناس في مجتمع معين .

**ان المشكلة السكانية الحقيقية في التحليل الاداري هي** توفر طاقات بشرية لا تسهم في انتاج السلع او الخدمات التي يحتاجها المجتمع ، او تسهم ولكن بقدر اقل مما تسمح به امكاناتها الفعلية . ومن ثم فانه طبقا للتحليل الاداري نحن نعادل بين المشكلة السكانية وبين انخفاض كفاءة استخدام العنصر البشري في الانشطة الانتاجية للمجتمع . وعلى ذلك فان القضية الاساسية في موضوع السكان يمكن ان تتبلور في الابعاد الآتية :

١ ـ ان عدد السكان في اي مجتمع هو محصلة لتفاعل عديد من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية (٤) .

---

٢ ـ نحن نشير بذلك الى مفهوم النظم The systems Concept والذي يسود الفكر الاداري الحديث . ويقصد بالنظام ذلك الهيكل او التكوين الكلي الذي يتركب من اجزاء او نظم فرعية تقوم بينها علاقات تفاعل واعتماد متبادل بحيث ان السلوك النهائي او الموقف العام للنظام الاكبر يكون محصلة لتفاعل الاجزاء المكونة له .

٤ ـ يقسم بعض المختصين هذه العوامل الى درجات من حيث مدى تأثيرها في حجم السكان الى طويلة الاجل ، متوسطة الاجل ، وعارضة ، انظر

IAN, Bowen, Population, Cambridge University Press, 1966., p. 11.

٢ ــ ان المحتوى الحقيقي لتلك العوامل المؤثرة في عدد السكان ينحصر فى النظام الادارى Administrative System السائد فى المجتمع، ودرجة الكفاءة في ادارة عمليات الانماء الاقتصادى والاجتماعى ، ومن ثم الكفاءة فى استخدام طاقات السكان المتاحة .

٣ ــ ان تركيب السكان من حيث درجات المهارة والمعرفة والقدرة على الانجاز يفوق فى اهميته عدد السكان من حيث الارتباط بالنشاط الاقتصادى والانتاجي للمجتمع ، كذلك فان هذا التركيب السكاني هو فى حد ذاته نتاج للنظام الادارى السائد ، ودرجة تطوره وكفاءته فى اعداد وتاهيل السكان لمباشرة الاعمال الانتاجية بكفاءة .

من التحليل السابق نخلص الى حقيقة هامة هي ان المشكلة السكانية كما حددنا هي نتيجة مباشرة لمستوى الكفاءة الادارية السائدة فى المجتمع ، ومن ناحية اخرى فان هذه المشكلة بذاتها تعود مرة اخرى لتسهم فى خفض مستوى الكفاءة الادارية بالمجتمع ، وهكذا تدور العلاقة في حلقة جهنمية تبدى للناظرين فى مظاهر اقتصادية واجتماعية مضللة تبعدهم من التصور الصحيح للمشكلة .

ان قصور وتخلف النظام الادارى فى المجتمع، وانخفاض مستوى الكفاءة الادارية به ينعكس على شتى مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية . وتتضح مظاهر انخفاض الكفاءة الادارية بالدرجة الاولى فى :

١ ــ عدم الدقة فى تحديد الاهداف الاقتصادية والاجتماعية ، ومن ثم توجيه الموارد والطاقات المختلفة نحو مشروعات ومجالات التشغيل ليست هى الافضل او الامثل ، وبالتالي يتدنى العائد منها وتتحقق خسائر صافية للمجتمع فى صورة ضياع فرص افضل للاستثمار .

٢ ــ عدم الدقة فى التخطيط ( او عدم الاتجاه الى اساوب التخطيط اصلا ) بما يؤدى اليه ذلك من سوء التوقيت وتضارب الانشطة وتداخل الجهود بشكل يقلل من الانتاجية الكلية ، ويحول بين عناصر الانتاج وبين ان تصل بكفاءتها الى الحد الامثل . كذلك فان سوء التخطيط يتجلى فى ضعف التنسيق بين مجالات الاستخدام المختلفة ، الامر الذى يترتب عليه وفرة فى المتاح لبعض المجالات اكثر من حاجتها ، وندرة في المتاح لمجالات اخرى بما يقل عن حاجتها ، والمحصلة النهائية لكل تلك المظاهر هي قصور الناتج الكلي عن الوفاء بالاحتياجات التي يتطلبها المجتمع .

٣ ــ عدم الدقة فى التنظيم والتنسيق ، وتداخل الاختصاصات وتضارب السلطات وتناقضها ، وخلق تنظيمات واجهزة تستغرق كميات هائلة من موارد المجتمع دون ان تسهم بالناتج يتعادل وتلك الموارد . ان بطء الاجراءات وتعقد اساليب العمل ، وتجمد القواعد والسياسات كلها مظاهر متكررة وشائعة للتخلف الادارى ، بما يترتب عليه من تواضع الانجازات وارتفاع تكلفتها الحقيقية بالنسبة للمجتمع .

٤ ــ غياب الرقابة الموضوعية والمتابعة المستمرة لاوجه النشاط المختلفة ، بما يسمح بوقوع الاخطاء والانحرافات واستمرارها ، وتفاقم آثارها السالبة على الجهاز الاقتصادى والكيان الاجتماعي .

ان الدعوى الاساسية التي نطرحها في هذاالجزء من البحثهي **ان التخلف الاداري في المجتمع هو السبب المباشر للمشكلة السكانية ، وبالتالي للمظاهر الاقتصادية والاجتماعية المترتبة عليها . كذلك فان هذه المشكلةومظاهرها تعود مرة اخرى لتدعم وتكرس التخلف الادارى لتزداد المشكلات حدة وتتعقد مظاهرها وتتداخل بما يباعد بينهاوبين الحل السليم .**

ان هذه العلاقة المتبادلة بين المشكلة الاداريةوبين المشكلة السكانية هي في تصورنا لب المشكلة الحقيقية التي تعاني منها الدول النامية . ولنا ان نستدل على سلامة هذا الاستنتاج من الدلائل التالية :

١ ـ ان الدول النامية سواء في افريقيا اوآسيا او امريكا اللاتينية تعاني جميعا من التخلف الادارى بدرجات شديدة . وانها جميعا تتسم بسيطرة التنظيمات البيروقراطية التقليدية على النظم الاقتصادية فيها .

٢ ـ ان الدول النامية تتسم بصفة اساسيةوهي الارتفاع النسبي في اعداد السكان بها . ان معظم هذه الدول تعاني مما اصطلح الاقتصاديون على وصفة بالانفجار السكاني .

٣ ـ ان معظم هذه الدول النامية تعاني من ارتفاع مستمر في معدلات المواليد ومعدلات الزيادة الصافية سنويا في اعداد السكان .

٤ ـ كذلك تتسم هذه الدول بتخلف التركيب النوعي للسكان كالاتي :

ا ـ ارتفاع نسب الاطفال والشيوخ بين السكان .

ب ـ ارتفاع نسب النساء غير المشتغلات .

جـ ـ انخفاض نسبة القوى العاملة الى اجمالي السكان .

د ـ انخفاض نسبة القوى العاملة المنتجة الى القوة العاملة الاجمالية .

هـ ـ ارتفاع نسبة العاملين في اعمال الخدمات والمهن غير المنتجة ( كالباعة الجائلين ، والخدم ، والاعمال المعاونة في الهيئات والمؤسسات والشركات ) .

و ـ ارتفاع نسبة العاملين باجهزة الادارةالحكومية البيروقراطية بالقياس الى المشتغلين بالمهن الصناعية والانتاجية .

ز ـ تخلف التركيب المهني للقوة العاملةوشيوع العمل بالمهن اليدوية والتي لا تتطلب قدرا عاليا من المهارة .

ح ـ انخفاض المستوى التعليمي العام للسكان وشيوع الامية بين افراد القوى العاملة .

ط ـ انخفاض المستوى الصحي العام وشيوع الامراض بين افراد القوى العاملة .

ى ـ انخفاض المستوى العام للانتاجية بين افراد القوى العاملة .

فاذا اضفنا الى الدلائل السابقة دليلا آخرهو ان معظم الدول النامية تشتغل اساسا بانواع النشاط الاقتصادى الاقل انتاجية كالزراعة اوالتعدين ، وحتى تلك الدول التي تتمتع بثروات خاصة كالنفط او بعض الحاصلات الزراعية الهامة كالقطن والحبوب مثلا ، الا اننا نجدها غير قادرة على استثمار تلك الثروات بالاتجاه الى تصنيعها وتحقيق العائد الأمثل منها . بالعكس فالشاهد ان هذه الدول تعمد اساسا الى تصدير هذه الثروات الى الدول المتقدمة اقتصاديا في صورتها الخام لتستبدلها بالسلع الاستهلاكية فى المقام الاول .

كذلك يلاحظ ان هذه الدول النامية والتي تعاني من الزيادة فى اعداد سكانها لم تحاول الافادة من الوضع السكاني للدول المتقدمة التي تفتقر الى اليد العاملة ، ولم تلجا الى استثمار طاقتها البشرية الهائلة كمصدر للدخل القومي من خلال التهجير الى تلك الدول الغنية على نطاق واسع منتظم .

نخلص من كل ما سبق الى ان المشكلة السكانية ليست هي زيادة اعداد السكان بل هي فى الاساس عدم قدرة الجهاز الادارى فى المجتمع على استثمار طاقات هؤلاء السكان ، وتحويلها الى انتاج نافع له قيمة . ومن ثم فالمشكلة ادارية وليست ديموجرافية او اقتصادية .

واستكمالا للتحليل فاننا نتوجه الان الى دراسة المتغير الثانى فى بحثنا وهو التنمية الاقتصادية لكي نستدل على مدى ارتباطه بالمشكلة السكانية ، ولنتاكد من سلامة ما توصلنا اليه من استنتاجات تتعلق بتلك المشكلة .



**التنمية الاقتصادية :**

تمثل التنمية الاقتصادية احدى العلامات البارزة فى التاريخ الحديث لكثير من بلدان العالم ، وهي التحدى الرئيسي الذى يواجه شعوبا متعددة في عالمنا المعاصر . وقد اختلفت الاراء حول ماهية التنمية الاقتصادية ، كذلك اختلفت المداخل الهادفة الى احداثها ، وتتركز اهداف التنمية الاقتصادية عادة فى القضاء على مظاهر التخلف الاقتصادى والتي تبدو فيما يلي :

١ ـ انخفاض مستوى الدخل الفردى ومايترتب على ذلك من سوء التغذية ، وانتشار الامراض وارتفاع نسبة الامية وتدهور حالة الاسكان للغالبية من افراد المجتمع .

٢ ـ انشغال الغالبية من السكان باشغال النشاط قليل الانتاجية ، خاصة في الزراعة والخدمات وانتشار ظاهرة البطالة المقنعة ، حيث يزيد عدد العاملين دائما عن الاحتياجات الحقيقية للعمل .

٣ ـ ازدياد الميل الى الاستهلاك مع ضعف مستويات الادخار والاستثمار .

٤ ـ انخفاض المستوى العام للانتاجية فى المشروعات وارتفاع التكلفة النسبية للانتاج .

ولقد كانت مظاهر التخلف الاقتصادى محل اهتمام ودراسة الاقتصاديين لفترات طويلة ، كما

## التصور الادارى للتنمية الاقتصادية :

ان الفارق الاساسي بين التصور الادارى للتنمية الاقتصادية وبين التصورات الاقتصادية لها يمكن ان يتضح من النقاط الآتية :

١ ـ ان المداخل الاقتصادية تركز على واحد او اكثر من عوامل الانتاج باعتباره المحرك الاساسي للتنمية ، بينما التصور الادارى ينظر الى التنمية باعتبارها عملية متكاملة وشاملة تعتمد على تفاعل مجموعة العوامل الانتاجية وغيرها من المحددات الاجتماعية والانسانية لانتاج معدلات معينة من الانماء الاقتصادى .

٢ ـ ان المداخل الاقتصادية تعتبر التنمية مشكلة مستقلة الى حد ما عن خصائص وصفات المجتمع الانسانية وتقاليده وعاداته الحضارية ، بينما المدخل الادارى لا يفصل بين محاولات الانماء الاقتصادى وبين التكوين الاجتماعي والحضارى .

٣ ـ أن دور السكان والزيادة السكانية غير متفق عليه في المداخل الاقتصادية للتنمية ، اذ تعتبره بعض النظريات عاملا معوقا لجهود التنمية ومبددا لآثارها ، بينما تميل نظريات اخرى الى اعتبار أن السكان والزيادة في اعدادهم من العوامل المساعدة على احداث التنمية .

٤ ـ ان المداخل الاقتصادية عموما تميل الى تصوير التنمية الاقتصادية باعتبارها تغيرا مفروضا على المجتمع من الخارج ، اى بفعل قوى ومؤثرات خارجية يتم ادماجها في الكيان الاقتصادى للمجتمع من خلال احداث زيادات في التكوين الراسمالي ، او استيراد اشكال من رأس المال او التطوير التكنولوجي . اما المدخل الادارى للتنمية فانه يعتبرها تغيرا ذاتيا ينبع من داخل الكيان الاقتصادى والاجتماعي للمجتمع ولا تتحقق له الفعالية الا من خلال قبول افراد وجماعات المجتمع له ، وتحمسهم لأحداثه والمشاركة الايجابية في تحقيقه . ومن هنا نجد التصور الادارى للتنمية الاقتصادية يضع اهمية كبرى في خصائص التكوين السكاني للمجتمع ، من حيث مدى تقبلهم لمفاهيم التنمية والتغيير والتطوير ، او معارضتهم لمثل هذه الاتجاهات .

وفي ضوء هذه النقاط يمكن ابراز التصور الادارى للتنمية الاقتصادية في انه محاولة احداث تغيير شامل وجذرى في نظم وعلاقات الانتاج والعمل ، واسس استخدام الموارد والطاقات المتاحة ، وخلق الظروف المناسبة لتطوير الطاقات والموارد ، واستقبال الطرق والاساليب الجديدة في الانتاج ، كل هذا بهدف تحسين وتطوير الكفاءة الكلية للتشغيل الاقتصادى للمجتمع ، ولتحقيق زيادات صافية في الانتاج القومي كما ونوعا ، وترشيد توزيع الناتج القومي بين المساهمين في انتاجه وفقا لأسس ومعايير اقتصادية واجتماعية عادلة ومقبولة .

وتتركز اهم خصائص المدخل الادارى في التنمية الاقتصادية في الآتي

١ ـ ان الادارة العلمية تحقق بالتخطيط والتنظيم والمتابعة الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة ، ومن ثم تصل الى افضل النتائج الممكنة في اطار القيود والمحددات السائدة .

٢ ـ ان المنطق الاداري يعتبر العنصر البشري هو الركيزة الاساسية لجهود التنمية ، ومن ثم فان توافر عناصر الانتاج الاخرى لا قيمة له الا اذا توفر العنصر البشري القادر والراغب في الانتاج والعطاء .

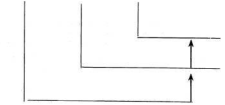
٣ ـ ان التنمية الاقتصادية هي في حقيقتها تنمية للطاقات البشرية ، ومحاولة رفع كفاءة القوى العاملة ، وزيادة معدلات اسهامها في الانتاج القومي .

ان الكفاءة الانتاجية هي محور التفكير الاداري في التنمية . وبالتالي فان جهود الانماء يجب ان تتركز جميعا في محاولة رفع الكفاءة الانتاجية في الانشطة الاقتصادية . وحيث ان السكان هم المصدر الاول للكفاءة الانتاجية ، اذن فالتنمية الاقتصادية تتوقف تماما على مدى كفاءة السكان ودرجة الافادة منهم في تعظيم الناتج القومي .

ولذلك فان المدخل الاداري للتنمية الاقتصادية يعتمد على المنطق الآتي :



الكفاءة الانتاجية الكلية للاقتصاد القومي = قيمة الناتج القومي الاجمالي ÷ (قيمة راس المال المستخدم + قيمة المواد وعناصر الطبيعة المستخدمة + قيمة العمل الانساني المستخدم)



اى ان قيمة العمل الانساني هي مصدر تنمية قيم راس المال وعناصر الطبيعة ، ومن ثم هي مصدر الزيادة الحقيقية في الناتج القومي الاجمالي.

٣ ـ ان الاجهزة القائمة على توفير تلك الرعاية الاجتماعية تتعدد وتتباين في اهتماماتها واساليبها ، ولا تصدر عن سياسة موحدة او خطة متكاملة . وبالتالي فكثيرا ما يحدث ان يستفيد بعض المواطنين من خدمات مكررة لبعض هذه الاجهزة ، بينما يفشل آخرون في الحصول على اى قدر منها .

٤ ـ ومن الملاحظ ايضا ، ان تلك الجهود المبذولة في سبيل الرعاية الاجتماعية تتجه في الغالب الى المواطنين في المناطق الحضرية من الدولة ، بينما لا تكاد تصل الى الآخرين في المناطق الريفية وذلك نظرا لبعدهم عن مراكز التاثير السياسي من ناحية ، ولتركز البيروقراطية الحكومية في المدن من ناحية اخرى . وبرغم الاتجاه الشائع في بعض الدول مؤخرا والذى يطلق عليه اسلوب « تطوير المجتمع Community Development والذى يرمي الى تجميع جهود الاجهزة العاملة في مجال الخدمات الاجتماعية وتركيزها بالنسبة لمنطقة معينة ( قرية ، او حي باحدى المدن ) وتخطيط توفيرها على اساس تكاملي ، الا ان المنطق الذى تقوم عليه هذه الجهود ما يزال هو منطق الرعاية الاجتماعية وليس التنمية الاجتماعية الشاملة .

ومن ثم فان المنطق الادارى العلمي يعتبر ان تشتت جهود العمل الاجتماعي ، وعدم فعاليته ينعكسان على المشكلة السكانية بشكل مباشر ، حيث لا يوفران الاساس السليم لرفع كفاءة السكان الانتاجية ، وبالتالي يتواجد اعداد من السكان لا يملكون القدرة او المهارة او الدافع للعمل الانتاجي ، وهذا ما يتمثل في المظاهر الاقتصادية للمشكلة السكانية ، اى زيادة اعداد السكان بمعدلات تفوق معدلات الزيادة في الانتاج القومي .



## التصور الادارى للتنمية الاجتماعية :

ان التنمية الاجتماعية في المفهوم الادارى شانها شان التنمية الاقتصادية هي عملية تغيير جذرية تستهدف القضاء على اوضاع وعلاقات اجتماعية سائدة ، واحلال أوضاع وعلاقات جديدة محلها . وبشكل محدد فان التنمية الاجتماعية في التصور الادارى هي محاولة علمية مخططة ومتكاملة تستهدف تغيير انماط السلوك الاجتماعي للافراد في مجتمع معين بما ينعكس على الكفاءة الانتاجية للسكان بشكل ايجابي .

وبالتالي فان التنمية الاجتماعية تتصف بالخصائص الآتية :

١ ـ انها عملية شاملة ومتكاملة تتعامل مع المحددات الاساسية للسلوك الاجتماعي ، وتدرك التفاعل والتداخل بين تلك المحددات .

٢ ـ انها عملية مستمرة نظرا للتغير المستمر في محددات السلوك الاجتماعي ولضرورة متابعته بما يضمن استمرار توفر الظروف المساعدة على التحول الاجتماعي الايجابي ، وتجنب الارتداد الى الاوضاع والعلاقات الاجتماعية السابقة .

ولقد وضح لنا ان التنمية الاجتماعية تستهدف في الاساس اعادة تشكيل التكوين السكاني للمجتمع وذلك من خلال التاثير على انماط السلوك الاجتماعي السائدة ، ونتيجة للدراسات في مجال

العلوم السلوكية (١٠) فقد تحدد طريق العمل مناجل التنمية الاجتماعية لرفع الكفاءة الانتاجية للسكان في امرين :

**الاول : محاولةالتاثير في خصائص الانسان** :وذلك بالعمل على تغيير مكوناته الشخصية وهي :

- مدركات الانسان واسلوبه في الفهم والادراك .
- دوافع الانسان ورغباته واهدافه .
- خبرات الانسان وتجاربه .
- اتجاهات الانسان ووجهات نظره .
- القيم والمعتقدات التي يؤمن بها .
- العادات والتقاليد التي يقدرها ويلتزمبها .

**الثاني** : محاولة التاثير في خصائص البيئةالتي يعيش فيها الانسان ، وهي ذات شقين **بيئة مادية واخرى اجتماعية** . والهدفهنا يتمثلفي العمل على تغيير الجوانب **الآتية** في حياة الانسان :



- البيئة المادية المباشرة التي يعيش فيهاوهي المسكن ومكان العمل .
- البيئة المادية المحيطة وهي المنطقةالسكنية التي يقطنها والمنطقة التي يقع بها مكان العمل .
- البيئة الاجتماعية المباشرة في مكانالعمل .
- البيئة الاجتماعية المحيطة في نطاقالاسرة والاصدقاء والاقارب .
- البيئة الاجتماعية غير المباشرة وهيتتمثل في المجتمع الكبير الذى ينتمي اليهالانسان .

وفي ضوء هذا التصور لمفهوم التنميةالاجتماعية تأخذ محاولات رفع الكفاءة الانتاجية للسكان بعدا جديدا ، كما تتبع حلول غير تقليديةللمشكلة السكانية .

## وضع التكوين السكاني في مشكلة التنمية :

من خلال التحليل السابق توصلنا الى عددمن الاستنتاجات الاساسية التي يقوم عليها المنطق الذى يستند عليه بحثنا وهي :

١ ـ ان قضية السكان تمثل عنصرا هاما فيمشكلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

---

١٠ ـ راجع الدكتور على السلمى ـ السلوك الانسانيفي الادارة ، دار المعارف ١٩٧٣ .

الادنى منهم «١١» وبرغم ان هذه الافكار تتعلق بالتحليل فى حالة السكون Static ، الا انها لا تثير الاهتمام الادارى كثيرا . وانما التكوين الامثل للسكان فى المفهوم الادارى يتجه الى خصائص السكان وتركيبهم النوعي والمهني ، وصفاتهم النفسية والاجتماعية والقيم والمعتقدات التي يؤمنون بها . اما العدد من السكان فيأتي فى مرتبة تالية من الاهمية .

ونستطيع ان نقدم بعض الملامح التي اوضحت الدراسات الادارية الحديثة ضرورة توافرها فى السكان حتى تتهيأ الفرص للتنمية الاقتصادية :

١ ـ توفر نسبة كافية من السكان فى فئة العمر المناسبة للعمل والانتاج وهي تتراوح بين عشرين وخمسة واربعين سنة . ففي تلك الفئة العمرية يوجد السكان الذين يسهمون في المتوسط بدرجة اعلى واكفأ من غيرهم فى فئات العمر الادنى او الاعلى .

٢ ـ ارتفاع المستوى التعليمي بين السكان بشكل عام وبين الافراد في فئة العمر ٢٠ ـ ٤٥ بشكل خاص ، نظرا لانعكاس هذا التعليم المرتفع على امكانيات وقدرات الافراد فى العمل .

٣ ـ ارتفاع نسبة القوى العاملة المنتجة الى اجمالي عدد السكان ، اى ارتفاع نسبة القادرين على العمل والراغبين فيه الى اجمالي السكان . وهذا الارتفاع فى نسبة القوى العاملة يتيح فرصا للعمل الانتاجي ، ويسمح بتشغيل واستثمار الطاقات والموارد الانتاجية المتاحة .

٤ ـ توفر صفات نفسية مجابية للنمو والتقدم بين السكان واهمها :

أ ـ وجود درجة عالية من الدافع الى الانجاز Need Achievement وهو الرغبة فى تحقيق نتائج واهداف متميزة . وقد اثبت احد الباحثين وجود ارتباط بين الدافع الى الانجاز وبين درجة التقدم الاقتصادى للمجتمع «١٢» كذلك اوضحت الدراسات ذاتها ان اكثر افراد المجتمع تمتعا بالدافع الى الانجاز هم الاقدر على النجاح فى الاعمال المتصلة بمجالات الانماء الاقتصادى .

ب ـ توفر درجة عالية من الرغبة فى المشاركة Participation والانخراط فى العمل Job Involvement بين السكان . ان هذه المشاركة والانخراط في العمل تعني ان اسهام الفرد فى تحقيق اهداف الانتاج لا يقتصر على اداءه لواجباته الروتينية فحسب ، بل سوف يقدم على الابداع

---

١١ ـ يقصد بالعدد الاقصى للسكان Maximum Population ذلك العدد من السكان الذى يتحقق عند تساوى معدل الوفاة ومعدلات المواليد ، اى عندما تصبح الزيادة الصافية فى السكان صفرا وذلك عند مستوى معين من الخبرة الفنية واساليب وطاقات الانتاج . وقد يتحقق هذا الحد الاقصى اما بفعل ارتفاع معدل الوفيات مع ثبات معدل المواليد ، او انخفاض معدل المواليد وثبات معدل الوفيات ، او تغير المعدلين فى اتجاهين متضادين وذلك نتيجة لاسباب صحية ، واجتماعية وسياسية واقتصادية . اما الحد الادنى للسكان فهو اقل عدد ممكن من السكان الواجب توافره لامكان قيام حياة ونشاط اقتصادى او اجتماعي فى بقعة ما .. راجع IAN, Bown, op.cit. p. 124.

١٢ ـ توصل عالم النفس دافيد مكلاند من البيانات وجود ارتباط بين درجة توفر الدافع الى الانجاز فى شعب من الشعوب وبين درجة التنمية الاقتصادية التي يحققها هذا الشعب . وقد اجرى مكلاند دراساته على بيانات تاريخية من الولايات المتحدة الامريكية وايطاليا وانجلترا . راجع مؤلفه :
McClleland, D.C., The Achieving Society Princeton : D. Van Nostrand Co., Inc., 1961.

والخلق والابتكار في محاولة لحل مشكلات العمل ، والتماس طرق واساليب اكثر تطورا فى الانتاج تعود عليه وعلى المجتمع بالفائدة . ان الشعوربالمشاركة والانخراط فى العمل يؤدى الى خلق الشعور بالمسئولية الجماعية والمصلحة المشتركة. ويتبلور هذا الشعور فى انماط سلوكية فى العمل والانتاج تتميز بالايجابية والاقدام. ولقد اوضحت احدى الدراسات ان النجاح غير العادى الذى تحققه منظمات الانتاج فى مجتمع ما يتوقف الى حد كبير على درجة الشعور بالمشاركة والانخراط فى العمل بين العاملين فى تلك المنظمات (١٢) .

ان هذه الصفة في التكوين السكاني من اهم ما تحتاجه جهود الانماء الاقتصادى في الدول النامية حيث تتبلور فى اسهام المواطنين بالعمل من اجل الصالح العام ، والحفاظ على الملكية العامة والثروة القومية ، والشعور بالمسئولية الكاملة حتى فيما يخرج عن حدود عمل الفرد . وكلها صفات تفتقر اليها الدول المتخلفة اقتصاديا .

جـ ـ توفر درجة عالية من الرغبة فى الانتماء Affiliation Need وهي درجة ارتباط الفرد بوطنه او مجتمعه او جماعته ، ومدى شعوره بالرغبة فى العمل من اجله . ان اهم ما تعاني منه كثير من الدول النامية ذلك الشعور بالتباعد والانفصال الذى يتسم به ابناؤها ، خاصة هؤلاء الذين يحققون مستوى اعلى من العلم والثقافة او الخبرة الخاصة . ولعل قضية استنزاف العقول Brain Drain هو دليل حاسم على ذلك . ان هؤلاء الذين يتم استنزافهم هم شباب من ابناء الدول النامية ، حققوا قدرا عاليا من العلم والخبرة ثم استقطبتهم دول كبرى غنية من خلال الاغراء بمغريات شتى ، مادية وغير مادية . ولكن ما يعنينا هنا ان بلادهم النامية تحرم من خبراتهم وعلمهم بسبب نقص الرغبة فى الانتماء لديهم . ان هؤلاء الشباب اذ يباعدون انفسهم عن اوطانهم ، ومن ثم تتدنى مساهمتهم فى انمائها انما يدللون على قيمة توفر الرغبة فى الانتماء لدى سكان دولة ما ، حتى تتوفر ظروف افضل للتنمية . وهنا لابد من ان نورد تحذيرا هاما هو ان الرغبة فى الانتماء يجب الا تفهم بمعنى التواجد المادى في الوطن ، ولكن القصد هو الانتماء الفكرى والعاطفي للوطن ، والعمل من اجل تحقيق اهدافه حتى ولو كان الفرد يقيم خارجه . ومن ذلك يستقيم في تصورنا مبدا الهجرة من اجل تخفيف المشكلات الاقتصادية مع استمرار وجود الانتماء للوطن ، وذلك اذا عمل ابناء الوطن المهاجرون على الاسهام فى تمويل ودفع حركة الانماء فى بلدهم ، ولو بشكل غير مباشر . ولعل في نجاح حركة الهجرة لابناء لبنان واستمرار ارتباطهم بوطنهم ، دليل على ما تقدم ، برغم ان كثيرين من هؤلاء المهاجرين قد تجنسوا بجنسيات بلاد المهجر .

د ـ توفر درجة عالية من الرغبة فى القدرة على تحمل المخاطر Risk-taking ان صفة اساسية فى انشطة الانتاج والاعمال المرتبطة بالتنمية هي نسبة المخاطر التي تحوط هذه الانشطة ، وعدم القدرة على التاكد من نتائجها . ان عدم التاكد Uncertainty ينشأ بسبب عوامل ومتغيرات كثيرة تتفاعل جميعا لتجعل نتائج نشاط اقتصادى او انتاجى معين غير واضحة وقت

---

١٢ - Patchen, M., Participation, Achievement, and Involvement on the Job. Englewood Cliffs, N.J. Prentice-Hall, Inc., 1970.

بقلم : و.س. ويتنكاي
ترجمة : فاروق مصطفى اسماعيل

# الموارد العالمية وعلاقتها بالسكان *



ليست علاقة الموارد الطبيعية بالسكان ، اوعلاقة السكان بالموارد الطبيعية بالمشكلة الحديثة العهد ، بل هي ترجع الى الفترة التي كان الانسان فيها ينتابه الخوف من ان يصبح من الكثرة بحيث لا تفي موارده الغذائية باحتياجاته ، او الخوف من ان يصبح من القلة بحيث يعجز عن أن يحمي نفسه وموارده من اعدائه ، ولطالما كانت احدى مشاكل الانسان الرئيسية هي ان يحقق نوعا من التكيف والملاءمة بين موارده البيئية وعدد السكان حتى يستطيع ان يحيا الحياة التي ينشدها .

---

* العنوان الاصلي لهذا الموضوع هو World Resources in Relation to Population وقد نشر في كتاب Population and World Politics صفحات من ٤٦ــ٧٥ . ومؤلف المقال هو الاستاذ و.س. ويتنكاي المستشار الاقتصادي بمكتب العمل الدولي سابقا والمستشار الاقتصادي الرئيسي بهيئة الامن الاجتماعي Social Security Board ومدير البحوث بمنظمة القرن العشرين Twentieth Century Fund واستاذ البحوث بجامعة هوبكنز Johns Hopkins Un.

ولقد ترتب على ذلك البحث عن مثل هذا التكيف الذى نسميه الآن « **سياسة الموارد والسكان** » ان ظهر الكثير من التنظيمات المتناقضة المتعلقة بالحقوق والواجبات الزواجية والأبوية لدى الجنس البشرى من ناحية ، وكثير من اساليب وطرائق الزراعة والرى البدائي وبناء السدود والقنوات من ناحية اخرى . ولقد كان انشغال الانسان بمثل هذه المشكلات فى الماضي محدودا للغاية ومحصورا فى نطاق القبيلة والمدينة، ولكن الذى يميز النظرة الحديثة هو التفكير فى هذه المشكلات فى ضوء الموارد « العالمية » وعلاقتها بسكان « العالم » .

وقد نجم عن هذا الاتجاه الجديد الى حد ما من الشعور بأن العالم قد تضاءل وانكمش بفضل وسائل المواصلات والاتصال الحديثة ، وذلك بالاضافة الى بعض الاسباب الملحة الاخرى التي تجعل من الضرورى معالجة مشاكل السكان والموارد على انها مشكلات عالمية .

فقبل الحرب العالمية الثانية انتبه عدد من علماء الديموجرافيا فى اوروبا وامريكا الى ظاهرة انخفاض معدل المواليد Birth Rate فى نطاق الحضارة الغربية فى مقابل النمو السريع للسكان في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية وآسيا وافريقيا . ولقد ازداد الوعي فى السنوات الحديثة بخطورة الاضطرابات السياسية والاجتماعية فى المناطق المتخلفة Under Developed Areas التي لا تستطيع ان تفي باحتياجات سكانها المتزايدين باستمرار ، وذلك وفقا لمستوياتهم الحالية والتي تميل الى الارتفاع باضطراد .

وتواجه دول الحضارة الغربية فترة من النمو السكاني المتواصل البطيء نسبيا . وليس من الواضح اذا ما كان سكان امريكا الشمالية واوروبا ( فيما عدا سكان اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ) سوف تحقق زيادة سكانية تصل الى ٥ر٥٪ فى الفترة ما بين عام ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ م حسب تقدير **فرانك نوتستين** Frank Notestein فى عام ١٩٤٥ ، او بنسبة ٥ر١٧٪ حسب التقدير المبدئي الذى ذكرناه فى كتابنا « سكان العالم والانتاج World Population and Production » . وبالمثل فان تنبؤات خبراء الامم المتحدة التى تتوقع امكانية تزايد النمو السكاني بسرعة اكبر لا تتوقع ان يصل ذلك التزايد الى حد الخطر الجسيم فى منطقة الحضارة الصناعية الحديثة ، ويذهب هؤلاء الخبراء الى ان سكان تلك المنطقة التي تشمل امريكا الشمالية واوروبا الشمالية الغربية والوسطى والجنوبية واستراليا سوف يصل عددهم الى ما بين ٥٤٨ مليون و ٦٥٥ مليون نسمة في عام ١٩٨٠ فى مقابل ٤٨٦ مليون في عام ١٩٥٠ ، وهذه تمثل زيادة تتراوح بين ٦٥ر٠٪ الى ٩٧ر٠٪ سنويا خلال ثلاثين عاما .

وليس من شك ان استخدام التربة المتاحة والغابات والمناجم بطريقة افضل ، بالاضافة الى نمو الموارد الجديدة والاستيراد من اجزاء اخرى من العالم ، سوف يزود السكان الذين يتزايدون بهذه المعدلات بكل ما يحتاجون اليه من الطعام والملابس والمأوى والضروريات الاخرى . والواقع ان الدول الصناعية الحديثة لن تواجه اية مشكلة تتعلق بالموارد السكان اذا نحن افترضنا ان الناس فى هذه المنطقة قد وصلوا الى مستوى معيشي مرتفع بدرجة معقولة ، لانهم لا يتطلعون الى تحقيق مستوى افضل يتميز بازدياد مطالب الفرد من جميع انواع المواد الخام بطريقة مطردة .

ولكن المشكلة تصبح اكثر خطورة حين نفكر في سكان العالم ككل ، آخذين في الاعتبار امكانية النمو السريع للسكان في المناطق النامية ، وامكانية وضع افتراضات اكثر دينامية وواقعية بدلا من مجرد الحفاظ على مستوى المعيشة الحالي .

بالاضافة الى ذلك فانه من غير المجدي ان تقدر الموارد العالمية بالاشارة الى مطالب السكان في المستقبل طبقا لانماط الاستهلاك السائدة في الوقت الحالي ، فمن المؤكد ان مطالب الفرد من كل انواع المواد الخام سوف تزداد سواء في الدول الصناعية المزدهرة او في المناطق النامية ، والسؤال المهم هنا هو ما اذا كانت الموارد المتاحة سوف تكفي لسد المطالب المتوقعة . ولقد واجهت لجنة الرئاسة لسياسة الموارد ( لجنة بيلي ) .The President's Materials Policy Commission ( Paley's Commission ) هذه المشكلة حين ارادت تقرير الموارد في الولايات المتحدة والدول الاخرى المتقدمة للفترة من عام ١٩٧٠ ــ ١٩٨٠ وقد افترضت ان النمو السكاني سوف يحدث بمعدلات معقولة ، بينما الطلب على المواد الخام سوف يرتفع بمعدلات غير مناسبة . وسوف احاول هنا ان اضع مخططا تمهيديا لمجموعة من الافتراضات التي يمكن ان تستخدمها في تقرير كفاية الموارد العالمية مع نهاية هذا القرن .

**افتراضات عن النمو السكاني :**

ليس هناك تنبؤ للنمو السكاني في المستقبل القريب يمكن الزعم بانه اكثر من مجرد تخمين يقوم على « معلومات اكيدة » . فبعد ان فشلت التجارب الخاصة بالتنبؤات عن السكان في المستقبل يتفق علماء الديموجرافيا الآن على انهم لا يملكون الوسائل التي تمكنهم من وضع تنبؤات لفترات اطول من ٢٥ ــ ٥٠ سنة تقريبا ، لان كثيرا من العوامل الوثيقة الصلة قد تتغير خلال هذه الفترة .

ومن ناحية اخرى فمن الصعب دراسة مشكلة الموارد العالمية في علاقتها بالسكان دون ان يكون لدينا فرض عمل حول حجم سكان العالم في المستقبل ، والحل المعقول للمشكلة هو ان نعترف بعدم جدوى كل المحاولات التي استهدفت تقدير سكان العالم في المستقبل ، وان نحاول في ضوء هذه الحقيقة ان نصل الى تقدير جديد ، او ان نستخدم بعض التقديرات الموجودة بالفعل .

ولقد انتقد الكثيرون تقديرنا لسكان العالم عام ٢٠٠٠ م على اساس انها تقديرات منخفضة جدا ، وربما كان لهذا النقد ما يبرره ، فلقد افترضنا ان الزيادة في سكان العالم ككل ، وفي كل قارة في الفترة من عام ١٩٥٠ الى عام ٢٠٠٠ م سوف تكون ( في المليون ) كما يلي :

| الزيادة المئوية | عام ٢٠٠٠ | عام ١٩٥٠ | |
|---|---|---|---|
| ٥٥٪ | ٣٢٥٠ | ٢٤٠٠ | سكان العالم |
| ٣٣٪ | ٢٢٠ | ١٦٦ | امريكا الشمالية |
| ٧٣٪ | ٢٨٠ | ١٦٢ | امريكا الوسطى والجنوبية |
| ١١٪ | ٤٤٠ | ٣٩٦ | اوروبا ( باستثناء اتحاد الجمهوريات السوفيائية الاشتراكية ) |

| | | | |
|---|---|---|---|
| اتحاد الجمهوريات السوفياتية | ١٩٣ | ٢٦٠ | ٣٥٪ |
| آسيا ( باستثناء اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ) | ١٧٢٢ | ١٧٥٠ | ٣٨٪ |
| افريقيا | ١٩٨ | ٢٨٠ | ٤١٪ |
| استراليا | ١٣ | ٢٠ | ٥٤٪ |

ففي عام ١٩٥١ قام خبراء الامم المتحدةبوضع نسق من التنبؤات يقوم على اساس تصنيف الدول في مجموعات ، وفقا لاتجاهاتها الديموجرافية السائدة فيها وليس بحسب القارة التي تنتمي اليها ، وكانت تقديراتهم تغطي حياةجيل واحد ـ اى ثلاثين عاما ـ وتردها الى عام ١٩٨٠ . ولكي نجعلها قابلة للمقارنة بتقديراتنالعام ٢٠٠٠ م . فقد حاولت ان ادفعها للامام مفترضا حدوث انخفاض طفيف في معدلات النموالسكاني ، مع تخصيص للعقدين الاخيرين ٦٠٪ من الزيادة المتوقعة سلفا للعقود الثلاثة السابقةمن ١٩٥٠ الى ١٩٨٠ . وعلى اساس هذا التقدير الاستقرائي فان التنبؤات الثلاث التي تقدمها لنادراسة الامم المتحدة تعطينا التقديرات التالية لسكان العالم في عام ٢٠٠٠ م .

٣٣٢٠ مليون التقديرات الادنى

٣٨٠٠ مليون التقديرات المتوسطة

٤٣٧٥ مليون التقديرات الاعلى



وتتفق تقديرات نوتشتين Notestein وتنبؤاتنا مع تقديرات الامم المتحدة الادنى ، بينما تزيد تقديرات الامم المتحدة الاعلى بمقدار الثلث .

في عام ١٩٥٤ راجع خبراء هيئة الامم تقديراتهم ورفعوها وقدموا تلك التقديرات الجديدة الى المؤتمر الدولي للسكان في روما International Population Congress وفيها ابرزوا بشكل واضح معدلات المواليد وانخفاض معدلات الوفيات في السنوات الاخيرة ، وقد اهتموا بدراسة خمسة اوضاع ديموجرافية رئيسية هي :

١ ـ ارتفاع معدلات المواليد ومعدلات الوفيات على السواء .

٢ ـ ارتفاع معدلات المواليد مع ميل معدلات الوفيات للانخفاض ( وان كانت لا تزال مرتفعة الى حد ما ) .

٣ ـ ارتفاع معدلات المواليد وانخفاض معدلات الوفيات نسبيا .

٤ ـ انخفاض معدلات المولية مع انخفاض معدلات الوفيات نسبيا .

٥ ـ انخفاض او تذبذب معدلات المواليد مع انخفاض معدلات الوفيات .

وقد صنفت جميع دول العالم وفقا لهذه الانماط او المناطق الخمسة ، ثم حدد المعدل النموذجي للنمو السكاني لكل دولة في كل قارة ( او لكل مجموعة من المناطق في القارة الواحدة ) .

وبتطبيق هذه المعدلات للنمو على السكان الذين سبق تقديرهم سلفا فى كل منطقة عام ١٩٥٠ استطاع خبراء الامم المتحدة الوصول الى التقديرات التالية عن سكان العالم فى عام ١٩٨٠ .

| | |
|---|---|
| ٣٢٩٥ مليونا | التقديرات الادنى |
| ٣٦٢٨ مليونا | التقديرات المتوسطة |
| ٣٩٩٠ مليونا | التقديرات المرتفعة |

وواضح ان هذه التقديرات الجديدة لعام ١٩٨٠ تكاد تقترب من تنبؤاتنا المرتفعة بالنسبة لعام ٢٠٠٠ م ، وهي التنبؤات التي ترتكز على تقديرات الامم المتحدة السابقة ، ولو حملنا تنبؤات الامم المتحدة الى الامام فان سكان العالم فى عام ٢٠٠٠ م سيصبحون كما يلي :

| | |
|---|---|
| ٣٨٠٠ مليونا | التقديرات الادنى |
| ٤٣٣٢ مليونا | التقديرات المتوسطة |
| ٤٩١٢ مليونا | التقديرات المرتفعة |

وتسجل هذه الاعداد زيادة ملحوظة تصل الى نحو نصف بليون نسمة تقريبا عن التقديرات الاستقرائية المستمدة من دراسة الامم المتحدة السابقة ، ولكن التعارض بين التقديرات التي اعدها فريق الخبراء ذاته فى عام ١٩٥١ ثم فى عام ١٩٥٤ بنفس النظر ، وهناك اسباب قوية تجعلنا نعتقد ان التقديرات الاخيرة تمثل تحسنا ملموسا اذا ما قورنت بالدراسة السابقة ، فالدراسة التي اجريت اخيرا تتصف بدرجة غير عادية من الدقة .

ومن ناحية اخرى فهناك ما يدعو للشك فيما اذا كان الانخفاض السريع الذى حدث اخيرا فى معدلات الوفيات والزيادة في معدلات النمو السكاني تبرر مثل هذا التنقيح المتطرف لتقديرات السكان فى المستقبل ، والواقع اننا نخشى ان تكون التغييرات المؤقتة فى الاتجاهات الديموجرافية كما تبدو فى تنبؤات الامم المتحدة الحالية قد وجدت كثيرا من المبالغة والمغالاة .

وبناء على ذلك فاني اميل للاعتقاد بان التقديرات الحالية لا تبطل تنبؤات عام ١٩٥١ ، ولكنها تبعث على مزيد من الشك فيها . فالحد الادنى يظل كما فى التنبؤ القديم الذى استقرىء لعام ٢٠٠٠ م ( ٣٢٢٠ مليونا ) اما الحد الاعلى فان التنبؤ الجديد يشير الى انه سيكون ٤٩١٢ مليونا ، وعلى اى حال فان الاتجاه الاكثر احتمالا هو مجرد راى او وجهة نظر .

وتختلف التقديرات التي اعدها مختلف الباحثين اختلافا كبيرا فما بينها ، فمن ناحية نجد ان **والتر جريلنج** Walter Greiling يتنبا منذ عهد غير بعيد بما سيكون عليه سكان العالم ، ويبني تقديراته على اساس افتراض ان النمو السكاني فى مناطق مختلفة ينمو بمعدلات سنوية ثابتة ، ويربط ذلك بافتراض ان هذا النمو سوف يستمر الى منتصف القرن الحادى والعشرين ، ثم يتبع ذلك فترة من التوازن الديموجرافى Demographic Equilibrium عندما يصل سكان العالم الى نحو تسعة بلايين نسمة ، وقد ذهب في تقديراته الى ان هؤلاء السكان سوف يصلون الى ٦ر٤ بليون فى عام ٢٠٠٠ م ، وهو رقم يقترب من التقديرات المرتفعة للامم المتحدة . اما التنبؤ بما

سيكون عليه الحال في منتصف القرن التالي فانه غير مؤكد الى حد كبير ، ومع ذلك فان ثمة اسئلة تثار ولا يمكن الاجابة عليها دون افتراض عدد من الافتراضات التعسفية عن التغيرات التي ستطرا في المستقبل في طرق الحياة على هـذا الكـوكب ( الارض ) وعلى العكس فان معظـم التنبـؤات لعامي ١٩٨٠ ، ٢٠٠٠ تتم في نطاق ضيق نسبيا .

ويمكن لنا من اجل التحليل ان نفترض ان سكان العالم سوف يزدادون بليونا او بليونين بين عام ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ م ، وهذا يعني زيادة عدد السكان من ٤ر٢ بليون الى ٤ر٣ بليون او ٤ر٤ بليون تقريبا اى بنسبة تتراوح بين ٤٠٪ و ٨٠٪ .

**افتراضات عن مطالب المستقبل :**

يعتمد تقدم المجتمع الانساني على عوامل كثيرة لا تحصى يصـعب التنبؤ بهـا ، فمسرح الاحداث السياسية والاجتماعية في عـام ٢٠٠٠ سوف يختلف عما نشـاهده اليـوم تماما مثلما تختلف اوضاعنا الراهنة عما كانت عليـه عـام ١٩٠٠ ، وسوف يكون الاختلاف في اسلوب الحياة على مستوى الكم والكيـف معا . وان كثيرا من ادوات الانتاج على نطاق واسع وانماط الاستهلاك الحالي سوف تصبح مجـرد اثـر يحتفظ به في المتاحف . ومن المحتمل ان تخفض بعض المـواد الخام المعروفة الآن والتي تسـتخدم على نطاق واسع لتحل محلها مواد اخرى جديدة ، كما كان بعض هذه المواد التي تعرفها اليوم غير معروفة من قبل ، والمعروف ان الولايات المتحدة استخدمت في عام ١٩٤٩ من البلاستيك مثلا اكثر مما استخدمت من الرصـاص والزنـك والقصـدير والنحاس والنيكل والالومنيوم والمغنيسيوم معا ، بينما كانت مطالبها من هذه المواد في عام ١٩٢١ تزيد باكثر من عشرين ضعفا عن حاجتهـا الى البلاسـتيك ، ويمكننا ان نتوقع مثل هذه التغييرات في المستقبل ، فالسيارة الحديثة سـوف تعتبـر من مخلفات الماضي بعد نحو نصف قرن من الزمـان ، ولن تختلف النظرة اليها عن نظـرتنا نحن الآن الى المركبات التي تجرها الخيول . من العبث ان نحاول معرفة ما اذا كان الفحم سوف يسـتخدم في المستقبل بنفس الطريقة التي نسـتخدمه بها الآن ، او سوف يسـتعمل اسـاسا كمصدر للوقود السائل وللحصول على المواد الكيميائية ، وعندما نحاول النظر الى المطالب المستقبلة فـلا بد وان نفترض ــ صراحة او ضمنا ــ ان اى مادة خام تستخدم اليوم قد تستبدل بمنتجات اخرى لتحل محلها .

والواقع ان معدلات النمو التي اقترحهـا تاخذ في الاعتبار التغييرات الكيفية والتغييرات الكمية التي تطرأ على الطلب .

**الحاجة الى الطعام :**

الواقع ان الحاجة الى التقدم الاقتصادى لاتبدو اكثر وضوحا في اى مجال من المجالات اكثر من وضوحها في مجال التغذية ، فالاختلافات في استهلاك الطعام بالنسـبة للفرد سـواء في الدول الغنية المزدهرة او في المناطق التى ينتشر فيها الفقر ليس كبيرا بلغة السـعرات الحراريـة Calories فمتوسط السـعرات الحرارية بالنسـبة للشخص في جنوب وجنوب شرق آسيا هي ٢٢٠٠ر٢ وحدة حرارية يوميا ، بينما هي ٢٤٠٠ر٢ سعرا حراريا في امريكا الشمالية ، لكن الاختلاف الاكثر اهمية

ودلالة انما يكمن فى الانماط الغذائية ، حيث نجد الخبز والارز والبطاطس في الدول الفقيرة في مقابل غذاء هو مزيج من الاطعمة النشوية بالاضافة الى الاغذية الوقائية Protective Foods ( كاللحم واللبن والزبد والبيض والفاكهة والنباتات الخضراء ) في الدول الغنية . ومع ذلك فان الاختلافات الكيفية في الانماط الغذائية يمكن ان تتحول الى مقياس كمي حين تترجم تلك الأطعمة المختلفة الى السعرات الحرارية الاساسية ، كان نبين مثلا قيمة السعرات الحرارية في (العلف) الذى يؤدى الى انتاج كل رطل من اللحم او الزبد او كل « كوارت » من اللبن * او كل ١٢ بيضة من غير ان تحدث تغييرات جوهرية في قيمة السعرات الحرارية لاستهلاك الغذاء اليومي للفرد ، لأن الحاجة الى السعرات الاساسية تزداد بتحسن الغذاء .

ان الغذاء الرخيص في المناطق النامية انما هو نتيجة للتكيف طويل المدى للاستهلاك وندرة الموارد ، ولكن بعد ان يتذوق الناس في هذه المناطق طعاما افضل فسوف يحرصون على توفيره لانفسهم ولاولادهم ، ولكن من الصعب على المرء ان يحدد معدل السرعة التي يمكن ان تتغير بها عادات الناس الغذائية . وبصورة عامة يمكن القول ان معدل الغذاء اليومي في الولايات المتحدة يشتمل على ثلاثة او اربعة اضعاف السعرات الحرارية الاساسية لمعدل الغذاء اليومي في آسيا وافريقيا . وقد لا تكفي خمسون عاما من الآن للدول النامية لتصل الى هذا المعدل ، مع التسليم بان ثمة زيادة معتدلة في كمية الغذاء ، وتحسينات محدودة في مكوناته . وقد يستطيع المرء ان يقدر ان مطالب الفرد للغذاء سوف تتضاعف مرة على الاقل في العالم ككل فيما بين عام ١٩٥٠ ونهاية القرن الحالي .

وهذا التقدير تقريبي جدا بالطبع ، ويستطيع خبراء التغذية دون شك تحسينه ، وربما يرون ان متوسط حاجة الفرد من السعرات الحرارية الاساسية يمكن ان يرتفع مع نهاية هذا القرن بنسبة ٧٥٪ او ١٢٥٪ بدلا من ١٠٠٪ وقد يختلفون فيما بينهم عند هذه النقطة مثلما فعل الديموجرافيون . وايا كان الاتجاه المحتمل في العادات الغذائية في العالم فان مطالب العالم المستقبلة من الغذاء يجب تقديرها عن طريق الربط بين النمو السكاني المحتمل والتحسينات المتوقعة في التغذية . واذا نحن افترضنا ان سكان العالم سوف يزداد بنسبة من ٤٠٪ الى ٨٠٪ ما بين عام ١٩٥٠ و ٢٠٠٠ م ، فان المطالب الكلية للعالم من الغذاء في نهاية هذا القرن سوف تصل بكل تاكيد الى اكثر من ضعفين ، بل وربما الى اكثر من ثلاثة اضعاف ما هي عليه الآن ، وهذا يفترض حدوث نمو ثابت بمعدل يتراوح بين ٤ر١٪ الى ٢ر٢٪ سنويا .

هذا النوع من الاستدلال يقودنا الى النتيجة التالية وهي **ان النمو السكاني ليس هو العامل الحاسم في المطالب المتزايدة للجنس البشرى من الانتاج الزراعي وانما الاكثر اهمية من ذلك هو ارتفاع الاستهلاك بالنسبة للفرد .**

وهنا ايضا يكمن المصدر الاساسي للشك في تقدير كفاية الموارد العالمية . ان الهوة بين التقديرات الدنيا والتقديرات العليا للامم المتحدة تبدو اقل اهمية من عدم قدرتنا على معرفة ما سوف يحتاج اليه الناس في جميع انحاء العالم لوجباتهم الغذائية في الخمسين سنة القادمة .

---

* ربع جالون

## الحاجه الى المواد الخام اللازمة للصناعة :

ان مطالب العالم واحتياجاته المستقبلة من الالياف والاخشاب والحديد والصلب والمعادن الاخرى ، والمواد الكيميائية والطاقة انما تعتمد جزئيا على النمو السكاني . ولكن بصفة خاصة على ارتفاع مستوى المعيشة . وعلى ذلك فان دراسة مشكلة كفاية الموارد العالمية يجب أن تتم في ضوء الافتراضات المحددة المتعلقة بنمو الانتاج الصناعي في العالم .

ومما له اهمية بالنسبة لهذه التنبؤات معرفة التغير في بناء الاقتصاد العالمي . فالحضارة الالية التي بدات في الجانب الشمالي الغربي من اوراسيا وتطورت على سواحل المحيط الاطلنطي الشمالي من كلا الناحيتين تنتشر الان في كل مكان من العالم لكي تصبح هي الحضارة الاقتصادية العالمية . وقد بدات الشعوب المختلفة في الاطراف البعيدة في امريكا الجنوبية وفي آسيا وافريقيا تتعلم استخدام الوسائل الحديثة للانتاج والمواصلات والاتصال ، وتكيف مؤسساتها ونظمها وطرقها في الحياة طبقا للانماط الغربية .

ان الاتجاه نحو التماثل في الاساليب التكنولوجية والنظم انعكس في نهاية عصر الاستعمار اذ بدا التنظيم الراسي Vertical Organization للاقتصاد العالمي ( حيث تسيطر جماعة صغيرة من الدول المتقدمة على مناطق شاسعة من قارات اخرى لتمدها بحاجتها من المواد الخام ) في الاختفاء ليظهر محله بالتدريج نظام اخر نشا نتيجة للارتباك الذى يميز الوضع الحالي للشئون العالمية . وبدون الادعاء باننا نعرف الكيفية التي سيعمل بها هذا النظام بعد خمسين عاما من الان فاننا نستطيع أن نفترض ان :



الاتجاه سوف يكون نحو تقليل الفجوة بين من « يملكون » ومن « لا يملكون » . فالمناطق المتخلفة سوف تحاول اللحاق بالدول المتقدمة والمتفوقة في التكنولوجيا وانتاجية العمل ومستوى المعيشة ، ومع انها سوف تصل بالكاد الى المستويات الغربية الحالية مع نهاية هذا القرن ، فالاغلب ان التناقض سوف يقل ويتضاءل .

ولو عبرنا عن ذلك احصائيا فان ذلك يعني انه مهما تكن الافتراضات التي تستخدم لوصف النمو الاقتصادى المتوقع للولايات المتحدة فانه يجب افتراض معدلات سنوية أعلى الى حد ما للتقدم الاقتصادى في المناطق الاقل نموا وتطورا ، وبالتالي بالنسبة للعالم ككل . مثال ذلك اننا اذا افترضنا ان الانتاج الصناعي للفرد في الولايات المتحدة سوف يزيد بنسبة ٢ر٥٪ سنويا في المتوسط ، فانه يجب أن نفترض في ثقة ان معدل الزيادة في بقية انحاء العالم سوف يتراوح بين ٣٪ الى ٣ر٥٪ وبدون مثل هذا الاختلاف في معدلات النمو السنوى سوف يستحيل تضييق الفجوة بين المستوى الاقتصادى في الولايات المتحدة والدول الاقل ازدهارا . وهناك كثير من المؤشرات النسبية التي توضح ان الدول المتخلفة انما تحاول اللحاق بالدول الصناعية الرائدة . ان الامم المتحدة على سبيل المثال قد سجلت النسب المئوية التالية للزيادة التي وصل اليها الانتاج الصناعي في المناطق المتخلفة من عام ١٩٤٨ الى منتصف عام ١٩٥٤ .

| | |
|---|---|
| الإنتاج العالمي | ٣٦٪ |
| الولايات المتحدة | ١٨٪ |
| العالم باستثناء الولايات المتحدة | ٥٨٪ |
| اوروبا | ٦٢٪ |
| امريكا اللاتينية ( التعدين ) | ٢٥٪ |

اما الدول الصناعية فيمكن ترتيبها كما يلي فيما يتعلق بالانتاج الصناعي الذى حققته فى خمس سنوات فى الفترة بين ١٩٤٨ — ١٩٥٢ .

| | | | |
|---|---|---|---|
| المكسيك | ٣٣٪ | السويد | ١١٪ |
| ايرلندا | ٣٧٪ | بلجيكا | ١٤٪ |
| الجزائر | ٣٨٪ | الدانمارك | ١٩٪ |
| النرويج | ٤٠٪ | المملكة المتحدة | ٢١٪ |
| شيلي | ٤٣٪ | الهند | ٢٤٪ |
| هولندا | ٤٤٪ | كندا | ٢٧٪ |
| اسبانيا | ٤٨٪ | فرنسا | ٢٧٪ |
| ايطاليا | ٦١٪ | فنلندا | ٢٧٪ |
| اليونان | ٩٢٪ | الولايات المتحدة | ٢٩٪ |



وطبيعي ان الدولة ذات الانتاج الصناعي المحدود لا تستطيع ان ترفع من قدراتها الانتاجية بنسبة تتراوح ما بين ٤٠٪ الى ٦٠٪ بسهولة اكثر من الدول الصناعية كالولايات المتحدة او المملكة المتحدة وبلجيكا . لكن هذه المسالة بالذات تعتبر هي النقطة الحاسمة فى تنبؤاتنا ، وهي ان الدول النامية لديها الفرصة لزيادة انتاجها الصناعي ، ومن ثم فان مطالبها للمواد الخام سوف تزداد بنسبة اسرع من مطالب الولايات المتحدة .

ان افتراض التقدم الاقتصادى المستمر في المناطق النامية يتطلب التغير فى توزيع مواردها بين مجموعات مختلفة من الاحتياجات ، فكلما كانت الدولة فقيرة كان الجزء المخصص من الدخل للطعام كبيرا ايضا ، ففي اكثر المناطق فقرا حيث يسود اقتصاد الكفاف Subsistence Economy فان ميزانية الغذاء تصل الى نحو ٨٠٪ من جملة الانفاق الكلي ، ومن المحتمل ان هذه النسبة سوف تصل الى ٧٠٪ فى كل من الصين والهند والعراق وايران و٦٠٪ فى كل من المكسيك والبرازيل والاتحاد السوفياتي واليابان ، اكثر من ٥٠٪ فى الدول الزراعية في جنوب وجنوب شرق اوروبا . وربما تتراوح بين ٣٠٪ و ٤٠٪ فى الدول المزدهرة الصناعية المتقدمة . ان افتراض التقدم الصناعي يوحى بان الانفاق على السلع الصناعية يزداد بسرعة اكثر من الانفاق على الطعام . فاذا كانت مطالب الفرد للطعام ( عدد السعرات الحرارية الأساسية ) تتضاعف فان مطالبه للسلع الاخرى قد ترتفع إلى اكثر من الضعف .

فاذا حاولنا ان تخضع انماط الاستهلاك في مختلف مستويات الازدهار والرخاء لقانون **انجل** Engel فسوف نجد ان انفاق الفرد للغذاء يتضاعف حين يرتفع دخله بنسبة ثلاث مرات تقريبا ، فلو فرضنا ان الانسان في المستوى الحالي للتنمية الاقتصادية في العالم كله ينفق نحو ٤٥٪ من دخله او موارده في الطعام بينما يخصص نحو ٥٥٪ لاحتياجاته الاخرى . فان مضاعفة موارده المالية ثلاث مرات سوف يؤدي الى مضاعفة انفاقه على الغذاء ، بينما يرتفع اجمالي ما ينفق على اوجه الانفاق الاخرى نحو اربع مرات ، وهذا معناه ان ازدياد مطالب الفرد واحتياجاته للمواد الخام الصناعية في عام ٢٠٠٠ بمقدار اربع مرات سوف يعني مضاعفة استهلاكه للغذاء مرتين ( بالنسبة للسعرات الحرارية الاساسية ) .

واذا ربطنا ذلك بالتنبؤات البديلة للنمو السكاني فان هذه الافتراضات سوف تمكننا من تصور المطالب المحتملة لمواد الصناعة الخام في نهاية القرن الحالي كما يلي : (١٩٥٠=١٠٠)

| | |
|---|---|
| ١٤٠ ـ ١٨٠ | السكان |
| ٤٠٠ | مطالب الفرد للمواد الصناعية |
| ٥٦٠ ـ ٧٢٠ | اجمالي تلك المطالب . |

ان معدلات النمو هذه تفترض تقدما يبلغ المتوسط نسبة تتراوح بين ٣٫٥ ٪ الى ٤ ٪ سنويا .

وبالمثل فان العامل الرئيسي يكمن في نمو الاستهلاك بالنسبة للفرد اكثر مما يكمن في الزيادة السكانية ، والواقع اننا اذا افترضنا ان المطالب بالنسبة للفرد من المواد الصناعية في العالم ككل تزيد بنسبة ٢٫٨ ٪ سنويا ، وانها تتضاعف اربع مرات في خمسين عاما ، فسوف نكتشف كيف ان مطالب العالم من هذه المواد سوف تتزايد بسرعة لتصل الى ستة اضعاف نتيجة لبعض الاوضاع المختلفة المتعلقة بالنمو السكاني. ويبدو ان هذا المستوى من المطالب سوف يمكن الوصول اليه في مدى ٥٢ عاما ( اذا نحن تقبلنا التقديرات المنخفضة ، وفي نحو ٤٥ عاما اذا نحن اخذنا بالتقديرات الاعلى ، وان نفس المستوى من المطالب سوف يمكن تحقيقه في مدى ستين عاما، اذا لم تحدث زيادة سكانية على الاطلاق ، بينما كانت مطالب الفرد من المواد الخام الصناعية تزداد بنسبة ٣ ٪ سنويا .

ومن وجهة النظر المتعلقة بالمطالب المستقبلة للمواد الخام ، فان التقديرات السكانية المشكوك في دقتها تقل اهميتها اذا ماقورنت بالافتراضات الخاصة بسرعة التقدم الاقتصادي .

وتؤيد التجارب والخبرات الحديثة هذا الزعم ، فوفقا لمؤشرات الامم المتحدة للانتاج الصناعي فان الانفاق تضاعف في ١٥ عاما من عام ١٩٣٨ الى ١٩٥٣ ، بينما زاد سكان العالم بنسبة ١٦ ٪ تقريبا ، وهذا يعني ان المعدل السنوي للزيادة في المتوسط كان ١ ٪ للسكان و ٣٫٧ ٪ للانتاج الصناعي للفرد .

وسوف يتبين لنا العلاقة بين هذين الاتجاهين في السنوات الاخيرة : ففي الفترة

من عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٥٣ زاد سكان العالم بنسبة ٦ ٪ بينما ارتفع الانتاج الصناعي العالمي بنسبة ٣٧ ٪ اى أن متوسط الزيادة السنوية كان ٦ر٥ ٪ للانتاج ومتوسط الزيادة في المواد الخام ٢ر١ ٪ تقريبا بالنسبة لسكان العالم . وقد بلغ معدل النمو في المطالب بالنسبة للفرد نحو ٢ر٥ ٪ وهو اعلى بكثير من تقديراتنا . مما يتيح الفرصة لما قد يثور من عقبات ، او يصيبه التقدم الاقتصادى العالمي من نكسات .

وفى ضوء هذه التجربة فاني اعتقد ان تقديرى لحاجة العالم للمواد الخام الصناعية قد يزداد الى ست مرات فى الفترة من ١٩٥٠ الى ٢٠٠٠ ، هو تقدير اقرب الى التحفظ سواء اخذنا افتراض النمو الاعلى او الادنى للسكان ، وسوف يظل هذا التقدير متحفظا حتى ولو انتبه الجنس البشرى الى صوت الديموجرافيين وكف عن التناسل والتكاثر بمثل هذه السرعة .

## الدراسات المسحية للموارد :

السؤال الذى يثار حول كفاية الموارد العالمية فى علاقتها بالسكان عام ٢٠٠٠ م يتلخص فيما اذا كان فى استطاعة الانسان خلال خمسة عقود ( ٥٠ سنة ) أن يزيد مؤونته من السلع المصنعة الى اكثر من خمس او ست مرات ، ويقول آخر هل سيتاح للانسان فى خلال النصف الثانى من هذا القرن أن يزيد من انتاجه العالمى من الغذاء بمعدل سنوى يبلغ فى المتوسط ٢ر٢ ٪ وان يزيد من انتاج المواد الصناعية والسلع المصنعة بمعدل يتراوح بين ٥ر٣ ٪ و ٩ر٣ ٪ ؟

لكى نستطيع تقييم الموارد الطبيعية للعالم يمكن الاتجاه الى المسوح التى نشرتها حديثا هيئة الامم المتحدة كالاجزاء الستة الخاصة باعمال المؤتمر العلمى للامم المتحدة لحفظ واستخدام الموارد ( ١٧ اغسطس - ٦ سبتمبر ١٩٤٩ ) .

Proceedings of the UN Scientific Conference on the Conservation and Utilization of Resources (August 17—September 6, 1949).

وكذلك « محددات ونتائج الاتجاهات السكانية » ( ١٩٥٣ )

The Determinants and Consequences of Population Trends (1953)

وثمة كثير من المعلومات القيمة عن الموارد فى الاجزاء الخمسة التى يتألف منها تقرير لجنة بيلى Paley Commission ، وكذلك فى اعمال المؤتمر الاكاديمي الثانى لجامعة نورثوسترن

Proceedings of the Second Academic Conference of Northwestern University

وهو عبارة عن كتيب لطيف يحمل عنوانا يشبه عنوان هذا المقال « سكان العالم وموارد المستقبل »

World Population and Future Resources

## الطاقة الانتاجية للتربة :

يشتمل كتاب « محددات ونتائج الاتجاهات السكانية » على مجموعة طريفة من التقديرات المتعلقة بالطاقة الانتاجية للتربة او ( حمولة الارض ) ومعظم هذه المعلومات تبدأ بالانماط الحالية للاستهلاك ، وتقيس الطاقة الانتاجية للكوكب الذى نعيش عليه ، وذلك بالاشارة الى عدد السكان الذين يمكن تزويدهم بالغذاء اليومى الذى تتوفر فيه المواصفات الحالية من حيث الكم والكيف .

ولقد ذهب **اى ٠ م ٠ ايست** E. M. East منذ اكثر من ثلاثين عاما الى ان الارض يمكن ان تزود بالطعام ٥ر٢ بليون نسمة على اقصى تقدير . لقد توصل الى هذا التقدير بافتراض ان هناك ١٢ بليون فدان * متاحة لانتاج الغذاء العالمي ، وان الفرد يحتاج الى نحو ٥ر٢ فدان لسد احتياجاته ، وقد اعتبر هذا العدد ( ٥ر٢ بليون نسمة ) هو الحد الاقصى الذى لا يمكن تجاوزه ، وافترض ان الناس سوف يكتفون بالغذاء المحدود والضروريات المادية القليلة التي تمثل المستويات الحالية لدى القرويين في اوروبا ، والواقع ان ايست اسقط من الاعتبار امكانية استخراج كميات كبيرة من الغذاء من مصادر غير زراعية كالمحيط مثلا .

وبعد عشرين سنة قدر **ف ٠ ا بيرسون ، و ف ٠ ا هاربر** F. A. Harper الطاقة الانتاجية للتربة على اساس ان موارد العالم من الغذاء لا يمكن زيادتها زيادة محسوسة خلال جيل واحد ، وان الجنس البشرى يجب ان يوزع موارد الغذاء المتاحة على مستويات مختلفة حتى يمكنه البقاء . وقد استخدما المقاييس التي كانت سائدة في عام ١٩٤٠ وكمية الطعام التي تكفى سكان العالم حينذاك ( ٢١٧٠ مليون نسمة ) ، واستنتجا ان الارض يمكنها ان تمد بالطعام نحو ٨ر٢ بليون نسمة وفقا لمستوى الغذاء الاسيوى ، ١ر٢ بليون وفقا للمستوى الاوروبي ونحو ٩٠٠ مليون فقط وفقا لمستويات امريكا الشمالية . وعلى النقيض من ذلك يأتي **بورمان** Boerman فيقدم لنا تقديرات تتراوح بين ٦ر٥ ، ٣ر١٢ بليون نسمة وزعها على القارات ( بالملايين ) على النحو التالي :

| | |
|---|---|
| امريكا الشمالية والوسطى | ١٣٥١ر١ |
| امريكا الجنوبية | ٠٦٠ر٤ |
| اوروبا | ٧٧٨ |
| آسيا | ٨٥٢ر٢ |
| افريقيا | ٨٠٣ر٣ |
| استراليا | ٤٥٠ |

اما ١ . بنك A. Penck فانه يعطينا تقديرات تتراوح بين ٧ بلايين و ١٦ بليون نسمة ، في حين يعتقد **ا ٠ ف ويجمان** Wagemann انه عن طريق ادخال التحسينات الكافية في المجال الزراعى فان الارض يمكنها ان تقيم اود نحو ٢٠ بليون من السكان بكل سهولة . وهذه التقديرات تقوم على افتراض امكانية تكييف هواء المساكن في المناطق المدارية ، وتشجير السهول الروسية والتحكم في تيار الخليج الدافىء Gulf Stream ورى اراضي الصحراء الكبرى . والظاهر ان ويجمان نفسه لا يأخذ تقديراته بصورة جادة وانما يقدمها كنوع من التصور لما يمكن حدوثه في المستقبل البعيد . كذلك قدرت وزارة الزراعة في الولايات المتحدة القدرة المحتملة للزراعة وفرص التقدم الزراعى خلال العشر سنوات من ١٩٤٤ الى ١٩٥٤ مع عدم استبعاد حدوث اى

* في الاصل acre وهى وحدة قياس مساحية تعادل ٤٨٤٠ ياردة مربعة وهو اقل قليلا من الفدان .

تغيير جذري في التكنولوجيا الزراعية . فقد وجدت الوزارة ان الولايات المتحدة يمكنها توفير الطعام لنحو ٣٨٠ مليون نسمة تحت ظروف الحرب .

ويرى ر . م . سولتر R. M. Salter ان زيادة المساحة المزروعة مع استعمال التربة بطريقة افضل سوف يعطي ما يزيد على ضعف الانتاج العالمي من الحبوب واللبن ، واكثر من ثلاثة اضعاف محصول البطاطس والذرة والفواكه والخضر ، بالاضافة الى انتاج كميات اكبر من المواد الغذائية الاخرى .

ولم ياخذ سولتر في الاعتبار امكانيات التطورات الجديدة في اساليب استخدام التربة ، ولكنه اعتمد اعتمادا كبيرا على امكانية التوسع في زراعة التربة المدارية الحمراء في امريكا الجنوبية وافريقيا واندونيسيا والاراضي الواقعة في الجزء الشمالي من المنطقة المعتدلة الشمالية ، وقد طبق تجربة الفلبين على الاراضي المدارية غير المستغلة ، كما طبق تجارب الدول الاسكندنافية وفنلندا على الاراضي الهامشية في المنطقة المعتدلة .

**اما ل . د . ستامب** L. D. Stamp فقد قدم لنا تحليلا رائعا للقدرة الانتاجية للتربة ونورد هنا السطور الختامية لكتابه الممتاز :

Land for Tomorrow : The Underdeveloped World

« ان المناطق الزراعية في العالم في وقتنا الحالي تستطيع اذا امكن زراعتها زراعة مكثفة باستخدام احدث الاساليب المعروفة ان تزود نحو ثلاثة بلايين من السكان بما يحتاجون اليه من الطعام في مستوى غذائي مناسب . فاذا ما امكن استخدام نفس الاساليب في زراعة الارض التي لم تزرع بعد حتى الان او لم تستغل بعد بطريقة ملائمة ، فان الزيادة السكانية التي يمكن مواجهتها ترتفع الى عشرة بلايين نسمة » . . . « وفي نفس الوقت فان العلم يضيف باستمرار الى المعرفة الانسانية اشياء جديدة ، ولدينا من الاسباب ما يجعلنا نتوقع ان يساعد التقدم العلمي على تنشيط مشكلة الغذاء التي يحتاج اليها الجنس البشري وذلك اذا ما استطاع الانسان ان يتغلب على الحواجز التي يقيمها هو نفسه بين الامم » .



ولا شك ان غموض المفاهيم المتعلقة « بالارض » و « الارض المنزرعة » من ناحية ، والاختلافات في تقدير الحدود التي يمكن ان يحققها التقدم العلمي والفني في مجال الزراعة من ناحية اخرى هي مصدر الاختلاف في التقديرات الخاصة بامكانية الارض على تحمل السكان والتي تتراوح بين ٣ بليون نسمة وفقا لما ذهب اليه بيرسون وهاربر و ٣٠ بليون يمكن ان يعيشوا بكل سهولة حسب ما يقول ويجمان .

## مصدر التقديرات المثيرة الجدل :

لقد اوضح اريك زيمرمان Erich W. Zimmerman المعنى المزدوج لكلمة « الارض » اذ يقول : « ان **الارض** بمعنى السطح هي شيء ثابت ، بينما **الارض** بمعنى المجموع الكلي للمساهمة الطبيعية ليست شيئا ثابتا وانما ديناميا الى حد كبير ؛ انها لا تثبت عند شيء ابدا وانما تتغير باستمرار استجابة لتاثير الاتجاهات والافعال الانسانية المتغيرة وفوق كل شيء

استجابة للثقافة المتغيرة .. فليس ثمة علاقة بين مجموع سطح الارض ودراسة المصادر المتاحة تماما ، كما أن ليس ثمة علاقة بين مجموع المادة والطاقة فى الكون ، وذلك أن الذى يهم هو وظيفة Function ومعنى Meaning الارض ومظاهر الطبيعة الاخرى بالنسبة للانسان » .

وليس هناك من بين المشتغلين بدراسة الموارد العالمية فى الوقت الحالي من ينكر التفسير الدينامى الذى قدمه زيمرمان لمفهوم « الارض » كعامل متحكم فى تقييم « حمولة » الارض ، ولكن الاراء تختلف فى مدى ما يمكن أن تحققه « مرونة الارض » فى التنبؤات الاقتصادية الطويلة المدى .

فالدراسة التى قدمتها الامم المتحدة الى « الجمعية الامريكية للمحافظة على التربة » Soil Conservation Society of America عام ١٩٥١ افترضت امكانية الولايات المتحدة تزويد بليون من الناس بحاجتهم الغذائية اذا ماطبقت احدث الاساليب التكنولوجية واستخدمت اقصى ما تستطيع من الطرق الوقائية للتربة وتسميدها ، واذا امكن عن طريق اقامة سلسلة من السدود زراعة مساحة كبيرة من خليج المكسيك .

ومن الصعب علينا ان ننقل الراى القائل بان « الارض » سوف تنتج عام ٢٠٠٠ م نفس ما تنتجه الان ، لقد سألت دكتور نتنسون M. Nuttenson مدير المعهد الامريكى لايكولوجيا المحاصيل American Institute of Crop Ecology عن امكانية التوسع فى الانتاج الزراعى ، وسوف اقتبس هنا بعض مقتطفات اذن لى بنشرها من رسالته لى :

١ ـ على اساس الممارسات الحقلية الحالية والادوات الزراعية المستخدمة فى الدول ذات الكثافة السكانية العالية والتى تستخدم فيها الاساليب العلمية مثل اليابان فان انتاج الطعام فى الولايات المتحدة يمكن زيادته عدة مرات كلما جعلت الضغوط السكانية فى هذه الدولة ذلك امرا ملائما من الناحية الاقتصادية . وكذلك فان الممارسات وانواع النباتات المحسنة فى اليابان يمكن ان تزيد انتاج الطعام الى حد كبير فى كثير من البلاد .

٢ ـ ان محطات التجارب الزراعية لديها كمية ضخمة من المادة العلمية المؤكدة المتعلقة بكيفية زيادة انتاج المحاصيل ، ولكن نتائجها التجريبية لم تستخدم بعد لاسباب اقتصادية ( اعنى بها الانتاج الزائد Over Production فى السوق المحلية والافتقار الى القوة الشرائية فى الاسواق الخارجية ، والمنافسة بين مناطق الانتاج فى الولايات المتحدة والتى تتفاوت فيما بينها فى امكانية زيادة الانتاج وفقا للظروف البيئية . فعلى سبيل المثال نجد انه على الرغم من ان نبراسكا Nebraska يمكنها ان تضاعف انتاجها لكل وحدة من الارض فانها لم تفعل ذلك نظرا لان تكاليف الرى الاضافى والمخصبات الاضافية سوف تتجاوز تكاليف انتاج نفس القدر من المحصول فى ولاية ايوا Iowa مثلا حيث الامطار الوفيرة والخصوبة العالية للتربة ، والتى تسمح بعائد مرتفع من المحاصيل ، دون حاجة الى رى او مخصبات باهظة التكاليف ) .

٣ ـ ان الحد الاقصى من المحصولات يمكن الحصول عليه فى حالة الضرورة من مساحة محدودة من الارض عن طريق « الزراعة بدون تربة » اى « الزراعة بالماء » الذى اضيف اليه بعض المواد الغذائية Hydroponics . ان المسالة حتى الان مسالة اقتصادية بحتة الى حد كبير .

وان مرور الوقت وحده كفيل بان يبين لنا الى اى حد يمكن استخدام هذه الوسائل ، ولكنها بكل تاكيد سوف تسمح بالتوسع فى انتاج الغذاء دون الاكتراث او القلق فيما يتعلق بمساحة التربة المتاحة ، فانتاج الطعام النباتى يتطلب استخدام المحاليل الغذائية والحصى والرمل والمياه كوسائط للنمو ، ويعتبر الحصى الوسيط الاكثر انتشارا دون ان يكون لها غرض آخر سوى دعم النبات . ومن ثم فانه يمكن الحصول كل سنتعلي محصول وافر جدا دون ان نخشى من استنزاف التربة ، او تضويها او انهيار بنائها او التعرية او الفيضان او الجفاف ، او ما الى ذلك من مشاكل اخرى مشابهة كتلك التى تعرقل الزراعة التقليدية ، ولقد استخدمت هذه الطريقة وما زالت فى جيش الولايات المتحدة وقد حققت نتائج ممتازة . وقد تعجز هذه الطريقة عن منافسة الزراعة التقليدية اليوم ، ولكنها بكل تاكيد تفتح افاقا جديدة لانتاج الغذاء كلما وايتما كانت ندرة الارض تحول دون حاجة السكان ومتطلباتهم الاقتصادية .

٤ ـ ولا شك ان التركيب الضوئى الصناعى Industrial Photosynthesis لانتاج البروتين والدهنيات والكربوهيدرات Carbohydrates عن طريق استخدام كائنات نباتية ذات خلية واحدة Unicellular مثل الطحالب Chlorella يمكن أن تزودنا بمصدر جديد للغذاء من المحتمل ان تصبح له نتائج كبيرة فى الصورة العامة لاحتمالية انتاج المواد الغذائية للانسان والحيوان على السواء . ولاشك ان انتاج الغذاء بواسطة التصنيع البيولوجى ما زال فى مرحلة البداية ، وان انتاج الطحالب طبقا لما ذهبت اليه مؤسسة كارنجى Carnegie Institution فى واشنطن يمكن معالجته ببراعة من خلال السيطرة على المواد الغذائية بطريقة تختلف الى حد كبير من حيث طبيعة الانتاج الجديدة لهذه العناصر النباتية الدقيقة للنباتات ذات الخلية الواحدة ـ من ٥٦ ٪ بروتين الى ٨٠ ٪ دهنيات فى حالة الوزن الجاف . ومهما تكن نتائج الدراسة الحالية فمن الواضح ان ثمة عملية تعتمد على استخدام بعض الكائنات الحية لتزويد الانسان عن طريق بعض العمليات الصناعية ، وليس عن طريق زراعة الحقول بمصدر غذائى يقدم للانسان كميات هائلة من الطعام من مساحات محدودة من الارض وسوف يؤدى ذلك فيما يبدو الى تغيير وضع السكان تغييرا تاما .



٥ ـ هذا الانتاج التركيبى للمواد الجديدة والمتمثل فى احلال الالياف والبدائل الجديدة يوصى بان الارض المزروعة بالالياف او المحاصيل الاخرى يمكن ان تزرع بمحاصيل غذائية اذا استدعت الضرورة الاقتصادية ذلك ، وان انتاج الغذاء بطريقة تركيبية او شبه تركيبية ليس بعيدا كما يتبادر للذهن ، وقد يؤدى الى تغيير افكارنا التقليدية بطريقة جذرية فيما يتعلق باحتمال انتاج الغذاء فى العالم .

٦ ـ هذه الانجازات الحالية منها او المستقبلة فى مجال العلوم الطبيعية قد تفترض حدوث تغيرات ثورية وتحسينات فى امكانيات الانتاج المحاصيل ، وهى امكانيات يجب ان تؤخذ فى الاعتبار عند تقدير السكان وموارد الغذاء فى المستقبل . ومنذ عشر سنوات فقط لم يكن لدينا تسجيلات او تحليلات احصائية عن الحبوب يمكن ان تكشف لنا عن امكانية نتائج عملية التهجين او عن الثورة التى احدثتها هذه الظاهرة فى المحاصيل وبخاصة بالنسبة للحبوب . والى

اى مدى يمكن ان تمتد هذه الثورة الى المحاصيل الرئيسية الاخرى ، بل ان السجلات الاحصائية للانتاج فى الماضى لم تكشف عن المقتضيات المروعة لامراض النباتات واساليب مقاومة الافات واستخدام الهرمونات النباتية ، وكذلك التطور الثورى المرتقب كنتيجة لاستخدام الطاقة النووية Nuclear Energy فى مجالات زراعية عديدة ، والتى يمكن ان تجعل من الملائم اقتصاديا استخدام مياه البحر فى الاقاليم المجدبة وشبه المجدبة من العالم ، وتساهم فى اضافة مصدر من مصادر انتاج الغذاء لموارد الانسان الحالية .

٧ ـ ان استخدام الطاقة الشمسية Solar Energy الرخيصة لاغراض الرى اصبح امرا وشيك الحدوث فى المستقبل القريب

٨ ـ ان اساليب مقاومة الافات سوف تصبح قريبا اكثر فعالية ، كما ان احتمال السيطرة على الامراض فى تربية الحيوان ( كما هو الحال فيما يتعلق بالسيطرة على ذبابة التسيتسى Tsetse التى تصيب الماشية فى افريقيا ) اصبحت عالية ، وكذلك فان العلاج والادوية الوقائية اصبحت متوفرة بالنسبة لبعض امراض الحيوانات والدواجن الشائعة ، كما ان سلالة البراهما Brahma * تنبىء بتعديل اساليب تربية الدواجن والماشية فى الاقاليم الحارة من العالم .

٩ ـ ان الزراعة وكذلك بعض المظاهر البيولوجية الاخرى تخضع لتحسينات ضخمة ، وان معلوماتنا الاساسية تزداد بالتدريج ، وسوف تكون فى متناول الانسان فى وقت غير بعيد الذى سوف يأخذها فى الاعتبار دون شك ويستخدمها كأداة مشروعة لدراسة المشكلات السكانية فيما يتعلق بالحاجة الى الغذاء والتنمية الاقتصادية .



ثم هناك المحاولات المبدئية لحراثة البحر بدلا من الاكتفاء بجنى ثمار البحر . ففى اسكتلندا تم تسميد الفيوردات Fiords بنجاح وقد ترتب على ذلك زيادة محصول السمك الى حد كبير ، وقد تم ذلك عن طريق تحصين وتقوية مناطق مغلقة من المياه ، ترتب عليها نمو العوالق المائية Plankton والتى كانت تصطاد بواسطة سمك « المنوه » Minnows * ثم بعد ذلك استخدمت اسماك اخرى . وقد امتدت التجربة لتشمل مناطق اخرى من المياه المفتوحة غير المحصنة كما كان الحال فى التجارب السابقة . ولقد تعلمنا ان نزيد المحارات « الرخويات البحرية » Oysters بسرعة وذلك بالسيطرة على الكائنات الحية المتناهية فى الصغر .

ان وزارة الزراعة قدمت العديد من الخطط التى يستخدمها الفلاحون الآن فى اغراض مماثلة لاكثار مخزونهم من سمك القاروس Bass الذى يتواجد فى البرك ويظل فى افضل الظروف نحو ٣٠٠ رطل سنويا فى الفدان الواحد ، وفى اقصى الطرف الجنوبى لخليج سان فرانسيسكو حيث يتم تبخير مياه البحر للحصول على الملح ، وحيث تنمو الطحالب ثم تجمع هذه القشريات للحصول

---

* سلالة من الطيورذات الاصل الاسيوى ادخلت الى الولايات المتحدة فى سبتمبر ١٨٤٦ وقد انتشرت على نطاق واسع فى النصف الثانى من القرن ١٩ .

* سمك اوروبى صغير الحجم .

على البروتينات منها ، وكان من الممكن ان تتم هذه العملية باستخدام سمك « المنوه » لولا وجود « النورس » الذى يعيش على هذه الاسماك والذى يصعب جمعه مثلما تجمع القشريات .

يجب ان نتذكر دائما ان ضغط المطالب المتزايدة سوف يعجل بنمو واستغلال انواع جديدة من المحاصيل التى لا تحتاج الا الى قدر محدود من اشعة الشمس والرطوبة ، والتى يمكن زراعتها فى الاراضى الحدية وبخاصة فى المنطقة الممتدة على طول الحدود الشمالية للمنطقة المعتدلة الشمالية وكذلك فى الاراضى المرتفعة المدارية .

وسوف تزداد موارد الطعام فى الدول النامية زيادة ملحوظة عن طريق التحكم فى التلف الذى تلحقه الحشرات والحيوانات القارضة وامراض النباتات ، وكذلك عن طريق الاهتمام بتحسين امكانيات التخزين والنقل والتسويق .

كذلك فان صيانة التربة والمحافظة عليها يمكن ان يقضى على استنزاف الارض ، كما ان استصلاح التربة وخاصة الرى يمكن ان يجدد خصوبة المناطق المتآكلة والمستنفدة ، ويؤثر تأثيرا فعالا فى التوسعات الهامة فى الاراضى القابلة للزراعة ، وخير ما يساعد على ذلك فى المدى الطويل هو حسن استغلال مصادر المياه .

فى المجال المحلى المحدود فانه يمكن توجيه المياه الجارية نحو الاراضى الزراعية باستخدام الطرق والاساليب البدائية مثل السدود الصغيرة والقنوات ، اما على النطاق الاكثر اتساعا فان عملية الرى تتطلب كثيرا من التكاليف والانفاق للاعمال الهندسية ، ولو ان مثل هذه النفقات تصبح عديمة القيمة من الناحية الاقتصادية حين تتعرض الزراعة للانتاج الزائد عن الحد Over Production بينما يكون استثمار هذه النفقات اقتصاديا حين يزداد الطلب ازديادا كبيرا . علاوة على ذلك فقد ظهرت امكانيات جديدة نتيجة للربط بين وسائل الرى والتحكم فى الفيضان وتحسين الملاحة فى الانهار وانتاج القوى الكهربائية . وهذا التداخل المتعدد الاغراض فى الدورة الهيدرولوجية Hydrological Cycle فكرة جديدة نسبيا وقد بدات التجارب فى هذا المجال على نطاق واسع فى مشروع « وادى تنيسى » كما ان هذه الطريقة استخدمت بنجاح فى وادى كلومبيا ( مشروع الكولي الكبير ) Grand Coulee Project كذلك فان ثمة مشاريع اخرى طموحة بدا تنفيذها فى الهند ومصر ، كما ان بعض الخبراء يعتقدون أن رى الصحراء الكبرى مسالة يمكن تحقيقها وتنفيذها باستخدام الوسائل الفنية الحالية اذا توفر المال اللازم .

ومن وجهة النظر المتعلقة بالقدرة الانتاجية للارض فى المناطق المزدحمة بالسكان والمناطق الجافة الفسيحة ، فان كل نقطة من ماء النهر تصب فى البحر تعتبر خسارة فادحة . فباستثناء تيار الماء اللازم لدفع السفن فى الاهوسة عند مصب الانهار فان كل نقطة من المياه يمكن توجيهها الى الحقول وردها الى الدورة الهيدرولوجية خلال عملية البخر . والواقع انه يمكن تسخير التيارات الشديدة فى آسيا وافريقيا لتحويل الصحارى الى حقول خصبة وبساتين خضراء اذا ما توفرت الطاقة الرخيصة والتجهيزات الحديثة .

كذلك فان وجود مصادر جديدة للطاقة الرخيصة سوف يحل مشكلة تنقية مياه البحر وتوفيرها بكميات تكفى لرى الاراضى المتدة على الساحل الباسفيكى لامريكا الجنوبية والساحل الشمالى لافريقيا وبعض اجزاء من استراليا .

ان القدرة الانتاجية للارض تعتمد الى حد كبير على التقدم فى مجال القوة Power وعلى العلاقة بين تكاليف الطاقة Energy واسعار المحاصيل الزراعية ، واذا افلح تزايد الطلب على الطعام الافضل فى تحرير الزراعة فى المناطق المتقدمة تكنولوجيا من المخاوف المترتبة على الانتاج الزائد ، فانه سوف يمكن تكريس ملايين الكيلوواتات من القوى الكهربية لمشاريع استصلاح الاراضى الضخمة فى المناطق الاقل تقدما . ولقد اصبح التقدم فى استخدام الطاقة بمثابة العمود الفقرى لتنمية الصناعات الحديثة والمواصلات، فالمصادر الحديثة للطاقة امتدت الى الزراعة فى شكل كهرباء ومحاريث آلية ، والاغلب ان الخطوة التالية فى استخدام الطاقة فى الزراعة سوف تكون فى مجال استصلاح التربة واعادة توجيه الدورة الهيدرولوجية .

## موارد الطعام غير الزراعية :

يبشر الاستخدام المتزايد لمصادر الطعام غير الزراعية بزيادة اخرى فى قدرة الارض الانتاجية ، فموارد المحيط التى تغطى نحو ثلثى الكرة الارضية لم يكد الانسان يشرع فى استغلالها ولا يزال المحيط يمثل نوعا من التحدى للانسان، ومع ذلك فان اهتمام العلماء بكنوزه المخبأة يزداد بسرعة ، بل ان بعض الخبراء يعتقدون انه سوف يحين الوقت الذى يعتمد الانسان فى عيشه على المياه الى حد كبير ، وليس من المتوقع ان يصبح السمك مصدرا هاما للغذاء فى العالم، وذلك لان اسماك المحيط تخضع فى واقع الامر لقيود خطيرة ولكن الامل كبير فى الانتفاع بالاحياء الدقيقة الطافية فى المياه ، والخمائر والطحالب البحرية ومنتجات المحيط العضوية الاخرى المهملة .



وعلى اى حال فان المسألة ما زالت فى دور الاستكشاف التمهيدى ، ولكن جميع الخبراء يعترفون بان المحيط يضم مخزونا لا ينضب من البروتينات والدهنيات والكربوهيدرات التى يمكن فى نهاية الامر ان تتحول الى غذاء للبشر او علف للحيوان .

وسوف يضطر النقص فى مصادر الغذاء الاخرى الانسان الى ارتياد هذا المستودع ، وسوف يستخدم انتاج المحيط كعلف للماشية قبل ان يصبح صالحا لتغذية البشر مما سوف يساعد على تخصيص بعض الارض التى تستخدم الان فى انتاج العلف الحيوانى لزراعة المحصولات الغذائية ، كما سيمكن فى الوقت نفسه التوسع فى انتاج الاطعمة الوقائية اى اللحم ومنتجات الالبان بتكاليف زهيدة .

## المحاصيل الصناعية :

كذلك سوف تزداد قدرة الارض الانتاجية نتيجة للتقدم فى انتاج الالياف الصناعية والمطاط وما اليها ، كما ان التقدم الذى سوف تحققه فروع علم الكيمياء الان سوف يحرر جزءا من الارض التى تشغلها الان المحاصيل الصناعية كالقطن وبذرة الكتان .

ونحن الان فى المرحلة الاولى لهذه العملية ومن الصعب ان نتنبأ بكل مقتضياتها بالنسبة للاقاليم المتخصصة فى مثل هذه النباتات . فقد تنشب فيها اضطرابات اقتصادية حادة وقد يصعب استكمال اعادة تكييف الزراعة المحلية للاتجاهات التكنولوجية الحديثة مع نهاية هذا القرن ، ومع ذلك فيجب ان نأخذ فى الاعتبار دائما تأثيرها على قدرة الارض الانتاجية .

*** بعض التحفظات :**

بينما يعترف خبراء الامم المتحدة بامكانية زيادة الطعام من المصادر الزراعية وغير الزراعية زيادة بالغة ، فانهم يخففون من تنبؤاتهم المتفائلة باثارتهم لنوعين من التحفظات ، احدهما مرتبط بالصعوبات العملية والاقتصادية والاخر بالنظام السياسى للعالم . أما فيما يتعلق بالمعوقات العملية Practical obstacles المتعلقة بالتوسع فى الاراضى الصالحة للزراعة ، واستخدامها بطريقة افضل ، فان دراسة الامم المتحدة بينت ان الصعاب التى تجابه اى برنامج فعال من هذا النوع تصبح اكثر وضوحا عندما نحاول تعيين اى خطوات محددة بالذات لزيادة انتاج الغذاء فى مناطق معينة ، وفى هذه الحالة نجد ان الافتراضات او الفروض لا تجدى ليس فقط بسبب الصعاب الاقتصادية ، بل وايضا بسبب لا مبالاة الناس وشكوكهم وجهلهم ، يضاف الى ذلك ان الدراسة تؤكد ان التنمية لا يمكن ان تتحقق اذا ما كانت مجزاة ، وانما لابد من ان تكون عملية متكاملة تقوم على الاعتماد المتبادل بين الموارد والناس ، ومثل هذه الصعوبات لن تختفى بطريقة آلية نتيجة لتقدم العلم والتكنولوجيا .



الا انه يمكن تحدى هذا النمط من التفكير فالاقتصاد العالمى الحديث انما يقوم فى الواقع على نظم منفصلة ومجزاة ، ولم يكن التقدم الاقتصادى فى وقت ما عملية متكاملة منطقية ومخططة تخطيطا محكما ، وانما تحقق فى شكل وثبات او قفزات ، ونتيجة لسلسلة من التجارب المرتجلة تحت تأثير احلام الناس ، وتخميناتهم وطموحهم ، صحيح انها عملية فيها الكثير من الاسراف والضياع فلقد اجتاز الجنس البشرى طريقا متعرجا شاقا بحيث يمكن للمرء أن يزعم انه كان فى الامكان تحقيق نفس النتائج او افضل منها فى وقت اقصر لو ان التاريخ البشرى كان قد سار حسب خطة وضعتها سلفا لجنة من الخبراء ، ولكن لسوء الحظ فان التشكل الاقتصادى للعالم حدث بطريقة فجائية لم يمكن معها الدعوة لعقد مؤتمر من الخبراء فى مهد الاقتصاد الحديث ، ومن المحتمل ان تتخذ التنمية فى النصف الثانى من هذا القرن نفس الشكل « الفسيفسائى » المجزأ الذى اتخذته من قبل ، ولكن مع اختصار للجهود والتجارب الضائعة التى لن يستفاد منها فى المناطق التى تحاول اللحاق بالامم المزدهرة الحديثة .

انهم يستطيعون بلا شك الاستفادة من المنجزات العلمية والفنية التى تستخدمها هذه الامم ، وبالطبع فان « اللامبالاة الانسانية والجهل » تمنع امكانية التقدم الاقتصادى السريع فى المناطق المتخلفة ، ولكن فى ايامنا هذه ليس ثمة مكان للا مبالاة وانما الذى يميز هذه المناطق فى المرحلة الحالية هو الحركة الفعالة والمطالب الملحة من اجل التحسين والتقدم ، والرغبة العارمة للمعرفة .

وهذا الحكم الاخير تؤيده نسبة التوزيع المئوى للانفاق العام، وخطط التنمية ومشروعات المساعدات الفنية فى هذه المناطق ، فالميزانية المخصصة للتعليم العام فى بعضها اكبر من مثيلاتها فى الدول المتقدمة الحديثة ، والجدول التالى يبين النسبة المئوية لميزانية التعليم من اجمالى الميزانية القومية لعام ١٩٥١ فى بعض الدول المتقدمة والنامية .

| | | | |
|---|---|---|---|
| بنما | ١٩ر٩ | الارجنتين | ١٠ر٤ |
| شيلى | ١٦ر١ | السويد | ١٠ |
| سوريا | ١٦ | تركيا | ٩ر٨ |
| بيرو | ١٥ | ايرلندا | ٩ر٢ |
| جواتيمالا | ١٤ر٩ | ايران | ٨ر٩ |
| كوستاريكا | ١٤ر٧ | نيوزيلندا | ٨ر٧ |
| سيلان | ١٤ر٦ | فنزويلا | ٧ر٥ |
| مصر | ١١ر٦ | المملكة المتحدة | ٧ |
| جزر هايتى | ١١ | العراق | ٦ر٨ |
| المكسيك | ١٠ر٨ | البرتغال | ٦ر٥ |
| هندوراس | ١٠ر٨ | النرويج | ٦ر٣ |
| لبنان | ١٠ر٥ | النمسا | ٥ر٨ |

والجدير بالذكر هنا هو ان الدول المتقدمة الحديثة تقع فى اسفل القائمة ، ولا شك ان ترتيب هذه الدول قد يتغير عندما نعرض للميزانيات المحلية أو ميزانيات المقاطعات والاقاليم ولكن الحقيقة تظل ان الدول النامية غالبا ما تنفق على مدارسها البدائية من ميزانيتها العامة جزءا اكبر مما تدفعه الدول المتقدمة على نظام تعليمها المتطور الراقى .

ومن ناحية اخرى فان الاموال المخصصة للتعليم العام تحتل ايضا مرتبة عالية فى خطط التنمية الاقتصادية فى امريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا ، فبناء المدارس يعتبر بمثابة حجر الزاوية لتنمية المجتمع المحلى فى الهند مثلا ، كما ان المعلمين والتربويين يأتون فى قمة قائمة الموظفين الذين تطلبهم الدول المضيفة ، سواء من صندوق الخدمات الفنية للامم المتحدة او هيئة المعونة الخارجية بالولايات المتحدة .

وعلى ذلك فانه يبدو ان الديناميـة وليس اللامبالاة والجهل ستكون هي الاساس للتنبؤات الاقتصادية البعيدة المدى .

اما التحفظ الثاني الذى يثيره خبراء الامم المتحدة فلا يمكن دحضه ، فمعظم التقديرات الخاصة بانتاجية الارض تقوم على افتراض ان موارد الغذاء العالمية هي بمثابة مخزن واحد يمكن للجميع ان يسحبوا منه ، لكن الواقع ان هذا المخزن او المستودع مقسم الى حد كبير . ونظرا

لان الكثير من شعوب العالم لا يمكنهم الاستفادةمن بعض اجزاء العالم الهامة فان القدرة الانتاجية الفعلية للارض اقل بكثير جدامن قدرتها النظرية.

ان القول بان موارد الغذاء العالمية يمكـن انتضاعف ثلاث مرات مع نهاية هذا القرن لايعني باى حال انه في الخمسين سنة القادمة سـوفتمكن كل قارة من ان توفر لسكانها الغـذاء المناسب كما وكيفا ، بل الاكثر من ذلك ان هـذاالقول لا يعني ان كل بلد سوف ينتج من الغذاء ما يكفي سكانه ، او سوف يكون لديه الوسائلالمناسبة لاشباع احتياجاته من الطعام عن طريق الاسـتيراد من الخـارج .

وحتى اذا اخذنا باكثر التنبؤات تفاؤلا عـنالقدرة الانتاجية للارض فسوف تكون هنـاك في الاغلب مناطق شاسعة تعاني من النقص فيالطعام.ان تراكم الفائض في مناطق معينة قد يبطيء من التقدم الزراعي في تلك المناطق ويجعل المحصولالفعلي اقل بكثير من القدرة الانتاجية النظريـة للتربة ، بينما يؤدى الغذاء في مناطق اخـرىالى تعطيل التقدم الاقتصادى ، والى عـدم الاستقرار الاجتماعي .

ان القـدرة الانتاجيـة للتربة تفتح المجـالامكانية لحقيق التحسينات الهائلة في تغذيـة السكان المتزايدين في العالم ، ولكن هذا في ذاتهلا يحل مشكلة الجوع في العالم . ان اسـباب استمرار الفقر لا تكمن في نسبة حجم هذا الكوكبالى السكان الذين يعيشون عليه اوفي نسبةالزيادة الهائلة في عدد الافواه الجائعة الى حجم الكـرةالارضية ، وانما يكمن في النظم السياسية التـي لا تـسمح لكل الناس بان يستفيدوا من تكنولوجياالدول الاكـثر تقدمـا .

## الحاجة للمواد الصناعية الخـام :

لقد افترضنا ان حاجة العالم للسلع المصنعةقد تصل في عام ٢٠٠٠م الى اكثر من خمسـة او ستة اضعاف ما هي عليه الان . وهذا الفـرضالذى يتعلق بالطلب على المـواد الخام ياخـذ في الاعتبار الزيادة في حجم الانتاج الصناعي بنسـبـةمماثلة ، وبالطبع فان جميع فروع الانتاج لاتنمو بنفس المعدل ، وبالتالي فان الطلب على المـوادالخام المختلفة سوف يرتفع بطريقة غير متوازية ، وعلى ذلك فالمسالة اذن ليست ما اذا كان العرضالسنوى لكل مادة من المواد الخام يمكن ان تزداد بنسبة اكثر من خمس مـرات ، ولكـن ما اذاكان العرض بنسبة لجميع المواد ( المعروفة والتي لم تزل غير معروفة ) سوف تكفي لاشباع ومقابلةالنمو المتزايد في مجال الانتاج الصناعى .

## منتجـات الغـابة :

تعتبر الغابات الصنوبرية Coniferous Forests المصدر الرئيسي للاخشاب والمنتجات المرتبطة بها ، والمقدر ان محصولها السنوى يمكنان يصل الى اكثر من الضعف عن طريقاستغلالها بطريقة افضل ومع الاهتمام بتطوير الطـرق . كما ان استغلال الغابات ذات الاوراق العريضـة يساعد على زيادة المحصول الكلي الى ثلاثةاضعافالمطالب السنوية الحالية ، او حتى الى اكـثر من ذلك بتخفيض الفاقد من الانتاج ، وتعتمدالزيادة الاضافية على التقدم الذى تحققه زراعة الغابات والعناية بها ، وخاصة تنمية وتهجـينالاشجار السريعة النمو . ووفقا لراى الخبراء

فان تهجين الاشجار ربما يصبح امرا مألوفا في نحو عشرين عاما . كما هو الحال الان بالنسبة لتهجين الحبوب ، كذلك فان المزارع التجارية يمكن ان يتضاعف انتاجها مرتين او ثلاث مرات ما تنتجه الان من الاخشاب عن طريق النمو الطبيعي . وعلى ذلك فان امكانية مضاعفة انتاج الاخشاب خمس او ست مرات بالنسبة لحجم الاستهلاك السنوى الحالي مسألة ميسورة من الناحية الفنية ، ومع ذلك فان كثيرا من الخبراء يعتقدون انه قبل الوصول الى هذا المستوى من الانتاج فان الحاجة الى الاخشاب سوف تنخفض نتيجة الاستعمال الواسع النطاق للمواد الاخرى كالصلب ولدائن البلاستيك وما اليها .

## الوقود المعدني Mineral Fuels

ان الاحتياطي المعروف من الفحم الحجرى يمكن ان يفي بمطالب العالم واحتياجاته بالمعدلات الحالية للاستهلاك لنحو الفي عام قادمة ، وحتى في حالة ارتفاع معدل الاستهلاك السنوى الى نحو خمسة اضعاف او ستة اضعاف وفقا لتقديرات عام ١٩٥٠ فانه يمكن ان يفي بالحاجة لمدة قرون .

اما الاحتياطي المعروف من البترول والغاز الطبيعي فمن المحتمل ان يستنفد قبل نهاية هذا القرن ، ومع ذلك فان الخبراء يعتقدون ان الاساليب الجديدة للاستكشاف والانتاج تشير الى امكان اكتشاف حقول جديدة للنفط ، ويساعد على ذلك استخدام الاحتياطي المتاح بطريق افضل واستغلال بترول الآبار المهجورة ، وحتى في حالة الاستنزاف الكامل للآبار الحالية ، فان العالم لن يترك بدون وقود سائل كما عبر ذلك روبرت ا . ويلسون Robert Wilson بشركة ستاندرد اويل في انديانا حين قال : « سوف يكون لدينا موارد اخرى كالصخور البترولية والفحم والقطران والفضلات الزراعية بالاضافة الى الموارد الاساسية التي لا تنضب كالماء والهواء وضوء الشمس . ولعل الوسيلة النهائية للحصول على وقود سائل سوف تتوفر حين نبدأ بمحرك شمسى Solar Engine لتوليد الطاقة ، ويمكن استخدام القوة في التحليل الكهربى للماء الى عنصريه الرئيسيين الهيدروجين والاكسجين ، اما الهيدروجين فيستخدم لتحويل ثاني اكسيد الكربون Carbon Dioxide في الهواء الى اول اكسيد الكربون Carbon Monoxide وباضافة الهيدروجين الى اول اكسيد الكربون يمكن الحصول على الوقود السائل » .

## المعادن :

في الواقع ان الجنس البشرى لديه احتياطي لا ينضب من خام الحديد والمنجنيز والبوكسيت والمغنسيوم بالاضافة الى البوتاسا والفوسفات . اما الاحتياطي المعروف من المعادن الاخرى المألوفة كالنحاس والرصاص والزنك والقصدير والكروم فهو محدود ، وعلى افتراض ان ثمة مطالب سنوية متزايدة ومطردة فان الترسيبات التي اكتشفت سوف تنضب قبل نهاية هذا القرن .

ان التهديدات بالاستنزاف الذى يوشك على الحدوث انما هو بمثابة تحد خطير لبراعة الانسان ومهارته ، وان الاستجابة لهذا التحدى تكمن في الاستخدام الافضل للموارد المتاحة والتنمية المكثفة لها خاصة في الاماكن المتطرفة من العالم ، والاستفادة من المخلفات والبقايا ، والبحث عن المستودعات الجديدة واحلال المنتجات الكيميائية المستحدثة محل المواد النادرة .

فمنذ سنوات كان يبدو من المؤكد انه لم يعد ثمة مجال على سطح الارض لاكتشاف ترسيبات معدنية ضخمة كتلك التي عثر عليها في الخمسين سنة الاخيرة أو يزيد ، ومع ذلك فقد امكن الكشف عن مستودعات هائلة من البترول وخام الحديد ومعادن اخرى، مثل الترسيبات الحديدية الجيدة في فنزويلا وكندا وجنوب روديسيا ، وحقول النفط في كندا ، ومناجم الذهب الجديدة في مقارنتها بمناجم منطقة « الراند » الشهيرة في جنوب افريقيا ، والبوتاس واليورانيوم في الولايات المتحدة ودول اخرى كثيرة . ولا يزال البحث عن المعادن مستمرا بطريقة محمومة في كل انحاء العالم ، وقد ترتب على ذلك ان تغيرت خريطة المعادن لكوكبنا واشتملت على اقاليم نائية كان خبراء التعدين يجهلون حتى مجرد اسمائها منذ سنوات قليلة مضت .

اما اليورانيوم فهو عنصر جديد في اسرة المعادن ولقد كان وجوده منذ البداية امرا مشكوكا فيه في حوالى ستة انواع من المعادن، اما الان فان ما يزيد على مائة معدن معروفة تحوى في تركيبها على اليورانيوم ، عدا اربعة وعشرين معدنا آخر تشتمل على اليورانيوم بكميات تجارية .

وفي ضوء هذه التطورات الحديثة فان نضوب الموارد المعدنية في الارض في وقت قريب يبدو بعيد الاحتمال الى حد كبير ، ومن المؤكد ان الاحتياطي « المعروف » للمعادن التي تم اكتشافها قد ينضب ، ولكننا ما زلنا عند مدخل مخزن الكرة الارضية وما نعرفه عن كنوزها هو بغير شك جزء يسير مما لا نعرفه ، فنحن على سبيل المثال نعرف القليل جدا عن الموارد المعدنية التي تحويها مياه البحر او قاع المحيط .



## الطاقـــة :

قد يفترض المرء ان استهلاك الطاقة سوف يزداد بنسبة تتفق مع حجم الانتاج الصناعي ، ومع ذلك فمن المحتمل جدا ان زيادة الطلب على الطاقة سوف يصاحبها تقدم في وسائل او طرق استغلال مصادرها ، وفي ضوء انخفاض معامل كفاءة الطاقة في الاقتصاد الحديث انخفاضا كبيرا جدا فلن يكون من المبالغ فيه ان نزعم ان الانسان سوف يعرف كيف يحصل من نصف طن من الفحم او البترول على كمية من الطاقة تعادل على الاقل تلك التي يحصل عليها من طن كامل من احدهمـا .

وهذا الافتراض يوحي بان العالم في عام ٢٠٠٠م سوف يستهلك من المعادن ما يعادل ضعفين الى ثلاثة اضعاف ما يستهلكه الان .

ولا شك ان توزيع الطاقة المستخدمة بين المصادر المختلفة سوف يعتمد على التقدم في استخدام المصادر الجديدة ـ اى الاشعاع الشمسي Solar radiation والذرة Atom والسباق بينهما . فمنذ عامين او ثلاثة كان يبدوان الطاقة الشمسية Solar energy تتقدم غيرها في هذا المجال وكان خبراء الفيزياء النووية Nuclear physics يتوخون الحرص والحذر في تقديراتهم لمدى القدرة على استخدام الطاقة الذرية اقتصاديا ، ولكنهم ما لبثوا ان اصبحوا اكثر تفاؤلا نتيجة لظهور المفاعل الذرى المتعدد الاغراض Multiple Purpose Reactor والذى كان ظهوره بمثابة نقطة تحول في تفكيرهم ، كما ان غزو الذرة ودخولها الى مختلف نواحي النشاط

الاقتصادى فى العالم ، على اعتبار انها ارخص واغنى مصدر للطاقة ، مسالة سوف تتحقق فى وقت اقرب مما كنا نظن .

وحتى فى الوقت الحالي فاننا نستطيع ان نرى صورة اقتصاديات الطاقة فى نهاية هذا القرن سوف تكون مختلفة تماما من الشكل السائد الان ، ومن المحتمل ان يظل القرن التاسع عشر متحفظا بلقبه « قرن الفحم » . اما القرن العشرون فسوف يكون من الصعب ان نسميه « قرن البترول » لان من المحتمل ان يكون الوقود المستخلص من القشرة الارضية فى شكل سائل حدث قصير الاجل فى تاريخ الاقتصاد العالمي ، وسوف يمكن الحصول على كميات متزايدة من الوقود السائل من الفحم أو حتى من العوالق المائية ( البلانكتون ) ، واذا افلحت حضارتنا الآلية في البقاء والاستمرار فمن المحتمل ان يتمكن الانسان من ان ينتقل من مرحلة استخدام المقادير الضئيلة من الطاقة التى يلتقطها من هنا وهناك من سطح الارض الى مرحلة السيطرة الكاملة المحسوبة على الطاقة الموجودة فى بيئته ، اى فى الاشعاع الشمسي ــ وفى الرياح المتصلة به ــ وفى الذرة .

## طريق التقدم :

لقد عبرنا من الزيادة المتوقعة فى الطلب على الغذاء والمواد الخام فى حدود متوسط المعدلات السنوية للزيادة والتي تتراوح بين ٤ر١٪ الى ٢ر٢٪ للغذاء ، ومن ٥ر٢٪ الى ٤٪ بالنسبة للمواد الخام .

على اى حال فمن المحتمل ان التقدم الاقتصادى فى العالم سوف يتبع طريقا لا يشبه ــ الا فى النادر وعن طريق المصادفة البحتة ــ خطا بيانيا مئويا ذا ميل تدرجي .

ولا شك فى ان الاتجاه السائد في المطالب من اجل المواد الخام الصناعية ينعكس فى مؤشرات حجم الانتاج الصناعى .

فحجم الانتاج الصناعي الاوروبي زاد بنسبة اربعة اضعاف تقريبا ما بين عام ١٩٠٠ و ١٩٥٣ وقد كان متوسط معدل النمو خلال هذه الفترة كلها هو ٥ر٢٪ ، ولكن معدل الزيادة السنوية لم يصل الى هذا المتوسط اذ توقف هذا التقدم الصناعي ثلاث مرات نتيجة لقيام الحربين العالميتين والكساد الاقتصادى الذى وقع بينهما ، بينما حدث التوسع فى اربع موجات هي : من بداية القرن وحتى عام ١٩١٤ ، ومن عام ١٩١٨ الى ١٩٢٩ ، ومن عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٣٨ ، ثم من عام ١٩٤٤ الى وقتنا الحالي .

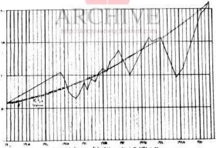
انظر شكل ( ١ ) ، وقد بلغ متوسط الزيادة السنوية فى فترات النمو ٤ر٤٪

قبل الحرب العالمية الاولى و ٦ر٦٪ فى العشرينات من هذا القرن و ٢ر٧٪ قبل الحرب العالمية الثانية و ٢ر١٠٪ من عام ١٩٤٦ الى عام ١٩٥٣ . والفترة التى ازدهر فيها الانتاج الصناعى خلال هذه السنوات الثلاثة والخمسين بثمانية وثلاثين سنة بلغ معدل التقدم السنوى والنمو اثناءها ٥ر٦٪ فى المتوسط ( انظر شكل ٢ ) ولولا تلك المعوقات التى تعرض لها ذلك النمو لزاد

الانتاج اكثر من عشرة اضعاف ما وصلت اليه هذه السنوات الثمانية والثلاثين . ومع ذلك فانه يمكن القول ان النمو السريع خلال فترات التوسع يرجع جزئيا الى ان كل زيادة ملحوظة كانت تبدأ من نقطة منخفضة جدا .

ولقد سار التقدم الصناعى فى الولايات المتحدة فى طريق مماثل ، ففى الفترة من ١٩٠٠ الى ١٩٥٣ تضاعف انتاج السلع الصناعية اكثر من ثمانى مرات ( انظر شكل ٢ ) وكان معدل النمو السنوى ١ر٤٪ فى المتوسط .

ولكن التقدم الفعلى لم يكن مطردا تماما كما كان الحال فى أوروبا وانما تعرض لنكسات خلال وبعد الحرب العالمية الاولى مباشرة ، بالاضافة الى فترة الكساد فى الثلاثينات ، كذلك تعرض تقدمه ونموه المزدهر خلال الحرب العالمية الثانية الى نكسة اخرى فى عامى ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦ اعقبها ارتفاع مفاجىء آخر .



معدلات الإنتاج الصناعى فى أوربا فى الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٢
شكل (١)

آفاق المعرفة

# طبيعة الانسان



زكريا فهمي

**طبيعة الانسان المزدوجة :**

ان انتماء الانسان الى المملكة الحيوانية يجعله مرتبطا ، من ناحية سلالته التطورية ، ارتباطا مباشرا بالكائنات الحية الاخرى ، وغير مباشر بالمادة اللا حية . ولكن حياة الانسان كما تعرفها اليوم بعيدة عن أصولها المنبثقة من عالمي الاحياء وغير الاحياء ، الى درجة انها تثير مشكلات لا توجد في بقية الخليقة . فعلى حين ان الانسان حيوان ، فمن الواضح انه حيوان غير عادي تنفرد حياته بميزات لا نظير لها . وعلينا في هذا المقال ان نضع نصب اعيننا دائما هذين الجانبين المتناقضين من طبيعة الانسان ، اولاهما : صفاته الحيوانية ، وانسانية حياته .

ان تعرفنا على الانسان عندما نصادفه ، سواء في الوثائق القديمة او الاماكن النائية ، ليس مشكلة . ومع ذلك فان كل معرفتنا الحالية لا تمكننا من ان نحدد على وجه الدقة تلك الخصائص التي ادت بالانسان الى ان يكون مخلوقا فريدا لا نظير له . فكل ما لديه من صفات وراثية او تطورية توجد لها نظائر ، ولو بصورة مبسطة ، في الصور الادنى من الاحياء . **صحيح ان قدرة الانسان على المشي منتصبا ، وتحرر طرفيه الاماميين من اجل استخدام اليدين ، وتقاطع مجالي بصره ،**

**وقدرته على الإبصار بالعينين معا ، وكبر كبرة مخه ، وطول فترة طفولته ، كل هذه صفات بيولوجية هامة تميز الانسان . ولكن هذه الصفات ليست تجديدات بيولوجية خاصة بالنوع البشرى وحده ، بل هي مجرد صور مبالغ فيها لاتجاهات تتمثل في كل القردة.**

ومن جهة اخرى ، فان صنع الادوات ، والتنظيم الاجتماعي ، والاتصال بالافراد الاخرين المنتمين الى الجماعة ، واكتساب السلوك المكتسب بالتعلم ونقله الى الآخرين – كل هذه مهارات لم يكن من الممكن بدونها ان يظل النوع الانساني باقيا ، ومع ذلك فهي توجد ايضا ، بقدر معين ، في انواع مختلفة من الحيوانات الادنى . بل ان صفات عقلية معقدة مثل القدرة على تكوين تصورات ، والغيرية ، تظهر في صورة بدائية بين الحيوانات العليا . وصحيح ان الانسان لا يمكن ان يصل الى التطور الكامل الا عن طريق الارتباط بأناس آخرين ، ولكن الحاجة الى الاتصال الفعال والانضمام الى الجماعة توجد ايضا في صورة غريزية بين الحيوانات العليا ، وهي ، في هذه الحيوانات ، تكاد تكون اولية بنفس القدر الذى تكون عليه الدوافع البيولوجية الاخرى.

**ومجمل القول ان ما يتميز به الانسان ليس صفاته البيولوجية والاجتماعية ، بقدر ما صنعه من هذه الصفات . فهو يختلف اساسا عن جميع انواع الحيوانات الاخرى بفضل منجزاته المتراكمة عبر الوف الاجيال .** ومن هذه الزاوية نجد ان الفيلسوف الاسباني اورتيجا اى جاسيه Ortega y Gasset كان على حق الى حد بعيد حين قال : « ليس للانسان طبيعة .. بل تاريخ فقط » ، ولكن هذا القول لا يعدو ، لسوء الحظ ، ان يكون ترديدا لنفس المشكلة بألفاظ اخرى ، اذ اننا سنظل بعد ذلك نود معرفة تلك الخصائص التي تتميز بها الطبيعة البشرية ، والتي اتاحت للانسان ان يكون له تاريخ .

ان حياة الانسان هي نتاج القوى الاجتماعية والثقافية التي صنعت التاريخ . وفضلا عن ذلك فان تاريخ كل شخص يضم ماضيه التطوري وتجاربه البيولوجية الخاصة. كما ان العوامل البيئية التي تؤثر في الصفات البيولوجية للافراد الذين يعيشون في ظلها تؤثر تأثيرا عميقا في تاريخ كل جماعة اجتماعية. فالانسان ، من ناحية ، يبدو مجموعة شديدة التعقيد من المواد العضوية التي تتشابه في تركيبها وخواصها الاساسية مع المواد الموجودة في جميع الكائنات الحية الاخرى ، بل في المادة غير الحية . ولهذا السبب ، يمكن دراسة جسم الانسان من حيث هو آلة تخضع تركيباتها وآلياتها لقوانين الفيزياء والكيمياء . ولكن الانسان ، من ناحية اخرى ، يتمثل على صورة كائن عضوى معقد ، يتجاوب مع بيئته على نحو فريد لا يمكن تفسيره بسهولة بواسطة الظواهر الملاحظة في المادة اللاحية ، او في بقية الانواع المنتمية الى عالم الاحياء . ذلك لان ما يتحكم في استجابات الانسان ليس هو التأثيرات المباشرة للمثيرات او المنبهات الخارجية على بنيانه الجسدى ، بقدر ما هو التفسير الرمزى الخاص الذى يفسر به كل شخص هذه المثيرات او المنبهات . صحيح ان النماذج الرموز التي يعمل عن طريقها العقل البشرى مستمدة من العالم الخارجي ، ولكنها تكتسب في النهاية حياة ذاتية مستقلة الى حد كبير عن اصلها الفعلي .

وهكذا فان طبيعة الانسان تشتمل على جانبين مختلفين الى حد كبير ، ولكن كلا منهما مكمل للاخر . فمعظم خصائص آلة الجسم مشاع بين جميع الافراد المنتمين الى **نوع**

**« الانسان العاقل »** Homo Sapiens وتكاد تطابق خصائص القردة العليا ، اى انه يمكن دراستها بنجاح بواسطة المناهج التقليدية الخاصة بالعلوم الطبيعية . ولكن كل شخص يتميز ، في نفس الوقت ، بخصائص مستمدة من تجاربه ونشاطاته الخاصة ، وهي سمات ينفرد بها عن جميع الاشخاص الاخرين . هذه الخصائص لا تخضع بسهولة للتحليل العلمي ، لان العلم لا يتعامل على نحو فعال مع الحوادث الفريدة . صحيح انه يمكن صياغة قوانين علمية عامة خاصة بنوع الانسان العاقل ، ولكن هذه القوانين لا تكون كافية على الاطلاق لتفسير تفرد كل فرد من افراد البشر ، او لتفسير منجزاته المنقطعة النظير .

وكما سنؤكد مرارا وتكرارا ، فان من المستحيل تماما تحديد او وصف الصفات البيولوجية التي تميز الانسان العاقل عن الحيوانات الاخرى ، وتميز كل شخص من جميع الاشخاص الاخرين . ذلك لان الاختلافات الفردية والجماعية دقيقة للغاية ، وتتضمن انماطا معقدة لا تركيبات او وظائف موحدة . وفضلا عن ذلك ، فان ايراد قائمة بهذه الاختلافات لا يمكن ان يعطي صورة كاملة للحقيقة . ذلك لان الجنس البشرى يختفي باطراد في عملية التحليل ولا يمكن فهمه الا ككل . وهذا ينطبق على الفرد مثلما ينطبق على الجنس البشرى سواء بسواء .

ولقد حقق العلماء تقدما مؤكدا نحو تحديد العوامل البيئية التي ادت في الماضي الى تمييز الجنس البشرى ، على نحو مطرد ، عن عالم الحيوان ، والتي تسهم اليوم في تفرد كل كائن بشرى على حدة . **وللتوضيح قوة هذه العوامل ، سنبحث في الصفحات التالية كيف تشكلت طبيعة الانسان بفعل البيئة الطبيعية والاجتماعية** . ان الادلة الانثروبولوجية تجعل من المرجح ان اسلاف نوع « الانسان العاقل » وكذلك طرائقهم في الحياة ، قد تطوروا في آن واحد اثناء العصور الجيولوجية عن طريق سلسلة طويلة ومعقدة من عمليات تبادل التاثير ( التغذية المرتدة Feedback ) . وبالمثل فان كل كائن بشرى يكتسب في الوقت الحاضر جزءا كبيرا من شخصيته عن طريق استجاباته للبيئة الكلية ، وخاصة اثناء السنوات الاولى التي تتشكل فيها حياته . ومن هنا ، فان طبيعة الانسان **لا يمكن وصفها** وصفا كاملا من خلال صفات سكونية ثابتة ، بل يمكن فهمها على احسن وجه بوصفها مظهرا لردود الافعال **على مؤثرات تعرض لها الانسان** اثناء ماضيه التطورى ، وخلال تجاربه السابقة .

وعندما نستخدم **كلمة التطور بالنسبة الى الانماط الحية** فانها **يمكن ان تشير الى ظواهر** شديدة الاختلاف ، **مثل : النمو الجسمي** والعقلي لكل شخص **على حدة ، والتحول** الداروني للانواع **البيولوجية ، والتغيرات** المطردة للبنايات **الاجتماعية والاقتصادية** . في جميع هذه الحالات **يدل التطور على دور العوامل البيئية في تشكيل النظام البيولوجي او الاجتماعي على المدى البعيد ، نتيجة للتعلم المكتسب من التجربة عادة . على ان عملية التغير هذه لا تحدث الا عن طريق مجموعة مختلفة من الاليات التى لا يجمع بينها الا القليل من السمات المشتركة .**

**وحتى لو بحثنا المشكلة من وجهة نظر بيولوجية صرفة** ، فان الاختلافات التى تظهر في الكائنات العضوية الحية تندرج تحت **فئتين متميزتين : الطفرات الوراثية** ، التي تؤثر في جوهر المادة الوراثية الموجودة في الكروموسومات ، **والتغيرات الظاهرية** ، التى لا تغير التركيب الوراثي بل تنشأ من استجابات الكائن العضوى كله للعوامل البيئية . وبمقتضى الصياغة التقليدية للنظرية الداروينية الجديدة ، فان الطفرات الوراثية وانتخاب او انتقاء البيئة

لها تفسر التغيرات المطردة التي تتعرض لها الانواع البيولوجية ، كما تفسر ظهور انواع جديده ، اما التغيرات الظاهرية فانها لا تؤثر الا في الكائن العضوى الفرد . على انه اخذ يتضح ان التفاعل بين الكائن العضوى والبيئه اشد تعقيدا بكثير مما تدل عليه هذه الصياغة . وقد اشار الى ذلك عالم الوراثة **وادينجتون** C. H. Waddington بقوله : « ان انماط السلوك تتحد بالظروف الخارجية من اجل تحديد طبيعة البيئه المؤثرة » .

ومن الحقائق الثابتة ان البيئة لا يمكن ان تقوم بدور العامل المنتخب ( الانتقالي ) ، وبالتالي لا تتحكم في التغيرات التطورية ، الا اذا اختار الحيوان ان يبقى فيها ويؤدى وظائفه لفترة تكفي لتكاثره . وبصفة عامة ، فان الحيوان يختار بيئة ما لانه يمكنه ان يتجاوب معها عن طريق تكيفات ظاهرية ناجحة . هذا العرض المبالغ في تبسيطه لمشكلة على جانب كبير من التعقيد يكفي للاشارة الى ان النظام التطوري يضم مفهومين : فهو لا يشتمل فقط على الطفرات والضغوط الانتقالية التي تتضمنها الداروينية الجديدة ، بل يشتمل ايضا على العمليات التي تقوم عن طريقها الحيوانات ، وخاصة الانسان ، باختيار وتغيير بيئة بعينها من جميع الامكانات البيئية المتاحة لها .

**هذا الراى الحديث الخاص بالتطور البيولوجي يبدو من بعض الجوانب انه قائم على فرض « لامارك » الذى لم يعد مقبولا ،** والقائل بان اى شكل مستمر من اشكال النشاط يحدث في النهاية تغييرا جسميا او عقليا مقابلا ، يمكن ان ينتقل من الوالد الى ذريته . ومما لا شك فيه ان هذا التفسير غير صحيح ، وان التطور البيولوجي يحدث دائما بواسطة عوامل وراثية وانتخابية . ولكن النقطة التي ينبغي ان نؤكدها هنا هي ان جميع الظواهر التطورية تتضمن عمليات تأثير متبادل ( تغذية مرتدة ) Feedback بين الكائن العضوى ، وبيئته ، واساليبه في الحياة . **ولعله من المفيد ان نوضح هذا المفهوم بمثلين ماخوذين من عالم الاحياء غير البشرية .**

ا ـ ان شكل بعض **الزهور** ملائم تماما للحشرات التي تتغذى عليها والتي تكون ، تبعا لذلك ، بمثابة ملقحات لها . هذه الدرجة العالية من التلاؤم بين الزهرة والحشرة الملقحة اقتضت بالتأكيد فترات طويلة من التطور استجاب خلالها النبات للمثير الذى اثارته اعضاء التغذية الخاصة بالحشرة . فزهرة البرسيم مثلا ، « يبدو » انها طورت صفاتها التشريحية عن طريق « استجابتها » للنحلة الثالثة ، وبالمثل فان زهرة الكرم يبدو انها تطورت نتيجة استجابتها للطائر الطنان . على ان دراسة حفريات النبات والحيوان تشير الى ان التلاؤمات المتبادلة بين الزهور والحشرات او الطيور تنبع من اصول ابعد واشد تعقيدا من ذلك . فالراى الحديث هو ان الزهور ، وزوارها من الحشرات او الطيور ، قد تطورت في آن واحد من صور بدائية . وفي المراحل الاولى من تطورها ، كانت قد اصبحت مترابطة بصلات غير قوية قبل ان تصل الى حالتها الراهنة من التطور بوقت طويل . وهكذا فان الحشرات والطيور ربما تكون قد قامت ، اثناء عملية تطوير انماطها السلوكية ، وعاداتها الغذائية واعضاء التغذية الخاصة بها ، بتحديد صفات الزهور التي تتغذى عليها وتلقحها . اى ان التلاؤمات ربما تكون قد تطورت عن طريق سلسلة من عمليات التاثير المتبادل ( التغذية المرتدة ) بين النباتات والحشرات او الطيور الملقحة ، على نحو اشبه بالارجوحة المتوازنة عند منتصفها .

ب ـ ويقدم السلوك الاجتماعي **لقردة الشمبانزى والغوريلا** دليلا آخر على تأثير **الآليات السيبرنطيقية في** التطور . ففي البيئة الطبيعية ، **بيئة الغابات** المستقرة ، التي تعيش فيها قردة الشمبانزى ، لا تنتظم هذه القردة في أسر ، أو مجموعات من الزوجات لفرد واحد ، أو غيرها من انماط الانظمة الاجتماعية المستقرة . بل تتحرك فرادى عبر مساحات شاسعة ، في جماعات كثيرة العدد ولكن دون ان يقودها قادة ، أو تربطها بعضها ببعض صلات دائمة . وعلى النقيض من ذلك ، فان الغوريلا **تعيش في جماعات** صغيرة دائمة يبقى افراد كل جماعة منها دائما على اتصال بعضها ببعض ، ويقودها عادة ذكر كبير فضي الظهر . ويعتقد الانثروبولوجي « فيرنون رينولدز Vernon Reynolds » الذي قام بملاحظة قردة الشمبانزى والغوريلا في الغابات الافريقية ، **بان** اختلافات النظام الاجتماعي بين هذين النوعين يمكن ارجاعها الى عاداتها الغذائية . **وعلى حد تعبيره** فان قردة الشمبانزى تكون « اسعد ما تكون عندما تلتهم الفواكه لمدة ساعات في كل مرة وهي على ارتفاع عال فوق قمم الاشجار » . ونظرا الى انها تعيش اساسا على الفواكه الكبيرة ، فانها لا بد ان تتفرق فوق مساحات كبيرة حتى تجد ما يكفي لتأكله ، ومن هنا كان نظامها الاجتماعي المشتت غير المتماسك . اما قردة الغوريلا فهي ، على النقيض من قردة الشمبانزى ، آكلة للعشب لا للفاكهة ، اى ان مصادرها الرئيسية للغذاء هي السوق اللبابية ، والاوراق والجذور واللحاء ، اما الفواكه فانها بالنسبة اليها ليست اكثر من اغذية اضافية . ونظرا الى انها محاطة دائما بغذاء وفير في بيئتها المدارية الخصبة ، فانها يمكن ان تتغذى اينما ذهبت دون ان تتحرك بعيدا ، ويمكن ان تحتفظ بنظام **اجتماعي** مستقر . وفي النهاية اصبحت انماط **السلوكية المميزة** لقردة الشمبانزى والغوريلا ، والعوامل المحددة لنظامها الاجتماعي ، جزءا لا يتجزأ من التكوين الوراثي الخاص بكل نوع من هذين النوعين .

لقد كان **لامارك** يعتقد ان سلوك الكائن العضوى يحدد الى حد كبير الحالة البيئية التي يتطور فيها والتي تتكيف معها ذريته . ومن هنا ، فان النظرية القائلة بأن العادات والاذواق الغذائية كان لها أثر فعال في تحديد النظام الاجتماعي لقردة الشمبانزى والغوريلا ، هذه النظرية تذكرنا بافتراضات لامارك . وكما اوضح وادينجتون فان هذا التفسير شبه « اللاماركي » لورائيات الجماعة ليس الا امتدادا سيبرنطيقيا للمذهب الداروينيالجديد القائل بان التغيرات التطورية تحدث بواسطة الطفرات والانتخاب . هذا المفهوم السيبرنطيقي يبدو متمشيا مع كثير من الحقائق الخاصة بتطور الانسان . وكما **سنرى الآن ، فان من المرجح ان البيئات التي عاش فيها اسلاف الانسان اثناء العصر الحجرى القديم حددت اوجه النشاط التي مارسها هؤلاء الاسلاف ، وهذا بدوره ، حدد في النهاية الجبلة الوراثية التي تميز الجنس البشرى في الوقت الحاضر .**

• • •

## ماضي الانسان التطورى :

ان اى ملاحظ ، مهما بلغت سطحيته ، يمكنه ان يدرك ان الانسان يمت بصلة الى الحيوانات الاخرى ، وخاصة القردة العليا ؛ ولكن العلماء يختلفون في تحديدهم الدقيق لطبيعة هذه العلاقة . فمعظم البيولوجيين يؤثر فيهم ، بطبيعة الحال ، الاستمرار والتسلسل الواضح في عالم الاحياء بأسره ، ويركزون اهتمامهم على جوانب الانسان التي

تكشف انه نتاج اتجاه تطورى متصل . وهم يعتقدون ان الانسان والقردة العليا قد تطوروا من سلف مشترك فى الماضي البعيد ، ولذلك فانهم يبدون اهتماما باوجه الشبه فى التركيب التشريحي ، والخصائص الفسيولوجية ، وانماط السلوك الناتجة عن هذا النسب المشترك . وعلى النقيض من ذلك ، فان علماء الاجتماع وعلماء الانسانيات يركزون اهتمامهم على الجوانب الاجتماعية الثقافية من حياة الانسان ، وهي الجوانب التي فصلت الانسان عن بقية المخلوقات بل عن القردة العليا ذاتها. **فمميزات الانسان الهامة ، فى نظر هؤلاء العلماء هي تلك الصفات والنشاطات التي تجعله مختلفا عن الحيوانات ، لا من حيث الدرجة فقط ، بل من حيث النوع اساسا .**

**وعندما يقول البيولوجيون ان التطور قد تجاوز ذاته في عملية انتاج الانسان ، فانهم يعترفون بصعوبة المفاهيم التي يستخدمونها فى هذا الصدد .** ذلك لان اية محاولة لاثبات الطريقة التي يمكن ان تكون الصفات المميزة للانسان ، كاستخدام الرموز واللغة او امتلاك شعور واخلاق ، قد نشأت بها من تحول تطورى لصفات بيولوجية صرفة ، تقابل دائما بالرفض القاطع . وهكذا اضطر الانثروبولوجيون لكي يفسروا الانقطاع الواضح بين الانسان والحيوانات ، ان يضعوا ، فى العشرينات من هذا القرن « نظرية النقطة الفاصلة » . وبمقتضى هذه النظرية ـ التي اصبحت الان لا تحظى بتأييد ـ فان حادثة مفاجئة في النشوء النوعي للرئيسيات (١) هى التي اعطت البشر الاوائل القدرات اللازمة لتكوين ثقافة . وقد كان الانثروبولوجي الامريكي « الفرد كروبر Alfred Kroebor » يعلم تلامذته انه حدثت طفرة فاصلة ، اثرت على الارجح فى جزء محدود من قشرة المخ ووهبت احد افراد الانسان القرد القدرة على ايجاد تعميمات من حقائق منفصلة وابتداع رموز ، ومن ثم جعلته اكثر فعالية فى التعلم من التجربة وفى توصيل معرفته الى افراد جماعته . وبمقتضى هذا الفرض فان الثقافة بدات بنشاطات انسان فرد انعم عليه بمواهب جديدة . وما ان بدات هذه الثقافة حتى استمرت ، نظريا ، فى النمو باطراد كقوة مستقلة عن التطور العضوى .

**وهناك عدة ادلة تشير الى ان نظرية النقطة الفاصلة غير صحيحة او ناقصة الى حد كبير على الاقل .** فقد اسفر البحث عن بقايا الانسان الحفرية عن دليل من اقوى الادلة الداحضة لهذه النظرية . ذلك لان اكتشاف عدد من الاشكال الحفرية التي تؤلف سلسلة متصلة يجعل من المستحيل وضع حد فاصل بين اللاانسان والانسان على اساس تشريحي . ولما كانت اجسام البشر قد تطورت تدريجيا من شكل لا انساني شبيه بالقرد الى شكل الانسان الحديث ، فان من الارجح ان عقل الانسان قد تطور بالتدريج ايضا ، لا عن طريق طفرة مفاجئة . وفضلا عن ذلك ، فانّ نظرية النقطة الفاصلة الخاصة بظهور الثقافة كانت تقوم على افتراض يبدو معقولا للوهلة الاولى ولكنه مناقض للحقائق المعروفة . فالواقع ان الافتراض القائل بان الجوانب الاجتماعية لحياة الانسان بدات « بالانسان العاقل » ، وهو النوع الذى ننتمي اليه ، يناقض كل الادلة الحديثة التي تشير الى ان هذه الجوانب كانت موجودة فى صورة بدائية فى الاسلاف الذين مهدوا لظهور الانسان .

(١) الرئيسيات Primates هي اعلى رتبة من رتب الثدييات ، وتضم الليمورات lemurs والسناسيس monkeys والقردة العليا apes والانسان .

وقد كان الانثروبولوجيون يعتقدون ، حتى وقت قريب ، ان الانسان البدائي جسميا وثقافيا هو الذى اخترع الاسلحة والادوات الأولى ، وارسى قواعد الاشكال الاولية البسيطة للتنظيم الاسرى والاجتماعي . هذا الانسان السابق للانسان الحديث كان يفترض انه يشبهنا اساسا من الناحيتين التشريحية والعقلية . ولكن الادلة الانثروبولوجية الحديثة تشير بقوة الى ان كثيرا من الصفات التي كان ينظر اليها على انها مميزة للانسان انما ترجع الى تاريخ سابق لتاريخ « الانسان العاقل » ، بعدة مئات الألوف من السنين . ويبدو ان السلوك البشرى ظهر تدريجيا من طرق حياة الاسلاف الذين مهدوا لظهور الانسان . والواقع ان هذه المخلوقات المبكرة تختلف عنا ليس فقط في العقل ، والسلوك ، والنظام الاجتماعي ، بل ايضا في التركيب ، وهذا الاختلاف كبير الى درجة اننا ما كنا نتجرؤ على ادعاء انهم بشر مثلنا لو انهم كانوا موجودين اليوم . وقد كان مخ اسلاف الانسان هذا بصفة خاصة اصغر كثيرا من مخنا .

**وينبغي ان نعترف بان اى قول يتعلق بظهور الانسان انما هو قول تخميني على احسن الاحوال .** ذلك لان البقايا الحفرية الخاصة بطلائع الانسان العاقل نادرة وغير كاملة الى درجة لا بد معها ، اذا كنا نتوقع ربط هذه البقايا في سلسلة نسب متصلة ، من احلال الخيال في كثير من الاحيان محل المعرفة الفعلية . على ان هناك حقيقة واحدة مؤكدة على الاقل . تلك هي ان الانسان لم ينشأ من احد القردة العليا الموجودة اليوم ، بل هو ، على احسن الفروض ، احد ابناء عمومتها الأبعدين . وعلى قدر ما يمكن التقدير ، فان خط التطور الذى نشأ منه الانسان انشق من خط القرد الاول منذ وقت بعيد يرجع الى العصر الميوسيني ( الأوسط ) . ولسوء الحظ ، فقد اعقبت ذلك العصر فترة طويلة خالية تماما من الحفريات التي يمكن تحديد زمانها بدقة . ونظرا الى انه لا يوجد حتى الان تعريف بيولوجي محدد للانسان ، فان من المستحيل على اساس المعايير البيولوجية وحدها ، تحديد تاريخ لظهوره ، حتى لو كان هذا التحديد تقريبيا . والواقع ان الملجأ الوحيد المتاح امامنا هو التعرف على الصفات الشبيهة بصفات الانسان في بقايا ما قبل التاريخ .

لقد كان يعيش في شرق افريقيا الوسطى وجنوب افريقيا ، منذ نحو مليوني عام اثناء العصر البلستوسيني ( الأجد ) ، نوع من الرئيسيات العليا ، انقرض الان ، يطلق عليه اسم «القرد الجنوبي» Australopithecus هذا الحيوان الرئيسي كان يمتلك عددا من السمات توحي بالطابع البشرى . ويرى علماء الانثروبولوجيا ان « القرد الجنوبي » كان شبيها بالانسان الى درجة تكفي لتصنيفه بوصفه فرعا قديما من فصيلة البشر Hominidae لا بوصفه عضوا في فصيلة القردة Pongidae . ويبدو انه كانت توجد في نفس الوقت عدة انواع من انواع القرد الجنوبي ، كانت تختلف من ناحية الحجم وبعض السمات القليلة الاهمية ، ولكنها كانت تشترك كلها في عدد من الصفات المميزة . فتركيب عظامها الحوضية يدل على انه كان بمكنتها جميعا ان تمشي منتصبة القامة . كما ان انيابها يظهر بها ذلك الاختزال المميز لأنياب الانسان ، الامر الذى يشير الى ان هذه الانياب لم تكن تستخدم في التقطيع والتمزيق على نفس النطاق الواسع الذى كانت تستخدم به في الصور التطورية للقردة الاقدم عهدا . وربما كان التغير في تركيب الاسنان مصحوبا بتغير في العادات المعيشية ، وخاصة استخدام

الادوات . فقد وجدت في احدى طبقات « اولدوفاى Olduvai » الشهيرة في شرق افريقيا بالقرب من بقايا حفرية للقرد الجنوبي ادوات ركيكة الصنع يقدر عمرها بمليون وثلاثة ارباع المليون من السنين . على ان احتواء هذه الطبقة ايضا على بقايا شكل آخر معاصر للقرد الجنوبي ، انما يلقي الى حد ما ظلالا من الغموض على مغزى هذا الكشف. ولما كان هذا الشكل الآخر اشبه الى حد ما من الناحية الجسدية بالانسان الحديث ، فانه يعرف باسم « الانسان البارع » Homo habilis ، والواقع ان عددا كبيرا من الانثروبولوجيين يشكون في ان القرد الجنوبي كان حقا سلفا مباشرا للانسان ، وينظرون اليه على انه خط جانبي للتطور اختفى في نهاية الامر . **وربما كان « الانسان البارع » قد تطور تدريجيا الى « الانسان المنتصب** Homo erectus **ثم الى « الانسان العاقل » . ولكن هذا ، ايضا ، موضع شك .**

والواقع ان عبارات : « القرد الجنوبي » او « الانسان البارع » او « الانسان المنتصب » مضللة الى حد ما ، لانها تدل ضمنا على انواع محددة انحدر منها « الانسان العاقل » في خط مباشر . على ان الحقيقة الوحيدة المؤكدة هي انه كان يوجد اثناء العصر البلستوسيني عدد كبير من الرئيسيات العليا ، كل منها شبيه بالانسان الى درجة تكفي لان يكون سلفا ممكنا « للانسان العاقل » فهذه الرئيسيات جميعا كان لديها ، على ما يبدو ، بعض الصفات المميزة للانسان : كالوقفة المنتصبة ، والمشي على قدمين ، وامكانية استخدام اليدين في معالجة الاشياء . والنقطة التي ينبغي تاكيدها هنا هي ان انواع الانسان القرد كانت لديها ، على الارجح ، القدرة على صنع واستخدام ادوات حجرية بدائية منذ وقت بعيد يرجع الى مليوني عام .

وهناك هوة سحيقة بين البقايا الحفرية التي وجدت في موقع « أولدوفاى » بشرق افريقيا ( الانواع المختلفة من « القرد الجنوبي » و « الانسان البارع » ) ، وبين حفريات الانواع المختلفة التي يطلق عليها اجمالا اسم « الانسان المنتصب » ، والتي ينظر اليها بصفة عامة على انها اسلاف مباشرة للانسان ، وان لم يكن ذلك رايا يتفق عليه الجميع . ويبدو الاختلاف بينها واضحا بصورة خاصة فيما يتعلق بالمخ . فسعة تجويف مخ القردة الجنوبية كانت لا تزال في الحدود الخاصة بالقردة العادية ، ويبدو ، فضلا عن ذلك ، ان المناطق الجدارية والجدارية الصدغية لأمخاخها كانت ضعيفة النمو . ولهذا الاكتشاف اهمية خاصة اذا عرفنا ان هذه المناطق هي التي تضطلع بعملية ابتداع الرموز . والواقع ان القدرة على وضع الرموز هي اكثر الصفات تمييزا للانسان ، لانها قامت بالدور الاكبر في تطوير ثقافاته .

وقد كانت عدة سلالات من « الانسان المنتصب » تعيش اثناء العصر البلستوسيني الاوسط ، منذ مليون عام تقريبا . وقد اطلق على بقاياها الحفريه ، التي وجدت في اجزاء مختلفة من آسيا وربما في اوروبا ايضا ، اسماء مختلفة مثل : « الانسان القرد » ( انسان جاوه القرد ) Pithecanthropus و « انسان الصين » ( انسان بكين ) Sinanthropus و « انسان الاطلسي » Atlanthropus . وكانت امخاخها اكبر، واسنانها اصغر باستمرار من امخاخ واسنان « القرد الجنوبي » . بل الاهم من ذلك ان اقدم دليل على استخدام النار والسيطرة عليها ، وهو على الارجح اول عمل تكنولوجي رائع انجزه الانسان ، وجد مصاحبا لبقايا « الانسان المنتصب » في الصين ( انسان بكين )

وعلى الرغم من انه لا يوجد دليل حفري يوضح الانتقال بين « الانسان المنتصب » و « الانسان العاقل » ، فان معظم دارسي الانسان القديم يعتقدون ان سلسلة النسب كانت مباشرة ، حتى دون معرفة الخطوات التي ادت من الانسان المنتصب الى الانسان الحقيقي .

وقد امكن التعرف ، لأول مرة ، على الانسان العاقل في العصر الحجري القديم في صورة السلالات « النياندرتالية » Neanderthal المختلفة . فمنذ مائة الف عام ، كان بشر نياندرتال موزعين على جزء كبير من أوروبا الغربيه ، وانتشروا قطعا حتى فلسطين وتركستان . وكانوا ، في المتوسط ، اصغر الى حد ما من الانسان الحديث ، كما كانوا يختلفون عنه في عدد قليل آخر من الصفات غير الهامة . فقد كانت جباههم منخفضة ، وعظامهم الجبهية متراجعة ، وحواجبهم كثيفة وبارزة . وعلى الرغم من شكل جماجمهم ، فقد كانت سعة هذه الجماجم كبيرة جدا بالنسبة الى حجم اجسامهم ، اذ كانت تتراوح بين ١٢٠٠ و ١٦٠٠ سم مكعب . ولا يعرف الا القليل عن طريقة حياتهم ، اللهم الا انهم كانوا يدفنون موتاهم ، وهذا دليل على صورة ما من صور الاهتمام بالأمور القصوى ، الذي هو بلا شك اصدق صفة بشرية واكثرها غموضا على الاطلاق .

والواقع ان سلالة الانسان العاقل المعروفة باسم « الكرومانيونية » Cro-Magnon وهي مماثلة بيولوجيا للانسان الحديث ، عاشت في نفس الوقت الذى عاشت فيه السلالات النياندرتالية . ولاسباب غير معروفة تماما ، قامت هذه السلالة اما بالتخلص من تلك السلالات ، واما باحتوائها عن طريق التزاوج المختلط . وهكذا فان الانسان ، بصفاته التشريحية وملكاته العقلية الحالية ، اصبح وطيد الاركان منذ نحو مائة الف عام ، ومن ذلك الوقت فصاعدا يمكن التحدث عن الثقافات البشرية الحقيقية . ولقد وجدت في اجزاء مختلفة من اماكن العالم التي جرت عليها عملية التطور التي بلغت اوجها بظهور « الانسان العاقل » انواع مختلفة من الادوات وكثير من المقابر ، والتحف والمصنوعات الفنية .

وعلى حين انه لا يزال امامنا ان نتعلم الكثير فيما يتعلق بالمراحل النهائية لعملية التطور التي بلغت اقصى مداها بظهور الانسان العاقل ، فقد أصبح في وسعنا ، خلال العقود الزمنية القليلة الماضية ، ان نصدر حكما عاما على جانب كبير من الاهمية . ذلك الحكم العام هو ان فصيلة البشر اخذت تتخلص من حيوانيتها ، وتتخذ الطابع الانساني ابتداء من القرد الجنوبي على وجه الاحتمال ، ومن الانسان المنتصب على وجه اليقين تقريبا . ومن هنا فان هذا التحول بدأ قبل وقت طويل من وصول الانسان العاقل الى المظهر المورفولوجي المميز للانسان الحالي ، وخاصة فيما يتعلق بحجم المخ . ومما لا شك فيه ان الانسان ظل يتطور جسديا اثناء نفس الفترة التي كان يطور فيها اساليب الحياة ، التي يمكن ان تؤدى الى ظهور ثقافات انسانية . وعلى قدر ما يمكن التقدير ، فان تطوره الجسدى كان قد تم بحلول الوقت الذى كانت فيه جماعات الانسان العاقل ، التي عاشت في أواخر العصر الحجرى القديم قد وطدت الثقافة الكرومانيونية في اوروبا منذ نحو ٣٥٠٠٠ عام .

وتقول الاساطير ان الانسان الكرومانيوني كان في صورة « سوبرمان » ، اطول واجمل بنيانا ، واكرم محتدا من اى انسان يعيش في الوقت الحاضر . والواقع ان من الصحيح ان عددا كبيرا من الهياكل العظمية التي اخرجت من المقابر ، والتي تخص الانسان الكرومانيوني

تشير الى ان طول هذا الانسان في الحالة الحية **اكثر من ستة اقدام**، ولكن هذه القامة الفارعة لم تكن القاعدة. وربما لم يكن الرجال الطوال **اكثر شيوعا بينهم منهم بيننا**. والامر **المؤكد هو** ان الثقافة الكروماليونية كانت على درجة عالية من التطور. فقد كان الناس في ذلك العهد يدفنون موتاهم، في وضع جاثم احيانا، ويزينونهم بالاخضبة والحلى المختلفة. ولضم بعض مدافنهم اشياء مستوردة من اماكن بعيدة، مما يدل على انه كانت توجد تجارة وطيدة حتى في ذلك العهد القديم.

**وقد اعلن تقرير روسي في عام ١٩٦٥ عن اكتشاف هيكل عظمي بالقرب من موسكو عمره ٢٥٫٠٠٠ عام**، وكان هذا الهيكل مرتديا سروالا وقميصا من الفرو، ومزينا بخرز وسوار من عاج الماموث (فيل قديم بائد)، وكانت اليدان مستقرتين معا عند الخصر، كما كانت المقبرة مكتظة بانواع مختلفة من الادوات. فمما لا شك فيه، الان، ان الانسان الكرومانيوني كان منشغلا بالمستقبل، وانه اكتسب احدى الصفات المميزة للانسان الحديث والضرورية لنمو الحضارة. والواقع ان كثيرا من الصور الملونة والرسومات **والنقوش، والتماثيل المنحوتة الموجودة في** اجزاء كثيرة من اوروبا الجنوبية والمعروفة عامة باسم فن الكهوف تنسب عادة الى الانسان الكرومانيوني. واذا كانت هذه النسبة صحيحة، فان هذه الاعمال الفنية تثبت ان قدرات هذا الانسان الفنية بلغت مستوى رفيعا، كما تشير بقوة الى انه شارك في طقوس دينية معقدة، وهذا دليل آخر على قلقه على المستقبل وانشغاله به.

وتبين الحفريات انه حدثت اثناء المراحل الاخيرة للتطور الذى اوجد الانسان العاقل، تغيرات على جانب كبير من السرعة في حجم المنطقة الجدارية والجدارية الصدغية للمخ، وهي تغيرات حدثت في وقت واحد مع استخدام الاسلحة وغيرها من الادوات على نطاق اوسع. ومن المرجح الى حد كبير انه حدثت في نفس الوقت زيادة في تعقيد طرق الحياة، والنظام الاجتماعي ووسائل الاتصال، ولكن ليس من الممكن اثبات ذلك على نحو قاطع. **ومجمل القول ان في وسعنا افتراض ان تطور اليد، وزيادة حجم المخ وتعقيده، وتنوع استخدام الادوات، وظهور اللغة وانتشار الثقافة البدائية، كلها حدثت في نفس الوقت واثرت بعضها في بعض.**

ولما كان عدد كبير من التغيرات في طبيعة الانسان وطرق حياته قد حدث في وقت واحد، وكان مرتبطا بعلاقات متبادلة، فان من الجدير بالاهتمام ان نمعن الفكر في العمليات الآلية التي ادت الى هذه العلاقات المتبادلة.

ان **عملية الولادة**، ربما تكون قد قامت بدور على اكبر جانب من الاهمية في التفاعل المعقد بين التطور الجسدى والثقافي. فقد ادى وضع الانسان القائم الذى اكتسبه بحكم العادة الى زيادة صعوبة عملية الولادة عن طريق تغيير تركيب الحوض. وفضلا عن ذلك فان اللغة والثقافة اوجدتا ضغطا انتقائيا ساعد على زيادة تعقيد المخ وزيادة حجم الراس تبعا لذلك، مما جعل الولادة اصعب. واغلب الظن انه نتج عن ذلك اتجاه نحو طرد الجنين قبل اكتمال نموه الى حد ما، وهذا بدوره ادى الى فترة اطول من الطفولة التي لا حول لها ولا قوة. والواقع ان الولادة في مرحلة مبكرة من النمو ليست وقفا على الانسان. فالكيسيات Marsupials تولد اقل نضجا من جميع الثدييات التي تحمل صغارا احياء. كذلك فان فترة الحمل في الانسان اطول منها في الرئيسيات الاخرى. ومع ذلك فان الولادة المبكرة نسبيا كانت ذات اهمية خاصة فيما يتعلق بالتطور

الاجتماعي للجنس البشري ، لانها ادت الى تعريض الطفل للتأثير الاجتماعي الذي تمارسه عليه امه وعشيرته اثناء الفترة التي يكون فيها ، على وجه التحديد ، قابلا للتشكل الى اقصى حد . وفي هذه الظروف الملائمة ، تتاح للاطفال فرصة مثلى لمعرفة انماط السلوك المكتسبة بالتعلم ، ويكون بوسعهم استيعاب التراث الثقافي غير الموروث الخاص بمجتمعهم ، ثم نقله فيما بعد . كذلك فان الحاجة الى فترة اطول لرعاية الاطفال ربما تكون قد ادت الى ارتباط اطول بين الاب والام ، وبذلك تكون قد اسهمت بطريقة غير مباشرة في نمو البناء الأسرى والاجتماعي وتطوره .

كذلك يمكننا أن نورد مثلا آخر لسمة ثقافية كانت لها نتائج تشريحية ، هي **استخدام الأدوات** . فمن المعقول ان نتصور ان اول مخلوق من اسلاف الانسان التقط حجرا واستخدمه كسلاح او اداة ربما يكون قد بدأ عهدا جديدا في التطور ، اذ ربما تكون قد نشأت من هذه البداية الأولية القدرة المتزايدة على استخدام الاسلحة والادوات وصنعها في نهاية الامر ، مما اكسب الانسان ميزة انتقالية . وعلى هذا الاساس يجوز ان يكون المخ واللغة قد تطورا كرد فعل لاختراع واستخدام الاسلحة والادوات ، اى ان هذه الانواع الاخيرة من النشاط ربما كانت قد تحكمت في تشكيل المخ واللغة معا . كذلك ادى الضغط الانتقائي الى تهيئة الطريقة المناسبة لتوجيه عملية ادماج المهارات الجسدية والعقلية في الجبلة الوراثية .

كذلك ربما تكون عمليات رد فعل ( تغذية مرتدة ) تطورية مشابهة قد ادت الى تطور البناء الاسرى واساليب ممارسة الصيد الجماعي قبل حدوث تغيرات جسدية وتنظيم انماط رد الفعل . فعندما بدأ الانسان القديم في اضافة صيد الحيوانات الكبيرة الى صيد الحيوانات الصغيرة ، اقتضت زيادة حجم وتعقيد الانشطة التي كانت تمارسها الجماعة في التخطيط للصيد وممارسته صفات جديدة خاصة بالقيادة ، ومهارات جديدة خاصة بالاتصال . وهكذا اوجدت هذه الاحتياجات الاجتماعية ضغطا انتقائيا لتطوير قدرات عقلية جديدة . كذلك قامت ، ربما بعد ذلك بوقت قصير ، صور بدائية من الفن والدين ، وحدث تراكم منظم للتجربة والمعرفة ، وهو طليعة العلم ، وكان لهذا كله دوره في تطوير العمليات العصبية وتكاملها . وبالتدريج ، انتخبت انفع الصفات وادمجت في الجبلة الوراثية . وبازدياد حجم المخ ظهرت انماط جديدة من ردود الفعل تشكلت بحيث تلائم طرق الحياة ، ومن الناحية المقابلة تطورت طرق الحياة بدورها عندما اصبح المخ ووظائفه اكثر تلاؤما معها وعندما ازداد تعقيده . وفي مرحلة متاخرة من تطور الانسان ، بدأت الآليات الاجتماعية تلحق بالآليات الوراثية في تحويل حياة الانسان وتغييرها . وكما سنرى فيما بعد ، فان هذا النمط اللاماركي للتطور ربما كان اهم الآن من التطور الوراثي الداروني في تطوير المجتمعات البشرية .

ومن هنا ، فان الوظائف « العليا » للمخ البشرى ربما تكون قد نشأت من تحولات تركيبية ووظائفية مطردة اسفرت عن نظام سمح بتكيف الانسان الفيسيولوجي والسلوكي مع ثقافته . وهذا التكيف لا يمكن ، بالضرورة ، ان يكون كاملا ، لان الثقافة تتغير باستمرار . على ان الامر الذى يكاد يكون مؤكدا هو ان العناصر المختلفة لثقافة الانسان ضرورية الان ليس فقط لبقائه ، بل ايضا لاظهار قدراته الكامنة . والواقع ان البشرية ظهرت في عملية خلق الثقافة ذاتها ، واصبحت معتمدة على العالم الجديد الذى اوجدته هذه العملية ، ومنذ ذلك الوقت ، اصبح عالم الثقافة يؤلف البيئة الطبيعية لحياة الانسان .

لقد كان نوع « الانسان العاقل » ، منذ خمسين الف سنة ، منتشرا في معظم ارجاء المناطق دون المدارية للقارتين الاوروبية والاسيوية ، بل لقد توغل شمالا في الاجزاء المعتدلة من اوروبا وشرقي آسيا . وقد ادت التكيفات التشريحية والفسيولوجية، والثقافية بصفة خاصة ، الى تمكين الانسان ، لاول مرة ، من الوجود في مناطق ذات شتاء قارس .. والارجح ان سلالات الانسان الحديث كما نعرفها اليوم ببنيانها والوانها وسحناتها المميزة ، انما تمثل تكيفات متاخرة وثانوية لنوع « الانسان العاقل » عندما استعمر العالم في نهاية العصر الجليدى .

ومن المؤكد ان مخ الانسان الحديث وعملياته الذهنية الاساسية تشكلا في وقت مبكر اثناء العصر الجليدى ، بحيث استمدت المؤثرات التى شكلتها من التفاعل بين المراحل الاخيرة لتطوره البيولوجي ، والمراحل الاولى لتطوره الثقافي . هذه المؤثرات تكون الن الاساس العام الذى ظهر منه التركيب الوراثي الاساسي للجنس البشرى وتقاليده الثقافية . اما التكيفات الثانوية التي اوجدت السلالات البشرية المختلفة فانها لم تحدث الا بعد اتمام عمليات التشكيل الاساسية الخاصة بالتطور التشريحي ، والعصبي والثقافي .

واذا كان هذا الفرض صحيحا ، فانه يفسر ذلك التجانس البيولوجي والنفساني العجيب السائد بين البشر بالرغم من الفجوات البيئية والاجتماعية التى فصلت سلالات الانسان منذ العصور الحجرية القديمة . كما انه يفسر السبب في ان الطفل المنتمي الى جماعة متخلفة ثقافيا لا يلبث ، اذا ما احتضنته في بداية حياته جماعة اكثر تقدما من الناحية الثقافية ، ان يتطبع بالصفات السلوكية المميزة للمجتمع الذى احتضنه .

ولعلنا نتذكر ان من المبادىء التي كانت تقوم عليها فكرة سلسلة الوجود الكبرى انه لا يمكن ان تشغل صورتان مختلفتان من صور الحياة نفس المكان في السلسلة . ولما كان البشر يمكن تقسيمهم الى عدة سلالات على اساس صفات خارجية واضحة ، فانه يبدو من الضرورى ان تخصص لهذه السلالات اماكن مختلفة في السلسلة ، ومن ثم تضعها في مراتب تتدرج من الادنى الى الاسمى ، كما حدث بالنسبة الى الحيوانات . هذا التصنيف للسلالات البشرية سلم به مقدما معظم بيولوجيي القرن الثامن عشر ، بما فيهم « لينايوس Linnaeus » المصنف العظيم ، وما زال عدد كبير من الناس يسلمون به على نطاق الحوادث الفجعة المرتبطة بمشكلة التفرقة العنصرية في جميع ارجاء العالم . ولكن المفهوم الانثروبولوجي للسلالات العنصرية ، وهو مفهوم قائم على تمييزات وراثية وبيوكيميائية ، يكون اساسا مشروعا للبحث الانثروبولوجي .

• • •

## العوامل البيولوجية والنفسية الاجتماعية المؤثرة في تطور الانسان :

**كلما ازداد الحيوان تطورا ، قلت امكانية التنبؤ بانماط سلوكه واستجاباته لمثيرات البيئة . ومن السهل نسبيا تفسير الصعوبة المتزايدة في قابلية التنبؤ في انواع تصل حتى مرتبة الثدييات الدنيا ، لان ظهور اليات عصبية جديدة تصحبه عادة حرية اكبر . ولكن من الصعب ان نهتدى في تشريح المخ الى سبب تفسر الحرية الكبيرة التي تتجلى في الثدييات العليا ، وبخاصة في الانسان . ومن هنا فان بحث الآليات التي حقق عن طريقها اسلاف الانسان في التطور مزيدا من الاستقلال عن القوى الخارجية باطراد قد يكون اتجاها نافعا في بحث التعريف البيولوجي لنوع « الانسان العاقل » .**

ولو امكن الاعتماد على التفسير الحالي للاكتشافات الانثروبولوجية ( وهو امر ما زال غير مضمون على الاطلاق ) ، فان الانسان يكون قد اتم تطوره التشريحي منذ نحو خمسين الف سنة ، اى ان جسم الانسان ومخه ظلا اساسا ، من ناحية التركيب والحجم ، على ما كانا عليه منذ ذلك الحين . وعلى النقيض من ذلك ، فان ظروف حياة الانسان قد تغيرت تغيرا عميقا خلال تلك الفترة ، وتواصل تغيرها بمعدل متزايد السرعة . ومن هنا فانه لا بد ، لتفسير التاريخ البيولوجي للجنس البشرى ، من التوفيق بين ظاهرتين متباينتين تبدوان متناقضتين لاول وهلة . فمن ناحية ، نجد ان التطور العضوى لنوع « الانسان العاقل » وهو تطور يتم عن طريق عمليات وراثية ، قد وصل الى حالة توقف تقريبا . ومن ناحية اخرى نجد ان التطور الاجتماعي مستمر ، على نحو يكاد يكون مستقلا عن التغيرات التي تحدث في الجبلة الوراثية .

**والواقع ان استقرار التكوين الوراثي لنوع « الانسان العاقل » ظاهرة لها من الاهمية ما جعل الانثروبولوجيين يلجاون الى عدد هائل من التخمينات لتفسيرها . ولكنهم يتفقون جميعا على ان الآليات الاجتماعية قد حلت الآن ، نتيجة تطور المخ ، محل الآليات الوراثية بوصفها اهم مظاهر حياة الانسان . كما انهم يعترفون جميعا بمدى ضآلة الفرصة المتاحة حاليا لمزيد من التطور العضوى .**

وترجع نظرية من اوسع النظريات انتشارا توقف التغيرات العضوية الى وقت متاخر في العصر الحجرى القديم ، وهو الوقت الذى اصبح فيه الانسان صيادا . وتقوم هذه النظرية على افتراض معقول ، هو ان الرجال الذين كانوا يتصفون باكبر قدر من اليقظة والتنبه اصبحوا قواد جماعات الصيد . هؤلاء الرجال حققوا سيادتهم على الجماعة بفضل قدرتهم على اتخاذ مواقف عدوانية حاسمة ، وقد ترتب على ذلك انه اصبح في امكانهم الاتصال بالنساء بسهولة اكبر ، وهذا نمط ملاحظ بين الرئيسيات التي تعيش في ظروف طبيعية وكذلك بين بعض الجماعات البشرية البدائية .

ومن المهم ان نلاحظ في هذا الصدد انه على حين ان الافراد الذين يقودون مجموعات الرئيسيات التي تعيش في بيئاتها الطبيعية يتميزون عادة بانواع معينة من الصفات « العقلية » ، فانه ليس من الضرورى ان يكونوا اضخم الافراد او اقواهم من الناحية الجسدية . ونظرا الى ان ما ينطبق اليوم على الرئيسيات كان ينطبق على الارجح على الانسان القديم ، فانه يمكن الافتراض بان الصفات العقلية المرتبطة بالزعامة اكتسبت اهمية متزايدة بمرور الوقت ومنحت اصحابها ميزة انتقائية في عملية المنافسة التناسلية . وربما تكون ممارسة الزواج بعدد من الزوجات قد ادت الى تسهيل عملية الادماج الوراثي لهذه الصفات في القبيلة ، وربما يكون هذا قد ادى بدوره الى زيادة سرعة تطور المخ بدرجة اكبر .

وتواصل النظرية تقديم حججها ، فتقول : ان زيادة القدرات العقلية في الجماعة ادت في النهاية الى زيادة تعقيد البناء الاجتماعي ، والى نتيجة ثانوية هي حلول الزواج بزوجة واحدة ، تدريجيا محل الزواج بعدد من الزوجات . وقد ادى حدوث هذا التغير الاجتماعي بطبيعة الحال ، الى خفض معدل التطور الوراثي . كما ان المؤسسات الاجتماعية نفسها اصبحت تقوم بدور في آليات النشاط القبلي اهم من الدور الذى تقوم به صفات كل زعيم على حدة . ونتيجة لذلك ، اصبحت زعامة اصحاب المواهب العقلية اقل وضوحا وقل ، تبعا لذلك ، تاثيرهم في التكاثر الانتقائي .

ويزعم بعض الانثروبولوجيين ان عملية تعدد الزوجات ، وانتخاب الأمخاخ الاكبر حجما اخذت تفتر منذ وقت مبكر يرجع الى المرحلة النياندرتالية . ويقولون ان الرجال ذوى الامخاخ الكبيرة لم يعودوا ، منذ ذلك الوقت ، يتفوقون تناسليا على اقرانهم ذوى الامخاخ الاصغر . ولكن هناك انثروبولوجيين آخرين يخالفون هذا الرأى ، ويشيرون الى استمرار انتشار تعدد الزوجات وارتفاع خصوبة الزعماء في بعض الجماعات البشرية المعاصرة . وقد ذكر تقرير نشر منذ وقت قريب ان زعيما واحدا لقبيلة هندية تعيش في احراش البرازيل كان أبا لربع الأطفال المائة في الجيل التالي . والواقع ان اختلاف الرأى بين المتخصصين في هذا الموضوع وغيره من الموضوعات المتعلقة به يوضح مدى التخبط الذي لا يزال يلازمنا في بحثنا عن تلك العوامل الانتخابية التي عملت في الماضي على ايصال حجم مخ الانسان الحديث وذكائه الى مستواهما الحالي .

وعلى الرغم من ان التخمينات الخاصة بمنشأ الانسان ومنشأ طرق حياته لا يمكن دعمها بأدلة قاطعة فانه ليس امام الانثروبولوجيين من خيار الا التخمين في محاولة تفسير كيفية حلول الآليات الاجتماعية تدريجيا محل الآليات البيولوجية بوصفها العامل الرئيسي للتغير في حياة الانسان. ولعلنا نلاحظ ان اهتمامنا هنا منصب على حياة الانسان لا الى الانسان نفسه . وذلك لأن التغيرات في ظروف الحياة يمكن ان تؤدى بسرعة ، بل انها تؤدى بالفعل ، الى حدوث تغيرات تشريحية وفسيولوجية ، بل يمكن ان تغير التركيب الوراثي لجماعة ما في مدى اجيال قليلة. ويشهد على ذلك الاختفاء المطرد لجينة الخلايا المنجلية (٢) بين الزنوج الذين يعيشون في امريكا الشمالية ، وانتشار جينة البورفيريا (٣) Porphyria بين البيض في جنوب افريقيا .

**والنقطة التي نضعها تحت البحث هنا هي ان العوامل الاجتماعية الثقافية اهم الآن بكثير من العوامل الوراثية في التأثير على المجتمعات البشرية** . ولقد كانت هذه العوامل الثقافية في ذهن « **هربرت سبنسر** » عندما استخدم عبارة « **التطور فوق العضوى** » Superorganic evolution للاشارة الى التغيرات المطردة في الحكومات او البنوك وفي جميع المؤسسات الاجتماعية بصفة اعم .

وقد اجرى سير **جوليان هكسلي** احد احفاد « توماس هـ . هكسلي ، داعية الداروينية في القرن التاسع عشر ، مقارنات عديدة بين دور كل من العوامل البيولوجية والعوامل النفسية الاجتماعية في حياة الانسان . وفيما يلي فقرات تتعلق بهذا الموضوع مقتبسة من محاضرة القاها سير جوليان عام ١٩٦٠ في هيئة الاذاعة البريطانية ، تناقش ظهور الحياة والعقل بوصفهما مظهرين خاصين لعملية تطور كونية اعم :

« **اننا نعتقد الآن عن ثقة ان عالم الواقع**

---

( ٢ ) تتميز خلايا الدم الحمراء في بعض جماعات الزنوج بصفات خاصة تجعلها تبدو في صورة مناجل او أهلة عند معالجتها بطرق خاصة ورؤيتها تحت المجهر . ولذلك تعرف باسم « الخلايا المنجلية » Sickle cells ويؤدى وجود هذه الخلايا الى اصابة حامليها بنوع من الانيميا يطلق عليه اسم انيميا الخلايا المنجلية ، ولكنها تقيهم الاصابة بالملاريا .

( ٣ ) مرض وراثي يتجلى في الظروف العادية في صورة اعراض عصبية خفيفة والسكابات دموية بسيطة تحدث بقعا ارجوانية تحت الجلد . ولكن المصاب بهذا المرض يمكن ان يتعرض لردود فعل عنيفة قد تفضي الى الموت وذلك اذا تعاطى بعض العقاقير الحديثة : كالسلفا والباربتيورات .

برمته عملية تطور هائلة واحدة . هذه العملية تحدث جدة وتنوعا متزايدين ، وانماطا من التكون العضوى ارقى باستمرار ، وفى اماكن قليلة اوجدت الحياة ، وفي عدد قليل من اماكن الحياة هذه ، اوجدت العقل والوعي .

« هذه العملية التي تحدث على نطاق الكون باسره تنقسم الى ثلاث مراحل او اقسام ، كل منها له طريقته الخاصة في العمل ، ومعدله الخاص فى التغير ونوعه الخاص من النتائج . وفى معظم ارجاء الكون ، تكون هذه العملية فى المرحلة اللاحية او اللاعضوية . اما فى الارض ( وفى بعض كواكب الشموس الاخرى بلا شك ) فانها فى المرحلة العضوية او البيولوجية . هذه المرحلة تعمل عن طريق الانتخاب الطبيعي وادت الى ايجاد مجموعة شديدة التنوع من الحيوانات والنباتات ، بعضها بلغ درجة مذهلة من التنظيم العضوى ( مثل اجسامنا او مستعمرة النمل ) كما ادت الى ظهور العقل .

« واخيرا دخل الانسان ( وربما عدد قليل من الكائنات العضوية الاخرى في اماكن اخرى ) المرحلة الانسانية ، او ما يمكن ان نسميه بالمرحلة النفسيه الاجتماعية ، وهي مرحلة تقوم على تراكم المعرفه وتنظيم التجربة . هذه المرحلة تعمل اساسا عن طريق اختيار واع للافكار والاهداف وتحدث تغييرا سريعا للغاية. ويكون التطور فى هذه المرحلة ثقافيا اساسا ، لا وراثيا ، أى انه لا يعود يتركز فقط على البقاء ، بل يوجه بصورة متزايدة نحو تحقيق الذات ورفع مستوى الانجاز » .

والواقع ان عبارة « ان عالم الواقع برمته عملية تطور هائلة واحدة » كما جاءت على لسان هكسلي ، تتفق الى حد كبير مع فكرة الخلق التطورى المتدرج من المادة الى الانسان وصولا الى الله ، وهي فكرة صاغها الأب اليسوعي « تيار شاردان Teilhard de Chardin » منذ عشرين عاما ، وشرحها فى كتابه « ظاهرة الانسان The Phenomonen of the Man » فلا غرابة اذن ان تكون المقدمة التي كتبها سير جوليان هكسلي لكتاب « تيار » مقدمة مفعمة بالحرارة والحماس . وقد اكد فى هذه المقدمة قدرة الانسان الاجتماعي على التخلص ، فى حدود ، من قبضة قوى الانتخاب الطبيعي ، ومن ثم اكتساب القدرة على التحكم فى تطوره الخاص . وقد عبر هكسلي عن آراء مشابهة اثناء الاحتفالات التي اقيمت فى عام ١٩٥٩ احياء للذكرى المئوية لنشر كتاب داروين « اصل الانواع » : —

« ان اكتساب الانسان آلية ثانية ، اسمى واعلى من آلية الكروموسومات والجينات ، من اجل ضمان الاستمرار والتغير التطورى معا ، وهي آلة تقوم على قدرته على التفكير التصورى والتكلم بلغة رمزية ، مكنه من اجتياز الحاجز الذى وضعته القيود البيولوجيه ، ودخول ميادين الوجود النفسي الاجتماعي ، وهي ميادين بكر لم تطرق من قبل .. والواقع ان التطور فى المرحلة النفسية الاجتماعية ثقافة فى المحل الاول : اعني انه يتجلى غالبا فى صورة تغيرات فى الثقافات الانسانية ، لا فى الاجسام البشرية او المركبات الوراثية البشرية المعقدة . ( لا يخفى بالطبع انني استخدم الثقافة بمعناها الانثروبولوجي والاجتماعي الواسع لتشمل الفن واللغة ، والدين والنظام الاجتماعي ، وكذلك الثقافة المادية ) » .

وعلى حين ان معظم البيولوجيين يوافقون على الاتجاه العام لآراء سير جوليان هكسلي ، فان بعضهم يتساءل عن الحكمة فى استخدام نفس الكلمة ، وهي التطور ، للدلالة على نوعى التغيرات : تلك التي تحدثها العمليات الوراثية ، وتلك التي تحدثها العمليات الاجتماعية . ذلك لان المادة المتكاثرة ذاتيا

( التطور البيولوجي ) والعقل المتكاثر ذاتيا ( التطور الثقافي ) يتطوران عن طريق عمليات تبلغ من الاختلاف حدا يبدو معه ان كلا منهما يستحق تسمية خاصة به . وعندما يستخدم البيولوجيون كلمة التطور دون تمييزها بصفة اخرى فانها لا تشير ، بمقتضى الاستخدام العلمي الحالي ، الا الى عملية وراثية داروينية تنطوى على تغيرات مطردة للجبلة الوراثية التي تتضمنها الجينات . وعلى النقيض من ذلك ، فان التطور الثقافي يدل على كل الحقائق والاوهام ، والقواعد والطقوس ، والمعرفة والفهم الذى يحكم الحياة الاجتماعية . ويتم تراكم جميع جوانب تجربة الانسان الشاملة هذه وكذلك تعديلها ونقلها ، بتوسط آليات اجتماعية تزداد استقلالا باطراد عن جبلته الوراثية .

ولكن على الرغم من كل ما يمكن ان يقوله الملتزمون بحرفية اللفظ ، **فان عبارتي التطور النفسي الاجتماعي « والتطور الثقافي » اصبحتا الآن جزءا من اللغة العلمية وان كانتا تشيران الى آليات متميزة عن الآليات الفاعلة في التطور العضوى** . ومما يزيد المشكلة تعقيدا ، ان هناك قدرا من الاعتماد المتبادل بين التطور البيولوجي والتطور النفسي الاجتماعي ، اذ ان هاتين الآليتين المنفصلتين المحدثتين للتغير ترتبطان بواسطة عمليات تأثير متبادل ( تغذية مرتدة ) . فعندما تقوم المجتمعات البشرية بتغيير بيئتها وطرق حياتها عن طريق آليات ثقافية ، فانها تخلق في نفس الوقت ظروفا جديدة تهيىء ميزة انتخابية لبعض الصفات البيولوجية المميزة للبشر . ذلك لانه على الرغم من ان التطور النفسي الاجتماعي يحدث الى حد كبير من خلال آليات لا ماركية غير وراثية ، فانه يكاد يسفر حتما عن شيء من التطور الدارويني الوراثي .

والواقع ان تأثير القوى الثقافية في اوجه نشاط الانسان من الوضوح بحيث جعل علماء الاجتماع يميلون الى الاعتقاد بأن الانسان قد افلت من قبضة القوى البيولوجية .. ولكن الحقيقة ، كما سوف نرى فيما بعد ، هي ان القوى البيولوجية لا تزال تؤثر بعمق في معظم جوانب حياة الانسان الفردية والاجتماعية . وفضلا عن ذلك ، فان بعض الاختلافات بين الاشخاص الموهوبين والاشخاص العاديين تقوم ، قطعا ، على اساس وراثي . وينبغي ان نتذكر ان افكار وافعال عدد قليل من الاشخاص غير العاديين هي التي حققت اعظم التقدم في تاريخ البشرية ، اعني ان طاقاتهم الهائلة هي التي وجهت جمهرة الناس . والواقع ان التاريخ هو ، جزئيا على الاقل ، حصيلة قوى حركتها الجبلة الوراثية المتميزة الخاصة بعدد قليل من المجددين المبتدعين .

ان الاختلافات النظرية بين القوى البيولوجية والقوى النفسية الاجتماعية المحدثة للتغيرات في حياة الانسان تؤدى الى نتائج عملية كبيرة . فالتغيرات التي تحدثها الآليات الوراثية تتكشف عادة ببطء ، ولكنها تكون دائمة ، وتكاد تبدو في كثير من الاحيان غير قابلة للارتداد . وعلى النقيض من ذلك ، فان التغيرات التي تحدثها الآليات النفسية الاجتماعية تطابق نمط التطور اللاماركي : اعني ان المعرفة والمهارات التي يكتسبها جيل ما تنتقل مباشرة الى الجيل التالي ، ولكنها لا تدوم الا طالما ظلت الظروف ملائمة لنقلها المباشر ، اى ان ما يكتسب عن طريقها في جيل يمكن ان يفقد تماما في الجيل التالي . **والواقع ان التاريخ والتجربة اليومية يوضحان ، على نحو مرير ، ان الدوافع البدائية التي كانت تحرك انسان العصر الحجرى القديم يمكن ، في كثير من ظروف الشدة ، ان تخترق بسهولة قشرة الحضارة ، ويرجع ذلك ، على وجه التحديد ، الى ان الحياة المتحضرة نشأت اساسا من تغيرات نفسية اجتماعية ، لا من تطور عضوى .**

• • •

## الماضي التجريبي والاجتماعي :

جميع البشر لهم ، اساسا ، نفس التركيب التشريحي ، ويؤدون وظائفهم من خلال نفس الانشطة الكيمائية ، وتتجلى فيهم نفس المظاهر الفسيولوجية ، وتدفعهم نفس الدوافع البيولوجية . ومع ذلك فانه لا يوجد كائنان بشريان متشابهان . ومن هنا فان معرفة الصفات التي يشترك فيها البشر جميعا لا تكفي لتفسير الطريقة التي تظهر بها لكل شخص خصائصه المميزة ، وتؤدى الى سلوكه على النحو الذى يسلكه .

وفيما عدا الحالة الاستثنائية الخاصة بالتوائم المتماثلين التي يتم فيها انجاب اكثر من طفل واحد ، فان الافراد يختلفون في تركيبهم الوراثي . ولا يقل عن ذلك في الاهمية ان الصفات المميزة لكل كائن بشرى على حدة تتشكل باستمرار ، وتتغير بواسطة العوامل البيئية . هذه العوامل تختلف دائما باختلاف الزمن ، وتختلف من مكان الى آخر ، ولا تكون ابدا واحدة ، بالنسبة الى اى شخصين مختلفين . بل ان التوائم المتماثلين انفسهم لا يجمع بينهم شبه كبير عند البلوغ اذا ما تنشىء كل منهم في بيئة مختلفة .

وقد دعمت دراسات حديثة الفكرة التي توصل اليها القدماء ، والقائلة بان عددا كبيرا من صفات الشخص البالغ ينتج بفعل « مؤثرات مبكرة » اى بفعل العوامل البيئية التي تؤثر في الشخص وهو لم يزل بعد في حالة تطور ونمو . بل ان هذه المؤثرات التي تشكل الانسان يمكن ان تحدث داخل الرحم ذاته . فعلى الرغم من ان « **توائم ديون** Dionne » **الخمسة** كانوا متماثلين بصفة عامة ، وكانوا يعاملون نفس المعاملة بعد الولادة فانه كان يمكن تمييزهم كافراد منذ البداية الاولى لحياتهم ، ويرجع ذلك على الارجح الى ان اوضاعهم اثناء حياتهم داخل الرحم اثرت في نموهم على نحو متميز . والواقع أن العوامل التي تؤثر قبل الولادة وفي المراحل الأولى بعد الولادة يمكن ان تؤثر في كل صفة تقريبا ، ابتداء من الاحتياجات الغذائية والمظهر المورفولوجي حتى القدرة على التعلم والاتجاهات العاطفية . وفضلا عن ذلك فان نتائج المؤثرات المبكرة تصبح متأصلة في التركيب البيولوجي الى درجة انها تستمر في كثير من الاحيان ، وربما دائما ، طوال فترة الحياة كلها .

وقد كان للدراسات التشريحية المقارنة التي اجريت على اعضاء مختلفة في اوقات مختلفة بعد الحمل وبعد الولادة فضل كبير في تفسير التأثيرات العميقة، الدائمة والغريبة في كثير من الاحيان ، التي تمارسها العوامل البيئية في الكائن العضوى المتطور . فاثناء الشهرين الاولين من الحياة الجنينية ، تتعرض البيضة المخصبة لاكثر تغيراتها حسما ، اذ تتمايز خلاياها في انسجة متخصصة كالعضل او الاعصاب ( التنسج Histogenesis ) ويتمايز الكل المتجانس اصلا في مناطق متخصصة كالراس أو الذراعين ( التمنطق regionalization وفي نفس الوقت تتشكل كل منطقة في شكل محدد ( التشكل Morphogenesis ) وعلى الرغم من ان عملية التشكل تستمر حتى البلوغ فان التغيرات الرئيسية تتم خلال الشهور الثلاثة الاولى من الحياة داخل الرحم . وفى ذلك الوقت ، يكون الجنين قد اتخذ مظهرا طفوليا يمكن التعرف عليه .

هذا العرض المبسط للتمايز اثناء التطور الجنيني يساعد في معرفة السبب الذى من اجله يؤدى نقص التغذية ، والتعرض للمواد السامة ، وغيرها من الصعوبات الاخرى التي تتعرض لها الام اثناء المراحل الاولى من الحمل ، الى عيوب ولادية وصور اخرى من صور الخروج عن الحالة السوية ، لا تظهر الا في وقت لاحق من الحياة . والواقع ان التشوهات المبكرة التي تصيب الجنين نادرا

ما يمكن اصلاحها اثناء المراحل التالية من النمو .

ولما كانت الانسجة المختلفة ومناطق الجسم المختلفة تنمو بمعدلات مختلفة طوال مرحلة التشكيل ، سواء قبل الولادة او بعدها ، فان هذا يفسر التغيرات التي تحدث فى شكل الجسم مع اطراد النمو ، كما انه يكشف عن سبب اختلاف تجاوب الاعضاء المختلفة مع المؤثرات البيئية باختلاف عمرها . ومن الطبيعي ان يكون لتطور المخ اهمية خاصة فى هذا الصدد ، وذلك لما له من علاقة مباشرة بمشكلات التعلم والسلوك .

فالمخ يكون ، في وقت مبكر من الحياة الجنينية ، اقرب الى حجمه البالغ ، على أساس الوزن الاجمالي ، من اى عضو آخر من اعضاء الجسم ، وربما باستثناء العين . فعند الولادة يكون المخ قد وصل الى حوالي ٢٥٪ من وزنه عند البلوغ ، وفى سن ستة شهور الى ٥٠٪ تقريبا ، وفي الخامسة الى ٩٠٪ وفى العاشرة الى ٩٥٪ وعلى هذا الاساس فان المخ ينمو فى وقت اقصر واسرع من اعضاء الجسم الاخرى . وفضلا عن ذلك فان اجزاء المخ المختلفة لا تتطور فى آن واحد ولا تنمو بنفس المعدل . ومن الامور التي لها قدر بالغ من الاهمية ، ان قشرة المخ لا تكون قد نمت ، بحلول وقت الولادة ، الا بمقدار ضئيل جدا . وعلى الرغم من ان انسجة القشرة المخية ووظائفها تنمو وتتطور باطراد ، فان مناطق كثيرة منها تظل غير مكتملة النمو الى حد كبير فى سن الثانية ، بل ان بعضها يبقى غير مكتمل النمو حتى المراهقة . واثناء فترة النمو كلها ، يزداد عدد تفرعات الخلايا المخية كما يزداد احتمال تأثير هذه الخلايا بعضها فى بعض عن طريق اتصالها ، وهذه ظاهرة تعرف باسم « التواصل Connectivity » . وعندما نعرف ان جزءا كبيرا من التعلم وتطور الشخصية يحدث ، على وجه التحديد ، في الوقت الذى تتوطد فيه هذه الاتصالات ، فاننا نستطيع ان ندرك ما للتواصل من اهمية خاصة .

واثناء نمو المخ من صورته الجنينية الاولى الى صورته وقدرته فى سن الثانية ، يكون تطور وظيفته مرتبطا ارتباطا وثيقا بمدى اكتمال تركيبه ، واغلب الظن ان هذا الارتباط يستمر طوال الحياة . وقد كشفت تجارب اجريت على الفئران عن انها لا تستطيع اكتساب بعض انماط السلوك الا عندما يبلغ تواصل خلايا قشرتها المخية مستوى معينا ، بصرف النظر عن العمر الزمني لهذه الفئران . وهناك اسباب وجيهة تدعو الى الاعتقاد بان القدرات العقلية الاعلى تظهر ، في الانسان ايضا ، عندما يتم اكتمال نمو بعض الانسجة او التجمعات الخلوية فى جميع ارجاء القشرة . ويرى بعض علماء الاعصاب ان التنبيه يمكن ان يؤثر فى نضج المخ او زيادة تعقيده العضوى ، وان استخدام خلية ما يمكن فعلا ان يزيد قدرتها على التواصل . وهناك ملاحظة تدعم هذا الراى وهي ان الاسابيع القليلة الاولى من حياة الكائن البشرى يقضى معظمها فى تنظيم الادراكات الحسية ، وخاصة احاسيس اللمس والبصر .

فاذا كانت آليات ادراك المنبهات والاستجابة لها تتولد جزئيا على الاقل ، من منبهات قديمة ، وهو امر محتمل ، فان هذا الاحتمال يثير مشكلات محيرة فيما يتعلق بالتفاعلات الطبيعية الكيمائية المحددة التي تنطوى عليها هذه الآليات . وقد افترضت عدة تفاعلات من هذا النوع لتفسير تغيرات المخ التي تؤدى الى التعلم والذاكرة ، ولكن هذه الافتراضات ، على احسن الاحتمالات ، تخمينية الى حد كبير ، وليس فى متناول يدنا حتى الآن اسلوب فني يتيح معرفة مزاياها النسبية . ومع ذلك

فان من المعروف ان هنالك تغيرات طبيعية كيمائية محددة ترتبط بالتعلم ، والتذكر وغيرها من العمليات العقلية ، وقد اقترب الوقت الذى سوف تصبح فيه آليات التفكير جزءا من البيولوجيا الآلية ، مثلها فى ذلك مثل آليات التنفس او الانقباض العضلي ، وعندما تصل المعرفة الى هذه المرحلة فقد يترتب عليها خطر بالغ هو ان يترتب عليها ظهور تكنولوجيا طبية بيوكيمائية تسهل التحكم في الفكر من اجل اغراض سياسية وغيرها .

ويمكن ان يستفيد رجال التربية فائدة كبرى لو انهم عرفوا ما اذا كان نقص الحوافز المنبهة يؤخر او يعوق التنظيم العصبي ، وكذلك لو عرفوا كيف تتأثر تجمعات الخلايا العصبية بفعل المؤثرات المختلفة التي يتعرض لها الانسان فى فترات مختلفة من حياته والحالة المثلى بالطبع هي ان تتحكم معرفة خصائص النمو المميزة للجهاز العصبي في طريقة التعليم والاوقات التى يتم فيها تعلم الاشياء المختلفة . ولكن معرفة المخ لاتزال لسوء الحظ ، بعيدة كل البعد عن أن تقدم الينا توجيها على نحو فعال فى وضع البرامج التعليمية .

وهناك من ناحية اخرى ادلة قاطعة تثبت ان النمو العصبي تؤثر فيه الحالة الغذائية ، وعمليات العدوى ، وغيرها من العوامل البيئية المؤثرة فى الصحة والمرض . ومن هنا فان بعضا من اكبر مشكلات تطور الانسان يدور حول الظروف الفسيولوجية الخاصة بالتنشئة وكذلك حول البيئة الاجتماعية ، بما فيها كل المؤثرات المبكرة والتجارب التعليمية ذلك لان التأثيرات التي تمارسها هذه الظروف والبيئة فى تطور المخ فى فترات الحياة المختلفة هى التى تحدد اهميتها بالنسبة الى نمو الانسان وسلوكه .

ومن الطبيعي ان تنزع المؤثرات البيئية السائدة فى منطقة جغرافية او جماعة اجتماعية ما الى تكوين صفات كثيرة مشتركة بين كل افراد الجماعة . ولهذا السبب فان «امرسون» كان على حق الى حد بعيد حين قال : « ان الناس يشبهون معاصريهم اكثر حتى من والديهم » . كذلك تؤثر المؤثرات البيئية في كل شخص بطريقة خاصة حتى عندما تبدو طرق الحياة متجانسة فى بيئة تخضع لمعايير موحدة . ذلك لان ما ينفرد به الشخص من تكوين وراثي منقطع النظير يعمل على ايجاد اختلافات في استجابته للمؤثرات البيئية ، ومن ثم على تفرده من حيث النمو العقلي والجسدى . والواقع ان كل شخص منا يعيش ، ان جاز هذاالتعبير ، فى عالمه الخاص الذى ينفرد به .

ويمكن القول ، بصفة عامة ، ان المؤثرات البيئية تشكل الشخصية عن طريق آليتين مختلفتين . فهي تتحكم ، من ناحية ، فى بعض انماط الاستجابة التي تؤثر فى جميع مظاهر السلوك . وبالفعل نجد لدى الفسيولوجيين، وعلماء النفس ، وعلماء الامراض العقلية ، والكتاب ، اوصافا شديدة التنوع ، صاغها كل منهم على طريقته الخاصة ، لاستجابات مكتسبة ، تتدرج من سيلان لعاب الكلاب عند سماعها صوت الجرس الى التأثيرات الباثولوجية ( المرضية ) الخاصة بالعقد الفرويدية ، او تذكر اشياء اثارها فى الماضي غمس قطعة من الكعك فى فنجان شاى .

**اما النوع الثاني من الآليات ، ففيه تسهم المؤثرات البيئية في تشكيل الشخصية عن طريق اعاقة اكتساب خبرات جديدة .** فالمفروض ان استمرار نمو الشخص ذهنيا يقتضي ان يظل متقبلا لمنبهات جديدة ، وحوادث جديدة ، ومواقف جديدة ، غير أن القدرة على ادراك العالم الخارجي باحساس متجدد تقل ، فى الواقع ، بصفة عامة ، مع تحكم التجارب والخبرات المتكررة في العقل والحواس .

وهكذا ، فان البشر يدركون العالم ، ويستجيبون له ، لا من خلال المجال الكامل لامكاناتهم الوراثية ، بل فقط من خلال مناطق هذا المجال التي لم تعقها عمليات محبطة والتي ظلت عاملة بفضل المؤثرات البيئية ، وخاصة المبكرة . وتشير كلمة « امكانات » هنا الى النطاق الكامل لجبلة الشخص الوراثية ، سواء كانت الصفات التي تتحكم فيها هذه الجبلة جسدية ام عقلية . فتجارب الحياة هي التي تقوم بتحديد اى اجزاء هذه الجبلة يتجلى في صورة صفات فعالة .

وفي مراحل الحياة التي يكتمل فيها النمو ، تؤدى الاتجاهات التقليدية التي جرى عليها العرف ، في كثير من الاحيان ، الى اعاقة القدرة على تقبل التجارب والخبرات الجديدة ، وهذه نتيجة حتمية للمؤثرات المبكرة . فالطفل بطبيعته ، محب للعب والتجربة . وهو متشوق لاختيار وتجربة ما حوله ، ولا يعوقه عرف او تقاليد او صراعات داخلية متضاربة . اما الشخص البالغ ، فانه على النقيض من ذلك ، يركز جهوده على اهداف واعية محدودة ، مضيقا بذلك مجال قابليته لتلقي المؤثرات البيئية . فهو يتغافل ، بطريقة انتقائية ، عن المؤثرات التي يفترض انها ليست ذات فائدة عملية ، وينمّي ، عن قصد ، ادراكا يصل الى اهدافه مباشرة . وعلى الرغم من أن هذا المسلك جائز في توجيه دفة السير في طريق محدد فعلا ، فانه لا يصلح لاستكشاف طرق جديدة ، اذ انه ينزع دائما الى تضييق مجال الحياة .

والواقع ان اتجاه شخصية الانسان الى « التجمد » بتقدم العمر يوحي بشيء من التصلب الوظيفي للقدرة الكامنة على ادخال تغيرات مستمرة على الانطباعات المختزنة في المخ ، وكان هناك قيودا شديدة مفروضة على ما يمكن طبعه في ذهن الشخص خلال فترة حياته . والواقع ان من اضخم مشكلات البيلوجيا هو معرفة ما اذا كانت تاثيرات المؤثرات المبكرة غير قابلة للانعكاس حقا ، كما يبدو ظاهرا في التجربة العادية ، او انه يمكن محوها جزئيا ، كما توحي بذلك بضعة تجارب .

فقد كشفت دراسات فسيولوجية كهربية عن ان نشاط العمليات العصبية في المخ مستمر ، اى ان تاثير المنبهات ليس اثارة انسجة عصبية خاملة بقدر ما هو اعطاء شكل للنشاط المستمر بالفعل . ومن المعروف ايضا ان العزلة الطويلة الامد وغيرها من صور الحرمان الحسي تؤدى ، في كثير من الاحيان ، الى انهيار الشخصية على نحو مؤقت يمتد تاثيره بدرجات متفاوتة . هذان الاكتشافان معا يشيران الى انه قد يمكن الاهتداء الى طرق للحيلولة دون « تجمد الشخصية » او لتاخير هذا « التجمد » بحيث لا يعيش جسم الانسان فترة اطول من مرونة ملكاته العقلية . ومن المحزن ان الدليل العملي الوحيد على ان العقل يمكن تشكيله من جديد ، يأتينا من حالات غسيل المخ او حمل الناس على الاعتراف بالذنب السياسي ، وكذلك من بعض صور التحول في العقيدة الدينية — وهذه الصورة الاخيرة ادعى الى الامل بطبيعة الحال .

**ان فقدان البراءة اثناء الطفولة امر حتمي ، وهو بالفعل شرط ضرورى للنمو العقلي والعاطفي . ومن هنا فان المهم في الواقع هو نوع التجربة التي تفقد عن طريقها البراءة ، فهذا هو الذى يحدد ، بدرجة كبيرة ، خصائص الشخصية البالغة . وهذه الخصائص تنظم ، بدورها ، مدى النمو التالي واتجاهه .**

**وتزودنا العمليات البيولوجية والسيكولوجية التي يحركها التعامل بين البشر بامثلة اخرى للتاثير الدائم العميق الذى يمارسه الماضي على**

**الانسان الحديث** . فنظرا الى ان الانسان تطور كحيوان اجتماعي ، فانه لا يمكن ان ينمو جسديا وعقليا على نحو سليم ، بل لا يمكن ان يبقى سويا لفترة طويلة ، ما لم يرتبط ارتباطا وثيقا بغيره من البشر . وعلى العكس من ذلك ، فان ازدحام الاتصالات الاجتماعية والافراط فيها قد يؤديان الى اثارة بعض انشطة الانسان الهورمونية ، على نحو مبالغ فيه ، الامر الذى يترتب عليه نتائج غير مستحبة . وبالرغم من ان طبيعة وشدة المثيرات الاجتماعية التي يمكن ان يتعرض لها الشخص دون خطر عليه لها حدود معلومة ، فان هذه الحدود تختلف تبعا لتاريخ هذا الشخص وتاريخ جماعته . والواقع ان استجابات الانسان لبيئته الاجتماعية لا تحكمها ، من الناحيتين الكيفية والكمية ، جبلته الوراثية وتجاربه المبكرة فقط ، بل تحكمها ايضا التقاليد والقيم التي جرى عليها العرف بين الجماعات التي نشأ وعمل فيها . ومن هنا ، فان ماضي الانسان الاجتماعي يتحكم ، حتما ، في طبيعته . فالانسان يسلم عادة بتقاليد جماعته على اساس انها تنطوى على الحقيقة والحق ، بل انه حتى عندما يثور على هذه التقاليد ، فان التقاليد الجديدة التي يحاول ابتداعها تضم دائما كثيرا من الاساليب القديمة وتجعله يظل معتمدا على ماضيه الاجتماعي .

●●●

**تفرد الانسان :**

لقد اكتسبت الانواع الحيوانية المختلفة ، اثناء تطورها ، درجة عالية من التخصص التشريحي ، والفسيولوجي ، والسلوكي ، واصبحت نتيجة لذلك مرتبطة ببيئات معينة وملتزمة بطرق حياة خاصة . **وعلى النقيض من ذلك ، فقد ظل الانسان اعظم كائن غير متخصص في عالم الاحياء . فمواهبه الطبيعية اقل ، في كثير من النواحي ، من مواهب الانواع الحيوانية الاخرى التي تعيش في الوقت الحاضر** . فبصره لا يصل الى منطقة الضوء فوق البنفسجي كما يصل بصر النحل ، وسمعه على النقيض من سمع الكلاب والقطط وبعض الحشرات ، لا يمتد الى المجالات الصوتية العليا ، وحاسة الشم عنده ادنى بشكل واضح من حاسة الشم عند الكلاب وغيرها من الثدييات . وباختصار فان كثيرا من انواع الحيوان تفوق الانسان في صفات مثل السرعة ، والقوة البدنية ، ورهافة الاعضاء الحسية ، ودقة الاستجابات ، ومقاومة الضغوط . ولكنه ربما كان **يسبقها جميعا في** قابليته للتكيف ، وذلك **على وجه التحديد، لانه** يبدى قدرا ضئيلا من **التخصص البيولوجي** . وتشير كل الاحتمالات الى ان قابلية التكيف هذه هي التي يرجع اليها الفضل في تمكين الانسان من الاشتغال بعدد لا حصر له من الاعمال المختلفة ، والاستيطان في عدد كبير من مناطق العالم المختلفة .

وقد كان كبر حجم المخ الانساني ، وخاصة نمو قشرته المخية ، هو العامل الاساسي الذى مكنه من استغلال امكاناته البيولوجية المتنوعة . والواقع ان مقارنة انواع الحيوانات وضمنها اللافقاريات ، تشير الى ان الاداء السلوكى لهذه الحيوانات له صلة وثيقة بالحجم المطلق لامخاخها . وعلى حين ان زيادة حجم المخ كانت سمة بارزة في تطور البشر ، فان العلاقة بين حجم المخ الفعلي ، وبين مستوى الاداء العقلي ليست واضحة باية حال في الانسان الحديث . صحيح ان بعضا من اصغر أحجام الامخاخ ( اقل من ١٣٠٠سم٣ ) قد سجلت لسكان استراليا الاصليين وغيرهم من الشعوب

البدائية ، ولكن مدى تفاوت السعة الجمجمية واسع للغاية ، وليست له الا علاقة بسيطة بالقدرة العقلية ، ان كان له بها علاقة على الاطلاق . والارجح ان الاهم من حجم المخ الاجمالي في تفوق الانسان العقلي على الحيوانات هو الزيادة التي حدثت في مناطق مخه العليا التي تطورت منذ عهد قريب . ذلك لان هذه المناطق ترتبط ، على نحو أوثق ، بتطور الثقافة .

**ان المخ ، في جميع الحيوانات العليا ، هو العضو الرئيسي للوعي . وله قدرة مذهلة على احداث تكامل بين عدد هائل من عناصر التجربة المنفصلة ، والمختلفة في كثير من الاحيان ، في انماط منظمة ، وهي انماط وتجارب يفطن الكائن العضوي الى كل نوع منها على حدة وعلى نحو متميز .** والواقع ان عملية ايجاد تكامل تدريجي مطرد بين مراكز « النشاط العقلي » من اروع سمات التطور ، وهي عملية يبدو انها وصلت الى ذروتها في الانسان . صحيح ان بعض مناطق قشرة مخ الانسان تتخصص ، الى حد ما ، في تمثل المعلومات الحسية المستمدة من اعضاء خاصة ، ومع ذلك،وبالرغم من ان مسالك المعلومات ومناطق التمثل المختلفة مستقلة نسبيا ، فان كل شخص يسلم بان له عقلا واحدا لا عدة عقول ، وان هذا العقل هو ، في النهاية ، مقر جميع انواع التجربة والخبرة .

وايا ما كانت الآليات النهائية التي تتضمنها عمليات المخ ، فان اهم اختلاف عقلي بين الانسان والحيوانات هو ان قدرة الانسان على تكوين تصورات ، تصل الى مدى ابعد كثيرا . وربما كانت براعة الانسان القديمة في التصوير ذات اهمية في هذا الصدد ، فقد ادى التصوير الى الكتابة ، وهي انجاز مكنه من نقل وتخليد انطباعات عالمه الداخلي .

ولقد راينا من قبل ان الحيوانات تكشف عن وجود عدة مستويات من السلوك التكيفي الاولي : كالتلاؤم البسيط ، والتعلم عن طريق التجربة والخطا ، والتعلم الواعي المسمى بالتعلم عن طريق الاستبصار ، والذى لا يقوم ، فيما يبدو ، على أساس التجربة والخطا . كل هذه الصور المختلفة من التعلم تحدث طبيعيا في الانسان . ولكن الانسان يستطيع ، فضلا عن ذلك ان يستعين بعمليات تعلميه اخرى ، اما غير موجودة في الحيوانات واما ضئيلة النمو فيها الى درجة لا يمكن معها التعرف عليها . فهو يستطيع تحويل المعلومات الواقعية الى افكار وكلمات مجرده ، لم يقوم بعد ذلك بتدبير هذه الافكار والكلمات ، عقليا ، لاستحداث انماط جديدة من السلوك . كما انه يستطيع وضع رموز مجردة واستخدامها عقليا في حالة وجود الموضوعات والادراكات الحسية الاصلية . وقد ساعدته هذه القدرة على التصور في اكتساب نوع المعرفة والسلوك التكيفي الذى احتاج اليه للسيطرة على بيئته.

**وقد ادت قدرة الانسان على مد افكاره الى المستقبل البعيد ، وهي صفة من اهم صفاته ، الى اعطائه القوة الدافعة اللازمه للبحث عن مزيد من المعرفة وبذل جهود جديدة لايجاد انماط للتعلم تؤدى الى تحقيق هدف بعيد .** والواقع ان العقل البشرى لا يكاد يقنع ابدا بالاحوال القائمة ، ويتطلع دائما الى انجاز اعمال اعظم ، او الوصول الى فهم وادراك اكبر . هذه القدرة على السعي والاجتهاد ، على الرغم من كونها قدرة غير واضحة المعالم ، تكون الحد الفاصل بين الانسان والحيوان .

ان بعض العوامل الاجتماعية التي تتحكم في القدرة التعليمية ، وهي عوامل معترف بها بين الرئيسيات العليا ، تبلغ ذروة تطورها في

الانسان . ومن بين العوامل التي تزيد من دور التعلم فيما يحققه الانسان من منجزات اجتماعية ، الاتجاه البيولوجي الى حمل صغير واحد فقط ، او عدد قليل جدا من الصغار وطول فترة النمو التي يكون فيها الانسان معتمدا على غيره . ففترة نمو ما بعد الولادة تزداد من سنتين في الليمورات (٤) ، الى سبع سنوات في الشانبس ، الى احدى عشرة سنة في القردة الكبيرة ، الى عشرين سنة تقريبا في الانسان الحديث . هذا الاتجاه يكون مصحوبا باعتماد اكبر على انماط السلوك المكتسبة بالتعلم ، وهي انماط مخالفة للانماط التلقائية. واذا كان من عيوب انماط السلوك المكتسبة بالتعلم انها تتطلب عادة فترة طويلة من التدريب والتلمذة ، فانها تتصف بميزة هي انها اكثر مرونة واكثر قابلية للتكيف .

واغلب الظن ان عملية التنشئة تبلغ اقصى درجة من التعقيد في نوع « الانسان العاقل » ، ويرجع ذلك الى ان الجزء الاكبر من نمو مخ الانسان يتم بعد الولادة . فعلى حين ان النسبة بين وزني مخ البالغ ومخ الوليد في الرئيسيات غير البشرية تبلغ حوالي ٥ر١ : ١ ، فانها تبلغ في الانسان حوالي ٤ : ١ . بل ان الاعجب من ذلك هو ان نمو وتكاثر التفرعات والتشابكات العصبية يحدث بامداد لا حصر لها بعد الولادة ، عندما يكون الطفل معرضا لتقلبات البيئة . **ومن هنا لا نكون قد جانبنا الصواب اذا افترضنا ان تركيب المخ البشرى تحدده الى درجة كبيرة تجارب الحياة التي يتعرض لها الانسان بعد الولادة .**

وقد تحقق التكيف ، في عالم الحيوان باسره ، اثناء مجرى التطور ، عن طريق عملية توافق رائعة بين تراكيب الكائن العضوى وانماط سلوكه الانعكاسية وبين تفاصيل بيئته . بل ان الكائنات العضوية الدنيا لا بد ايضا ان تتعلم شيئا عن بيئتها وطرق حياتها ــ فالحشرة يجب ان تتعلم شيئا عن ورقتها ، والطائر عن تغريده ــ ولكن سلوك الحيوان ، على وجه العموم، فطرى وتلقائي الى حد كبير . على ان هذا الكمال يكتسب على حساب تضييق مجال الامكانات التكيفية ، وفضلا عن ذلك فان الحيوانات تتعرض لخطر شديد ، هو عدم التكيف ، اذا ما تغيرت البيئة .

كذلك احتفظ الانسان بعدد من التلقائيات السلوكية كبقايا موروثة ترتد الى ماضيه البعيد ، ولكنه يعتمد اساسا على السلوك المكتسب بالتعلم، وعلى حين ان مجال الامكانات الناتجة من هذا السلوك اوسع في الانسان منه في اى حيوان آخر ، فان نوعية الرعاية التي يتلقاها اثناء المراحل المبكرة من حياته تؤثر تاثيرا عميقا في تحقق هذه الامكانات . فاذا كانت رعاية الطفل هزيلة وضئيلة ، فانه قد لا يحقق ، عندما يصل الى مرحلة البلوغ الا صورة مشوهة لامكاناته ، سواء من حيث البنيان الجسدى او النمو العقلي .

وقد ظل الاعتقاد سائدا ، منذ زمن بعيد ، بان اللغة تؤلف اهم صفة تميز ، على نحو مطلق ، بين الانسان والحيوان ، كما ان التجارب ايدت هذا الرأى الشائع المعقول . فقد ثبت ان من المستحيل تعليم التكلم حتى لقردة الشمبانزى ذاتها ، على الرغم مما بذل في ذلك من جهود مضنية . **على انه ليس من**

(٤) الليمور او الصيمور او قرد مفشقر lemur ينتمي الى رتبة الرئيسيات ، ويتميز بخطم كخطم الثعلب وعينين ضخمتين . ويتغذى على الحشرات والفواكه والطيورالصغيرة والبيض والسحالي .

السهل تحديد مدلول كلمة اللغة على وجه الدقة . فالنحل يمكن ان يوصل بدقة متناهية الى غيره من النحل موقع مصادر الغذاء البعيدة . والرئيسيات يمكنها تحذير زملائها من الاخطار ، ويمكنها ، على ما يبدو ، حث هؤلاء الزملاء على انتهاج سبل معينة للعمل . وقد يكون الاختلاف الاساسي هو ان طريقة الاتصال بين الحيوانات لا تتضمن تعاملا مع الماضي السحيق او المستقبل البعيد ، اى انها لا تمتد الى الافكار المجردة . فهي لا تشير ، على قدر ما يمكننا ان نحكم ، الا الى الحاضر في الزمان والمكان ، والملموس .

ويتوقف امتلاك اللغة على القدرة على القيام بمجموعة مختلفة من الافعال الرمزية ( وهي الاصوات ، والاشارات ، والكتابة ) . هذه القدرة تطورت في الانسان مع الزيادة الهائلة التي حدثت في قدرته التصورية نتيجة لازدياد مخه حجما وتعقيدا . ولكن هذا التغير لا يتجاوز كثيرا ، لسوء الحظ ، قولنا أن الانسان لديه قشرة مخيه اكثر تطورا من قشرة الحيوانات الاخرى ، ولديه ايضا القدرة على الكلام . وتكفي هنا الاشارة الى ان لغة الانسان قد لا تكون فريدة في اية سمة خاصة . وربما كان تفردها يقوم على ترابط وتكامل عدة سمات توجد على حدة في انواع مختلفة من الحيوانات .

ويتطلب الكلام ، من الناحية الوظيفية ، نشاط عدة مناطق من المخ لاحداث توافق بين المعلومات الواردة والمعلومات المختزنة ، ولتحقيق تحكم حركي في الانشطة العضلية اللازمة للكلام . ونظرا الى ان اكثر من منطقة من مناطق المخ تشترك في عملية الكلام ، فان القدرة على الكلام لا يمكن الاستدلال عليها ـ على النقيض من الاعتقاد الذي كان سائدا في الماضي ـ من كبر منطقة من هذه المناطق كما ينعكس في شكل الجمجمة الداخلي . ومن هنا ، فان دراسة البقايا الحفرية لا تبشر بأمل كبير في اكتشافات مرحلة التطور التي اصبح فيها الكلام ، بصورة قاطعة ، جزءا من جبلة الانسان .

وعلى اية حال ، فان القدرة على الكلام اضفت على الانسان ميزات لا شك فيها ، وعلى الرغم من ان المجتمعات يمكن ان توجد بلا كلام ، فان الكلام يجعل جميع الوظائف الاجتماعية اكثر فعالية وتنوعا بشكل كبير . ويعتقد كثير من الانثروبولوجيين ان عملية الانتخاب التي ادت الى الكلام فرضها في الواقع على اسلاف الانسان اعتمادهم المتزايد على الانشطة التعاونية ، وبصفة خاصة حاجتهم الى نقل المعلومات لصنع واستخدام الادوات الى الافراد الاخرين في جماعتهم . فقد اعتمد التقدم في صنع الادوات واستخدامها على تطور اللغة اللازمة للاتصال ، واصبحت اللغة ، بدورها ، الاداة الحاسمة في تطور الحضارة .

وتزداد اهمية نظام الرموز المستخدم في لغة الانسان كلما بعد الموقف الذي يواجهه الانسان من التجربة الحسية او الحركية المباشرة . فبعض انواع التفكير المتعلق بالنظام الاجتماعي ، كالاخلاق او المنطق ، مثلا ، لا يكاد من الممكن ممارسته دون لغة رمزية . وقد قيل ان الانسان لا يستطيع ان يفكر ، في معظم انواع المشكلات ، الا فيما يستطيع قوله ، وان مقولات لغته تزوده بمقولات ادراكه الحسي ، وذاكرته ، ومجازه ، وخياله . وعلى حين ان هذا القول مبالغ فيه على الارجح ، فان مما لا شك فيه ان القدرة على الكلام كانت احد العوامل الحاسمة في تشكيل سلوك الانسان الاجتماعي والثقافي . وفضلا عن ذلك ، فان استخدام

الانسان لنظام رموز مقنن اتاح له المشاركة في قيم تعتمد على الذاكرة ، والفكر ، والشعور ، وهي قيم كان يمكن لولا هـذا النظام ان تظل خصوصية . ان الثقافة الانسانية لا يكاد يمكن تصورها ، في الواقع ، دون لغة .

لقد كان الانثروبولوجيون يميلون ، منذ جيل مضى ، الى تعريف الانسان بانه حيوان رئيسي يمشي منتصبا وله طرفان اماميان ويدان طليقتان . وتدل كلمات **بنجامين فرانكلين** السديدة : « ان الانسان حيوان صانع للادوات » على ان علماء ذلك الوقت كانوا يعرفون أيضا ان صفات الانسان تتضمن ما هو اكثر من خصائصه الجسدية . على ان من المعترف به في الوقت الحاضر ان صنع الادوات ليس صفة مميزة ، لأن عدة انواع من الحيوان تمتلكها . كذلك لا يمكن تعريف الانسان بقولنا انه يختلف عن الحيوانات لأنه يعرف كيف يصمم ويستخدم الادوات لغرض معروف لديه مقدما . والواقع ان اى مقياس واحد للقدرة نحاول بواسطته تمييز الانسان عن الحيوانات ـ سواء أكان القدرة على الاتصال ، او التعلم من التجربة ، او التعاون ، او حتى التصور وربما التجريد ـ يثبت بالدليل وجود قدرة مماثلة له في الحيوانات الاخرى .

ومع ذلك ، فمن الواضح ان الانسان يختلف عن الحيوانات الاخرى . ومن سوء الحظ ان القول الوحيد الذى يمكن تقريره موضوعيا في الوقت الحاضر ( ولنلاحظ ان هـذا لا يثبت صحة هذا الرأى حتما ) هو ان جزءا كبيرا من طابع الانسان الفريد مستمد من مجموعة من الصفات موجودة كلها في انواع الحيوانات الاخرى ، ولكن في حالة غير متطورة فقط في كثير من الاحيان . **واليك قائمة بصفات مميزة موجودة الى حد ما في الحيوانات العليا ولكنها اساسية لرفعة شان الانسان :** درجة اعلى من قابلية التغير ، وتجيع منتصب ، يدان يمكن العمل بهما ، قشرة مخية معقدة ، طول فترة عدم اكتمال النمو وقابلية التعلم ، مهارة في استخدام واختراع الادوات ، كلام رمزي ووسائل اتصال اخرى ، وقدرة على التفكير التصوري والابداع الفني .

**وهناك سمات للحياة الاجتماعية تكاد تبدو وقفا على الانسان وحده ، وتمثل حدا فاصلا بين الانسان والرئيسيات العليا ، هذه السمات هي :** مقاسمة الطعام مع افراد الأسرة ، والبناء الأسرى المستمر على درجة عالية من التنظيم ، وقواعد السلوك المتعلقة بالمحارم ومزاوجة الغرباء . وعلى الرغم من أن كثيرا من الناس تنقصهم ، بدرجة كبيرة ، واحدة او اخرى من هذه السمات ، بل ان الجنس البشرى يمكنه ان يذهب الى ابعد من هـذا ويدعي ان من صفاته الخصوصية قبول القيم الاخلاقية التي تتجاوز نطاق الاحتياجات ، ووعي يسمو على الذهن المحض ، وضمير يقهر المخاوف ، واهتمام بالماضي السحيق ، وقلق على المستقبل البعيد .

وربما كان **مفهوم الاخلاق** اصعب في تحليله وتعريفه من القدرة على استخدام اللغة الرمزية . ولكن من المؤكد انه يتضمن علاقات مشاركة مع الآخرين ، وهي اتجاهات معقدة حاول مارتن بوبر Martin Buber وصفها في الكلمات التالية :

**« ان اعمق نمو للنفس لا يتحقق ، كما يطيب للناس ان يفترضوا اليوم ، في علاقة الانسان بنفسه ، بل في العلاقات بين الواحد والآخر ، اى بين الناس ، اى ، في المقام الاول ، في تبادل الاعتراف بالوجود ـ اعني في الاعتراف بوجود نفس اخرى ، وفي معرفة ان المرء يوجد**

**فى ذاته الخاصة بواسطة الاخر ـ مع تبادل القبول ، والايجاب ، والتاييد » .**

ان حدوث المراحل الاخيرة من التطور البيولوجي للانسان فى آن واحد ، مع المراحل الاولى لثقافته يكاد يجعل من المؤكد ان الصفات البيولوجية والثقافية لا يمكن بحثهما على حدة . فليس هناك شيء يمكن تسميته بطبيعة الانسان البيولوجية الصرفة ، ولو ان هذه الطبيعة كانت موجودة لما امكن الانتفاع بها من الوجهة العملية . فالادوات ، والصيد والزراعة ، والبناء الاسرى والاجتماعي ، بل الدين ، والفن ، والعلم ، كلها قامت بدور فى التشكيل الوراثي للانسان على النحو الذى نعرفه اليوم . ونظرا الى ان الانسان يتطور مع ثقافته ، فانه يحتاج الى ثقافة انسانية من اجل بقائه وتاكيد ذاته بنفس القدر الذى يحتاج به الى الطعام والماء . ومن هنا ، ينبغي الا ينظر الى انماط الثقافة على انها مظاهر خارجية لطبيعة الانسان . وكما قال « كلايد كلكهون » Clyde Kluckhohn فان انماط الثقافة تؤلف خططا وتصميمات لرسم معالم حياة الانسان .

**صحيح ان الانسان حيوان ، ولكنه حيوان لديه قدرة هائلة على دمج جميع احساساته وادراكاته فى نماذج ذات مغزى . وهو حيوان متامل ومفسر ، ومتشوق الى معرفة ما هو اكثر مما تقع عليه العين فى المعطيات المجردة الخاصة بالتجربة . وعن طريق الجمع بين ردود افعاله العقلية وبين الوقائع الفعلية لتجربته الحسية ، يمكنه التعامل مع بيئته المادية والاجتماعية . وجوهر نشاطه العقلي هو تكوين الرموز واستخدامها كبدائل للحقائق التي تدركها حواسه .** وهو يستخدم ذكاءه من اجل ادماج تجارب حياته في ثقافته وبذلك ينقل هذه التجارب من جيل الى جيل عن طريق عمليات اجتماعية اسرع واكثر فعالية من العمليات الوراثية . وهو يستطيع ايجاد انواع جديدة من انظمة الخبرة والتجربة التي تكون احجار بناء التطور النفسي الاجتماعي ، كالمفاهيم العلمية والانظمة القانونية والقواعد الاخلاقية والاعمال الفنية .

وبفضل فكرة الذات ، والتأمل الواعي ، وادراك ان البشر فانون ، اكتسب الانسان شعورا بالتاريخ ، وقلقا على المستقبل . هذا القلق دفع الانسان الى تنمية احساس بالقيم يطبقه على انشطته . ويتجلى نظام قيمه فى صياغته لاهداف واعية على امل امكان ترجمتها الى افعال . وربما كان اعظم مظاهر تفرد الانسان هو اعتقاده بانه يمكنه التخطيط للمستقبل ، بل « ينبغي » عليه فعلا ان يكدح من اجل مستقبل يتجاوز نطاق فترة حياته الخاصة .

● ● ●

**الانسان يصنع نفسه :**

لم يطرا على الانسان ، من الناحية البيولوجية ، سوى تغير طفيف منذ اواخر العصور الحجرية القديمة . فالادوات التي صنعها اثناء هذه العصور لا تزال تناسب ايدينا ، والدوافع القديمة التي شكلت ، لأول مرة ، انشطته القبلية لا تزال تمارس عملها فينا ، والرسومات والمنحوتات الخاصة بفن الكهف وكذلك الاعمال الفنية التي ترمز الى معتقدات ما قبل التاريخ لا تزال تثير عواطفنا . ولكن ، على حين ان نوع « الانسان العاقل » ظل فى نفس الصورة اساسا من الناحية الوراثية ، فان مظاهر حياته وبناء مجتمعاته تتغير بلا حدود ، بل ان مفهوم التقدم ذاته يتضمن ان احداث حياة الانسان الاجتماعية

لا تتكرر ابدا بنفس الصورة . وعلى حين ان دوام طبيعة الانسان يكمن في التركيب الكيمائي لجبلته الوراثية التي تتحكم في المواد البيولوجية التي يتكون منها جسمه ومخه ، فان التغير في حياة الانسان يأتي من الاستجابات الخلاقة التي يبديها هو ومجتمعاته ازاء تحديات البيئة الكلية . فلكي يعيش الانسان لا بد له من الاستجابة ، ومن ثم تنشيط العمليات المؤدية الى التكيف والتطور الخلاق .

ان الدوافع المميزة للانسان ، كالحاجة الى اللعب ، هي صفات شائعة في الحياة الحيوانية ، كما ان الانماط المختلفة لنشاطه وتنظيمه الاجتماعي — بما فيها الصور المرضية المشوهة لهذه الانماط — تميز المجتمعات الحيوانية الطبيعية والاصطناعية على حد سواء . ويستطيع دارسو السلوك الجنسي للانسان ان يجدوا نماذج لهذا السلوك في الزواج المنفرد عند الجيبون (٥) ، وكذلك في مشاعر الابوة المتسامحة عند الغوريللا ، وفي الخبث الذي تبديه مجموعة الاناث المنتمية الى ذكر واحد عند البابون (٦) ، وفي الهدنة المسلحة بين ذكور الشمبانزى واناثه ، وكذلك في تعدد الزوجات الودى بين نسانيس العالم الجديد (٧) والفوضى الجنسية السائدة بين النسانيس الريصية (٨) .

وتلجأ الحيوانات عادة الى كثير من المظاهر السلوكية التي تمثل النمط الشائع في الانسان اذ تعبر عن مواقفها ورغباتها من خلال اصوات واوضاع ومشاهد رمزية . وتبني ذكور طيور العرائش الاسترالية مخادع مزخرفة باتقان ، وهي اعشاش غرام لا تستخدم في وضع البيض بل تصمم خصيصا من اجل اغواء الاناث والزواج بهن ، ولذلك فان اقل الذكور وسامة يبنون اكثر المخادع اتقانا وازهاها لونا ، وهذا يمكن ان يكون بمثابة صورة من صور التظاهر الغرض منها رفع شان ريشهم غير الجميل . وقد اوضح كروبوتكين Kropotkin في كتابه « العون المتبادل ، عامل من عوامل التطور » ، ان الضرورات البيولوجية تؤدى في كثير من الاحيان الى حدوث اتجاهات اجتماعية بين الحيوانات ، وهي اتجاهات تشبه السلوك البشرى الغيرى . وهكذا فان الانسان حيثما نظر فانه يجد ، في مكان ما في عالم الاحياء نماذج تجريبية تحاكي اى مظهر من مظاهر حياة الانسان تقريبا .

ولكن بالرغم من ان النماذج ادوات نافعة وضرورية في التحليل العلمي لمشكلات معينة ، فانها لا يمكن ان تقدم معرفة كاملة بالانسان . ذلك لأن النماذج ، التي لا تمثل الطبيعة تمثيلا حقيقيا على الاطلاق ، لا تضيء سوى جانب محدود من جوانب هذه الطبيعة . هذه المحدودية ليست خاصة بدراسة الانسان او غيره من الكائنات العضوية الحية ، بل تنطبق ايضا على عالم اللا احياء . وقد عبر الفيزيائي

---

( ٥ ) الجيبون gibbon هو اصغر القردة الشبيهة بالانسان التي تضم ايضا الغوريللا والشمبانزى والاورانج اوتان .

( ٦ ) قرد كبير يعيش على الاشجار ، وينتمي الى قردة العالم القديم ، اذ يعيش في افريقيا وجنوبي آسيا .

( ٧ ) اى نسانيس الامريكتين .

( ٨ ) نسناس صغير يشيع في الهند ، وجد في دمه عامل ثبت وجوده في دماء ٨٥٪ من البشر ، ولذلك اطلق على هذا العامل اسم العامل الريصي rhesus factor وهو هام في عمليات نقل الدم .

« يوجين ب . ويجنر » Euhene p. Wigner عن هذه الفكرة بعبارات ذات دلالة عميقة ، وذلك بمناسبة قبوله جائزة نوبل للفيزياء فى عام ١٩٦٣ اذ قال :

**« .. ان الفيزياء لا تسعى الى تفسير الطبيعة . بل ان النجاح الكبير الذى حققته الفيزياء انما يرجع فى الواقع الى حصر اهدافها فى نطاق محدود : فهي لا تسعى الا الى تفسير اوجه الانتظام في سلوك الاشياء . هذا التخلي عن الهدف الاشمل ، وتحديد النطاق الذى يمكن السعي من اجل ايجاد تفسير له ، يبدو لنا ضرورة واضحة ..**

**وتعرف اوجه الانتظام السائدة في الظواهر التي تحاول العلوم الفيزيائية كشفها باسم قوانين الطبيعة . وهذا الاسم مناسب فى الواقع الى حد كبير . فكما ان القوانين الوضعية تنظم الافعال والسلوك فى ظروف معينة ولكنها لا تحاول تنظيم كل انواع الافعال والسلوك ، فان قوانين الفيزياء ايضا لا تحدد سلوك موضوعات اهتمامها الا فى ظروف معينة محددة المعالم على نحو دقيق ، ولكنها تترك ، فيما عدا ذلك ، مجالا فسيحا للحرية » .**

وعلى الرغم من ان للحرية على النحو الذى استخدمه هذا الفيزيائي عندما اشار الى الجسيمات الاولية معنى يختلف اختلافا كبيرا عن معناها عندما تستخدم فى شئون الانسان ، فان التشبيه ، وان كان شكليا فقط ، يساعدنى ايضاح السبب الذى لا يمكن من اجله ان تقدم المعلومات البيولوجية الواردة فى الصفحات السابقة صورة كاملة للانسان الحي ، الذى يحاول عالم الانسانيات فهمه ويسعى الفنان الى التعبير عنه . صحيح ان البيولوجيا الكيميائية يمكن ان تصف المواد التي يتكون منها الانسان ، ولكنها لا تفسر كيف يصبح كل شخص على ما هو عليه عن طريق سلسلة متصلة من الحوادث والقرارات الشخصية . وسوف نقدم فيما يلي بضع ملاحظات تتعلق بالفنون التشكيلية القصد منها توضيح الطريقة التي تكشف بها قدرة الانسان على الاختيار والبت عن وجود حدود لا تتعداها المعرفة البيولوجية في قدرتها على ايضاح طبيعة الانسان . فالصور الملونة ، والتماثيل ، والنقوش ، وغيرها من الاعمال الفنية التي عثر عليها في كهوف العصر الحجرى القديم لا تدع مجالا للشك فى ان ملكة التعبير الفني قديمة جدا . ولم يظهر على هذه الملكة ، لا فى رهافة الحس ولا فى براعة التصوير تحسن ملحوظ على مر السنين العشرين الف الماضية . ومن هنا فان المنطق يقنعنا بان القدرة على الاحساس والتصوير تمثل جوانب فسيولوجية عميقة فى طبيعة الانسان .

واغلب الظن ان الملكة الجمالية ، على النحو الذى توجد به فى الانسان ، تنبع من صفات بيولوجية شبيهة بالصفات التي تجعل الحيوانات تقوم بحركات او تبني اعشاشا تنطوى على ايقاع وتوافق اصيل . والواقع ان كل انشطة الحيوان والانسان لا بد ان يؤثر فيها توالي الدورات الفطرى الذى يحكم العمليات الفسيولوجية، وكذلك النظام السائد فى انماط الكون . فبعض الالوان تتنافر بالنسبة الى بصرنا ، وبعض العناصر الموجودة في تصميم معين تبدو لنا غير متناسبة ، وذلك عندما تتعارض التجربة المكتسبة منها مع مجموعة ما من العلاقات الكامنة في اعضائنا ، او مع الايقاعات التي ندركها ، شعوريا او لا شعوريا ، فى العالم الخارجي ، وعلى النقيض من ذلك فاننا نستاء من الطريقة التي يبدو لنا

بها منظر ، او ملمس او صوت بعض الاشياء وذلك ما لم تكن اعضاؤنا وحواسنا مكونة بحيث تتوافق مع النسب والايقاعات الخاصة بهذه الاشياء . وليس من المهم هنا ان يكون الرضا الذى نحصل عليه عندما تتفاعل حواسنا او اعضاؤنا مع بعض الانماط والمثيرات اساس وراثي صرف ، او ان يكون نتاجا لمؤثرات تكيفية تعرض لها المرء فى باكورة حياته ، ولكن المهم هو ان الشعور بالجمال يمكن ان ينبع ويزدهر بفضل ملكات فطرية بيولوجية الاصل، وهي ملكات لا يبدو انه طرا عليها تغير هام منذ العصور الحجرية القديمة .

ولا يعني هذا كله ان القدرة على الادراك والتمثل تكفي بذاتها لان يخلق الانسان اعمالا فنية ، ذلك لان الخلق الفني يتضمن عوامل خارجة عن نطاق العلوم البيولوجية . فعلى حين ان البشر يستجيبون ليثبتهم من خلال صفاتهم البيولوجية ، فان استجابتهم عادة لا تكون سلبية ، كما لو كانوا وسائط آلية تقع بين شقي رحى المنبه والاستجابة . بل ان استجابة الفنان ليست آلية او مدفوعة بالرغبة فى مواجهة البيئة مواجهة عملية ، وانما هي تؤلف ، على الأصح ، سلوكا تعبيريا ، اعني ان الفنان يستخدم بيئته من اجل تحقيق ذاته واحيانا للتفوق على نفسه .

وهكذا فان عملية الابداع الفني تقدم لنا توضيحا مناسبا لدور الاختيار البشرى فى تحديد مسارات العمل الفردية . فالانسان ، الذى تستثيره حاجاته ودوافعه وحوافزه الفطرية ، يستطيع ان يختار من بين الامكانات المتعددة المتاحة للتعامل مع الطبيعة الخارجية. والواقع ان جميع مظاهر حياة الانسان تهيىء فرصا مشابهة للتدخل الفعال من جانب الانسان ، وهو المخلوق الوحيد الذى يستطيع الاختيار ، والاستبعاد ، والجمع والبت فى الامور عن وعي ، ومن ثم يستطيع التحرك نحو هدف مختار يتجاوز نطاق ما هو حاضر مباشرة فى الزمان والمكان .

ومع ازدياد المعرفة الخاصة بطبيعة الانسان البيولوجية دقة واحكاما ، تتفتح فرص للتدبر الواعي في مستقبل الانسان . والواقع ان الانسان يصبح ما يفعله ، وذلك بطريقة تدعو الى الدهشة ، ولكنها فى الوقت نفسه حقيقية تماما . فعن طريق عمليات التغذية المرتدة المعقدة التي تحكم جميع مظاهر الحياة ، تقوم طبيعة الانسان البيولوجية بايجاد ثقافته ، وتتغير بدورها ، بواسطة هذه الثقافة . ان الانسان قد اصبح على ما هو عليه اليوم لانه ظل يقوم باعمال ثقافية وعقلية طوال الالوف القليلة الماضية من السنين . وسوف يتوقف نوع المخلوق الذى سيصبحه على نوع الانشطة التى يختار الاهتمام بها فى حياته . وهو الآن يسير مسرعا فى طريق اكتساب المعرفة التقنية التي سوف تمكنه من التحكم فى عملياته الفسيولوجية والعقلية . بل انه قد يعرف فى النهاية كيف يتحكم فى تركيبه الوراثي .

**ان قوة الفعل التي ولدها التقدم العلمي الحديث ضخمة الى درجة ان المناقشات التقليدية التي تدور حول المثل العليا للحياة الصالحة اصبحت تنطوى الآن على معنى عملي لم يكن له اى وجود من قبل . وتتوقف الطرق التي يواجه بها البشر اخطار العالم الحديث ، ويستغلون فرصه ، على ما لديهم من معرفة علمية وتكنولوجية ، ولكنها لا تقتصر على ذلك، بل تتوقف ايضا على المعتقدات التي يؤمنون بها ، والاهداف التي يختارونها . والواقع ان**

مستقبل البشرية يتوقف على قدرة الانسان على اتخاذ قرارات مبنية على معايير اخلاقية وجمالية .

اننا ـ نحن البشر ـ سوف ننساق بلا هدف نحو حالة لا يمكننا فيها الاحتفاظ بتلك القيم التي تجعلنا فريدين بين المخلوقات الحية، وذلك ما لم نقرر اهدافا جديرة بمقام الانسان، ونتخذ موقفا في الوقت الحاسم. وهذا مصداق لقول « بول تيليتش Paul Tillich » لا يصبح الانسان انسانا حقا الا في لحظة اتخاذ قرار حاسم . هذا النوع من الحرية هو المعيار النهائي للانسانية ، وهو ارفع المعايير شانا .

* * *

# رينيه ويج
## فيلسوف الجمال



د. ثروت عكاشة

ان « رينيه ويج » فيلسوف انسان ، آمن بان الانسان يقوم -- خلال فن التصوير -- بحوار قيم مع العالم المرئي او المنظور ، وانه بتحليل هذا الحوار يمكن الوصول الى فلسفة للفن ، وانتهى بهذا الى انه لايمكن الفصل بين الفن وبين الجنس البشرى ، بل انه ليرجح ان الانسان قد وصل الى ذروة الفن وقت ان لم يكن مدركا لماهية محددة للفن .

ولا تنحصر اعمال « رينيه ويج » في ميدان الفن الفسيح فحسب ، بل هي تتعداه الى الفلسفة ، فهو يكتب لرواد الثقافة ، ولهذا نجد كتبه وآثاره شاقة عسيرة تتطلب جهدا ذهنيا كبيرا ، غير انها في الوقت نفسه توسع افق الانسان الذى يجد في فن التصوير والتطلع الى اللوحات الفنية راحته وانيسه . على ان « رينيه ويج » وهو يقدم اعماله في هذا الاطار لايتعالى عن الناس ، ولكنه يستهدف مخاطبة الجماهير عن طريق هؤلاء الرواد .

**وتقوم فلسفة « رينيه ويج » على ان وظيفة الفن الرئيسية هى خلق الوسيط بين الكون**

**والانسان ، فالفن يهيء مكان اللقاء بين الواقع المادى الملموس والواقع الروحى المحسوس ، سواء عن طريق الفن الزخرفى المحض الذى يحاكى الطبيعة ، او عن طريق الفن الابداعى الخلاق الذى يسعى الى تفسير الطبيعة .**

**و « رينيه ويج » صاحب نظرة تكاملية ، ينظر الى الموضوع من خلال ارتباطاته المختلفة بغيره من الموضوعات ، وهو فى الوقت نفسه صاحب عقلية تحليلية ، تعنى بدراسة عناصر الموضوع وجزئياته الدقيقة .** واذ كان خطر التخصص المبالغ فيه يهدد عصرنا ، لذا فان « رينيه ويج » دون انكار منه لاهمية البحوث الفرعية الضرورية يطمع فى ان تكون لصاحب العقلية التحليلية نظرة شاملة الى « الكل » .

واذا كانت لرينيه ويج القدرة على ان يحرك النشوة فى فكر قرائه فانه يعرف كيف يثير انتباههم ، ويسبح بهم خارج حدود موضوعه الاصلى عبر الافكار الفلسفية والعلمية ، وتاريخ الادب التى تغنى معارفهم وتزيدهم قدرة على فهم الفكرة الجمالية التى يناقشها .

واذا كان الفنان يرسم اللوحة وهى اولى الخطوات فى هذا الميدان ، والناقد ينتقدها ان مدحا وان ذما ، فان مؤرخ الفن ياتى فى نزاهة تامة وحياد مطلق كي يضفى الاهمية التاريخية على العمل الفنى ، كما يحلل تاثير الاساتذة القدامى والمحدثين فى تكوين هذا العمل الفنى وتشكيله . ومهما كانت العقبات التى تصادف مؤرخ الفن فى محاولاته فهو لابد وان يلتقى « بالروح » . وهنا يجب ان تتوافر فى هذا المؤرخ ، كى يؤدى مهمته على اتم وجه ، صفات عالم النفس الذى تمكن من فهم الفن عن طريق خبرته بالتجانس بين الفن وعلوم النفس والجنس ووظائف الاعضاء والاحلام والحب والتصوف ، وجولات واسعة حول الزمان والمكان ، كى يحدد الدوافع النفسية التى ادت بالفنان الى ان يرسم مارسمه او ينحت مانحته ، وبهذا يساعد المتامل المفتون على ان يكتشف ، بينما هو يتطلع الى العمل الفنى ، الحالة الوجدانية التى كان يعانيها الفنان وهو ينحت لنا عمله الفنى ، وبهذا ايضا نسرى فى الموسيقى والشعر والرقص هذه الوثبة الخلاقة التى يدعونا اليها برجسون والتى ترقى بنا الى القمم ، وتحيطنا بالتامل الاليف الذى يفتح الفكر والقلب ابواب «المعبد» «معبد الجمال» .

وهذا هو ماتمثله مؤرخ الفن الفيلسوف « رينيه ويج » *

**اما رينيه ويج الانسان** فيكفى ان اؤكد انه الى جانب علمه الغزير المتدفق ، وقدراته الابداعية المبتكرة ، واحساسه المرهف بكل همسة جمال ، وادراكه العميق للروح التى تملى على الفنان مايقدم ، انه الى جانب هذا انسان سخى فى صفات الانسان فيه ، فالذين يعرفونه عن قرب يعرفون انه لم يتغير منذ بدا يصعد سلم المجد الى ان بلغ ذروته ، وانما اخذ فى تواضعه وبساطته ونزاهته يزداد قربا

---

* اهم مؤلفات رينيه ويج

| | |
|---|---|
| **Dialogue avec le visible** | (Flammarion) |
| **L'art et L'âme** | (Flammarion) |
| **L'art et L'Homme** | (Larousse) |
| **Delacroix** | (Thomas and Hundson) |
| **Musée du Louvre** | (Nouvelles éditions Françaises) |
| **Formes et Forces** | (Flammarion) |

الى قلوب عارفيه . وان سحر حديثه ليس هو وحده مصدر نجاحه ، وانما لأنه فى نفس الوقت يقدم دائما اجابات لتلك التساؤلات العميقة التى يثيرها عصرنا الحالى . ففى هذا العصر ــ عصر الانسان الموجه والآلة الموجهة والصاروخ الموجه ــ في هذا العصر الذى يواجه فيه الانسان بالتحدي تصبح ضرورة التمييز بين « الكم » وهى سمة الطابع الآلى ، وبين « الكيف » وهى سمة الطابع الانسانى ، حتميه اكثر من اى وقت مضى . واذا كان **برودون** قد قال فى القرن الثامن عشر « **الفن هو الحرية نفسها** » فان رينيه ويج قد اضاف الى الفكر ثراء جديدا في القرن العشرين بقوله « **الفن والاخلاق معا هما آخر معقل تحتمى فيه القيم البشرية فلا يقهرها قط قانون الحتمية** » . ولهذا السبب انتهى الى أن الفن هو اثمن المقتنيات ، لأنه ينقذ ارادتنا فى سبيل الحياة بل ينقذ الحياة نفسها ، ذلك لأنه يستخدم تلك الطاقة الجبارة التى تجعل الحياة فى ذاتها جديرة بأن نحياها . فالفن اليوم لايبدو وسط ضخامة التاريخ واحة عامرة بالسكينة والظلال ، ومسلاة لطيفة ، وشريطا جميلا تتزين به الحياة ، بل اضحى نشاطا رئيسيا للفكر ، ولم يعد هدفه محاكاة الطبيعة على نهج **زيوكسيس** الاغريقى الذى امتلأ سعادة ونشوة وهو يرقب الطير تنقر فى عناد عناقيد العنب التى رسمها فى لوحته .

ولست اجد خير ما اختم به تقديمى لهذه الشخصية المتدفقة بالعلم والذكاء والمواهب ، وشفافية الروح من بعض ماخاطبه به **الأستاذ بول ليون** يوم ان تقلد سيف اكاديمية الخالدين فى باريس : « **لقد انطلقت كلماتك المجنحة مبشرا يجوب العالم ، لاتعترضك حدود ، وتستقبلك عواصم العالم القديم والجديد بنفس الترحاب . ليس حديثك هو الرائع** وحده بل شخصك كله . فأنت تتمتع بموهبة تسحر بها الناس حولك ، وحديثك عطاء سماوى يتقبله الانسان كالايمان دون مناقشة . يصفق لك الناس قبل أن تتحرك شفتاك بحديث . أما خصومك ــ ان كان لك خصوم ــ فيطلقون على ماندعوه نحن سحرا ، براعة ، ذلك ان سحرك يخفى على العقول السوقية . لقد منحك الله هذه الصفات السحرية ، فانت تضيء النفوس وتغرس الحقائق التى تبث المواهب وتؤجج الحياة كلها ، ومع ذلك فان تحليقك وسط السحب لم يجعلك تبتعد عن الأرض » .

● ● ●

**سيبقى الدور الجوهرى الذى يلعبه الفن على ما كان عليه دائما ، احد وسائل الانسان للتعبير عن نفسه** ، وهذا هو الموضوع الذى يتصدى له رينيه ويج وهو يعرض نظريته في الفن كتعبير عن الروح وكنشاط خلاق يفصح الفنان من خلاله عما يختلج بصدره . فمضى يحلل وسائل الفنان فى نقل مشاعره عن طريق « الخط » الى عناصر قدرته على الايحاء لليد ، وينتقل الى تحليل « الكتلة والفراغ » وكيف كشفا عن فكر الانسان عن الطبيعة المحيطة به ، ثم يتطرق الى « الضوء » الذى يكشف ويؤكد ويحجب ويضلل ، ومنه الى « اللون » وقوة تعبيره وقدرته على تحريك نفوسنا والترابطات والتداعيات المتعلقة به وقدرته على استحضار الذكريات ، حتى ينتهى الى « موضوعات التصوير » . وبعد هذا يجول رينيه ويج بين الثروات الجمالية المتنوعة ، متجنبا التعميم ، ولذا قدم حالات بعينها **فبين لنا الى اى مدى يكون الفن تعبيرا دقيقا عميقا عن حضارة ما منبثقا من الفكر المتطور الذى يسودها محتويا مثلها** ، والى

اى مدى يعكس التحولات التى تصيب مجتمعا ما وطريقة معيشته .

• • •

## ١ ــ الرسم واليد

حينما يقف المرء أمام عمل فني يصور مشهدا من المشاهد يحس في اعماقه بمعان كانما يهمس بها اليه الفنان الخالق ، ذلك أن العمل الفنى ليس عرضا لأحد مشاهد الطبيعة فحسب ، بل هو كذلك وسيلة تعبير ينقل بها الفنان الى المشاهد خلجات فكره ونبضات حسه . فهو يعبر احيانا فى احدى اللوحات عن تصوف روحى تعجز عنه الكلمات ، ويسترسل احيانا فى الوصف اما باسلوب روائى جذاب او خال من الاثارة ، وما اكثر ماتنبض مشاعره الغامضة فى لوحاته فتوحى بالحركة وتفيض بالابهام . ويملك الفنان اسلوبا يتحقق به الأسلوب الشعرى والنثرى معا متحدثا الى النفس بصور ورموز لم تعتدها العين ، يستقيها من اغوار النفس ليعبر عن حالة شاردة بين اليقظة والحلم . فالتصوير صورة مستترة للمصور الذى رسمها على حد قول **بيكاسو** . واذا كان التصوير وسيلة الفنان الأولى فى ايصال فكره الى الآخرين وتقديم صورة مجملة للمستقبل القائم فى اعماقه ، فانها الوسيلة التى تبرز فيها آثار تكوينه العصبى والعضلى لأن الرسم في حقيقته هو اثر حركة اليد على اللوحة ، وهى حركة يتميز بها كل انسان عن الآخر . ويستشهد رينيه ويج فى كتابه « الفن والروح» على هذا بلصوص الخزائن الذين يفتحونها من طريق شعلة الاكسجين ، فمع أن وسيلتهم واحدة الا أن الفحص الجنائى قد اثبت ان كل لص يتميز بخط خاص به في طريقة تسليط الشعلة على اقفال الخزانة بما ساعد الشرطة فى اكثر الاحيان على معرفة اللص استعماله بالخط الذى اتبعه ، كما يستعان به على معرفة اللصوص الآخرين ببصمات اصابعهم . واذا كانت الحال كذلك بالنسبة للصوص الخزائن فمن باب اولى ان يكون الفنان متميزا عن غيره بميزات تخصه ايا كان مذهبه في التصوير .

قد يلجا الفنان الى تسجيل مايراه من اشكال ومشاهد طبيعية ، وعليه حينئذ ان يكبح جماع عواطفه وانفعالاته ، وان يلتزم بتقديم شبه كبير بين صورته وبين ما تصوره حتى تتلاشى شخصيته في صورته ، تلاشى **شخصية الممثل** فى دور البطل الذى يؤديه ، ويبعد بذلك عن المؤلف المبدع فى خلق شخصياته وصبغها بسماته الذاتية .

ولكنه حين يلجا الى الايحاء يتخلى عن المظاهر الحقيقية للأشياء الى حيث يبرز نبضات الحياة المتخفية وراءها ، وهو لا يسجل حينئذ الطبيعة بل يضفى عليها روحه . وكانت خطوط **رمبرانت** ، اشهر المصورين الايحائيين ، تجرى على اللوحة وكانها تلاحق انطباعا معينا قبل ان يغيب ، ففى لوحته التى تصور الشيطان وهو يعرض على المسيح ملكوت العالم **( لوحة ١ )** تتحول الخطوط الوجيزة الصارمة الى اشارات موحية بمعان غير مرئية .

على أن مدى سرعة يد الفنان حين تجمع بين تسجيل نبضاته الانفعالية والعضلية المتمثلة في حركة اليد تخلق ايقاعا يحمل الانطباع الى حس المشاهد ، ويبدو من وراء النموذج المصور وكانه صرخة يطلقها الفنان محملة بالعديد من الايحاءات التى لم يكن يقصدها حين بدأ يرسم لوحته .

وقد يلجا الفنان الى التكوين الهندسى مستغلا ذكاءه وقدرته على التجريد فى تحويل الاشكال الطبيعية الى مجموعة من الرموز

الذهنية المتجسدة عن طريق المنحنيات والتعرجات والانكسارات المنتمية الى الدائرة **او شبه الدائرة او الشكل البيضاوى والتي سماها هوجرث ( فى القرن الثامن عشر ) بخط** الجمال الأساسى . وليس التكوين الهندسى فى الرسم الا محاولة للنفاذ الى جوهر الاشياء الغامضة المتغيرة فى الطبيعة ، واخضاع الطبيعة للذهن بدلا من الانفعال بها على غرار ما يحدث مع الفنان التسجيلى او الايحائى . ولكن كيف يحدث اللقاء بين الفنان والعالم ، بين ذاته وموضوعاته ؟ .

هناك فنان يقبل على موضوعاته فى حب واضح مثل رمبرانت فى تصويره لوجه المسيح **(لوحة ٢) فلم يعد التعبير هنا مبنيا على الحكايات** المتواترة عن المسيح ، بل ينبثق كالنور ويشع كحرارة الحب ولهيبه . فالمسيح بالنسبة للفنان هو مشكلة النفس ، هو مشكلة حياته « الجوانية » الذاتية . ومثل **دى لا كروا** فى لوحاته الزاخرة بالالوان الحارة العاطفية ، وقد خلف لنا الفن الرومانسى **لوحات تفيض بمحبة** تسمو احيانا الى مستوى التصوف .

وهناك فنان يتناول موضوعاته فى اثرة تدفعه الى التشبث باحد التفاصيل مثل **آنجر** الذى يحرص على تسجيل مايرافق دقة بالغة . وهناك فنان يقبل على موضوعاته بروح عدوانية مثل **بيكاسو** الذى يخضع المرئيات لمطالبه الذاتية ، يحطم بناءها الخارجى ثم يعيد صياغتها وفق الهاماته واهوائه الخاصة **( لوحة ٣ )** .

ومنذ القرن الثانى عشر ظهرت في فرنسا ، التى كانت تسودها حينئذ الرقة المتالقة فى عالم الدين والادب ، فكرة رسم خطوط منحنية متداخلة على غرار زخارف التوريقات ، وان زخرت بحساسية ارهف ، ثم انتشر هذا النهج فى اغلب انحاء أوروباء خلال عصر النهضة ، مرتبطا بالحركة الفنية والادبية التى ازدهرت فى بلاط الملوك والنبلاء ، والتى انحسر معها التصوير الكلاسيكى الواقعى داخل مجتمعات التجار الصغار البرجوازيين الهولنديين والفلمنكيين من امثال **رمبرانت** .

وظلت واقعية الفن الفلمنكى واقعية جادة بعيدة عن الزخرف ، بينما اتسمت واقعية الفن الجرمانى بالمغالاة التى انطوت على بعض التشويهات والحركات العنيفة التى تترجم مديدا من المشاعر المختلطة . وقد ارتبطت هذه الواقعية بالحضارة الالمانية التى بدات متخلفة عن حضارة جاراتها والتى اعتمدت على استخدام المعادن اكثر مما اعتمدت على الزراعة الموحية بالسكينة والتناسب والهندسة ، فلم يعرف الانسان الجرمانى هدوء النفس ولا نشاط الذهن اللذين يسودان المجتمعات الزراعية المستقرة ، وانما كان يحس بالاخطار تتهدده ، والقلق يعشش فى نفسه ، وظروف الطبيعة القاسية تترصده ، وقد استولت عليه بعد انهيار حضارة العصور الوسطى الدولية ، فكرة الشيطان والموت اللذين يهددان امنه وحياته حتى نحس الخوف والوحشية فى اعماله الفنية . واننا لنستشعر في لوحة صلب المسيح **لجرونيفالد** صرخة العذاب والتوجع المنطلقة فى افق يخنقه الضباب المعتم ، على حين لا نحس في اللوحات اللاتينية لصلب المسيح غير الدعة والهدوء واشراقة السماء ، وان كانت الحربان العالميتان وقلق العصر قد اصابت الروح الفرنسية بالانقباض حتى رسم الفنان **برنار بوفيه** صورة حديثه لصلب المسيح يذكرنا ما فيها من عذاب جسدى بصورة الفنان الالمانى جرونيفالد السابقة . ( لوحة ٤ ) .

غير ان التصوير اذا كان يعبر عن العصر الذى ينتمى اليه ، فانه يعبر كذلك عن كيفية مواجهة الفرد للعالم الذى يحيط به ولمصيره على الارض ، كما يعبر عن رد فعل الضغوط الاجتماعية المختلفة فى نفس الفرد ، ونستطيع ان نتبين ذلك فى اللوحات التى رسمها الفنان **فان جوخ** ما بين عام ١٨٨٤ وعام ١٨٩٠ ، فقد رسم فى لوحته الاولى « حديقة بيت القس فى الشتاء » السماء الفسيحة المشرقة التى تتميز بالاشياء واضحة تحتها ، وتكشف فى الافق عن ابراج كنيسة تعبر عن تصوف الفنان وانشغال فكره بقضية **اللانهائية** ، حتى اذا انتقلنا الى اللوحة الثانية وجدنا خطوطها المفتتة تكشف عن عجلة فى تسجيل خواطر تكاد تفلت من بين يديه ، وعن شبح الجنون يكاد يقترب منه ، ثم نحس الجنون وقد سيطر عليه فى لوحته التى تصور حقل القمح وقد بدا القمح اشبه ما يكون بامواج بحر متلاطمة او بلهب نار متقدة ، ثم يصبح الجنون هو طابع خطوطه التى استحالت بدائية غليظة تشيع الخوف الممزق من النار ( لوحة ٥ ) وهكذا نستطيع ان نتكشف اخلاق الفنان من خطوطه كما نتبين اخلاق الكاتب من طريقة كتابة حروفه وكلماته .

• • •

## ـ الشكل والذكاء :

ولكن كيف يستخدم الفنان ذكاءه لتحويل المنظر المرئى الى رموز رسومه ؟

لا شك ان نظرة الانسان البدائى الى ظواهر العالم المحيطة به والغريبة عليه لم تختلف كثيرا عن نظرة الطفل الوليد ، وكان على الفنان البدائى ، العصر **الحجرى القديم** ان يحاول جهده تمييز الاشياء احدها عن الاخر ، فكان يحدد الاطار الخارجى للاشياء بخطوط بسيطة ، ثم يحاول الربط بين الاشياء التى يصورها ، وكانت فائدة تحديد الاطار الخارجى للحيوان تسهيل اصابة الصيادين له .

ومع ميلاد العصر الحجرى الحديث ولدت الهندسة ، اذ انتقل مركز الثقل فى علاقات الانسان من علاقته بحيوانات الصيد الى علاقته بزملائه من البشر ، واخذ الانسان ينظر الى العالم نظرة هندسية مع ظهور الحضارة الزراعية فى مصر وما بين النهرين حوالى عام ٣٥٠٠ ق.م ، فقد اجتذبت الرقعة المزروعة اهتمام الانسان فجعل يقسمها تقسيما منتظما ييسر زراعتها وتوزيعها الى ملكيات صغيرة . واثر هذا الشكل فى حس الفنانين فاخذوا يخضعون لوحاتهم لنظام هندسى تتجمع فيه الاشكال فى مجالات محددة . وقد لعبت الجدران الحجرية دورا هاما فى تحديد الاشكال التى تنقش عليها ، فظهر قانون « المواجهة » الذى يقضى باخضاع الشكل للمادة التى تنقش عليها على مستوى واحد دون عمق أو تجسيد ، ثم ظهرت فكرة التماثل وفرض نموذج موحد محدود هو تمييز الاجزاء او الاشكال المختلفة حتى لا يختلط احدها بالاخر .

واخذت الحياة تظهر فى لوحات الحضارات الزراعية فى ايقاع وتكرار استقاهما فنانو مصر القدماء من تتابع مواسم الزراعة وفصول السنة وايقاع النمو الملحوظ فى النبات . ونستطيع ان نلمح عناية الفنان المصرى القديم فى تسجيل حركة النمو فى فنونه المختلفة ، فنجده يعنى بابراز نمو الريش فى اجنحة الطيور التى يصورها ، واظهار طيات الملابس التى يرسمها ، ويشيد المعابد من مكعبات يتضمن كبيرها صغيرها ، بينما خلا الفن العراقى المعاصر للفن المصرى من هذا الاحساس بالنمو مكتفيا بتكرار الوحدات المتماثلة على النحو الذى نراه فى الاختام الاسطوانية .

وقد بقيت القواعد الهندسية التي اهتدت اليها الحضارات الزراعية ثابتة في المجالات الفنية حتى اليوم ، وما تزال الحضارة الغربية تستخدمها دون أن تضيف اليها خلال الزمن الطويل غير تقريبها من الشكل البصري الواقعي الى حد محاكاته ، واذا كان التصوير قد قام في الأصل على تمثيل الأشكال في بعدين اثنين، بينما قام النحت على تمثيلها في ثلاثة ابعاد ، فقد استطاع التصوير بواسطة خداع العين أن يعطي الايحاء بتمثيل الابعاد الثلاثة غير ان قواعد المنظور قد فرضت سلطة الهندسة ومبادئها الصارمة .

غير أن الفنان الزراعي قد حصر همه في تجسيد الشكل المتحرك في احدى لحظات حركته ، ولم يستطع التعبير عن الشكل خلال حركته الا بعد اكتشاف المعادن واستخدامها، وقد عاصر ذلك ظهور روح المغامرة والشغف بالابحار والكشف عن مجالات جديدة واسعة، عبر المحيطات والصحراوات ورأينا اثر ذلك في فنون قبائل سهول آسيا الوسطى ، وفي سفن الفايكنج التي تعتمد في تكوينها على المنحنيات الانسيابية التي تتيح لها الحركة والانطلاق في يسر وسط المعوقات .

واذا كان اكتشاف المعدن قد ترك آثاره في الفنون القديمة ، فقد لعب كذلك اكتشاف البخار في القرن الثامن عشر واكتشاف الكهرباء في القرن التاسع عشر وما تلا ذلك من اكتشاف طاقات متعددة حتى الطاقة الذرية دورا في تغيير نفسية البشر وفنونهم . وقد سجل الفن الحديث ترجمة رائعة لحركة الطاقات الجديدة التي اكتشفها الانسان وسخرها لخدمته . وكان فن العمارة هو اول الفنون التي خضعت للاكتشافات الجديدة لاستخدام الطاقة . ويمثل برج ايفل المقام عام ١٨٨٤ ثورة على قوانين العمارة التقليدية ، وقد شيده **ايفيل** بقضبان حديدية لم يستخدمها أحد في العمارة من قبل . ومن ناحية أخرى اوحى بانشائه هذا بفكرة الارتفاع الرأسي الذي اتاحه استخدام الحديد . وتعد العمارة الطليعية الحديثة خروجا على صفة الافقية التي تتميز بها العمارة الكلاسيكية .

وقد خرج فن النحت بدوره على قواعد التشكيل التقليدية بمحاولة التعبير عن الحركة المجردة ، واستخدام الاشكال الهندسية البحتة استخداما متطرفا بعيدا عن جميع قواعد الهندسة المألوفة بحيث تبرز لنا في النهاية نماذج لصور ذهنية غير موجودة في العالم المرئي .

• • •

## ٢ ـ الضوء والحياة :

يدرك الانسان معنى النور لحظة انبثاق النهار من الليل ، وقد عرف الوعي البشري منذ ظهور الحياة الفرق بين الأبيض والأسود ، بين الحياة والموت ، بين الخير والشر . وقد لعب التباين بين الضوء والظلمة دورا أساسيا في الفنون البدائية ، فقد كانت وظيفة الضوء هي أن يميز بين الكتل المرئية التي تحددها خطوط سوداء ، ثم تطورت وظيفة الضوء مع مرور الأيام وأصبح عليه أن يميز بين اجزاء الشيء الواحد بتدرجه عليها تدرجا يحرك فينا الاحساس بالنتوءات والمنحنيات الموجودة في جسد معقد كالجسم البشري ، ثم اكتسب بعد ذلك وظيفة ثالثة هي ابراز الفروق بين القيم اللونية المختلفة ، وهو ما أتاح للفنان أن يميز بين درجات اللون . وقد استخدم **ليوناردو دافنشي** الضوء استخداما ثوريا حين ابتكر طريقته المعروفة باسم « الظل المدخن » « سفوماتو » التي تجعل الشكل المصور يتراءى للمشاهد وكأنه مغلف بالغمام ( لوحة ١٦ ) .

وظهرت فى أواخر عصر النهضة محاولات للتحرر من الاشكال المألوفة التي خضعت للقواعد الجمالية التي وضعها فنانو عصر النهضة بعد تجاربهم الطويلة منذ عهد **جوتو** حتى عهد **رفائيل** ، فنحت **ميكلا نجلو** تماثيل بشرية تتلوى فى عسر وكأنها تصارع للخلاص من قوانين الاتزان الكلاسيكي والجمال الهادىء . وكانت محاولة **مكلا نجلو** شبيهة بأزمة المؤمنين المعذبة ابان عهد الاصلاح الديني .

ولم يكن تطرف ليوناردو دافينشي فى فرض الضوء على اشكاله الا محاولة واضحة للهروب من سلطان الشكل . **وتعد هذه المحاولة ثورة** فى تاريخ الفنون التشكيلية ، فقد كان أول من اتاح للضوء أن **يحل محل** تحديد الشكل المصور ، فلم تتوار خطوطه خلف الضوء ، بل لقد كان نفسه هو الذى يوحى بالشكل المختفى وراءه كذلك يمثل الاهتمام بالتنوعات المختلفة التى يمكن ابرازها بتغيير درجة الضوء المحاولة الهامة فى العصر الحديث لتسجيل الحياة بكل ما تنطوى عليه من تغير وغموض واكتشافات متتالية .

واذا كان ليوناردو هو أول من فهم امكانيات الاسهام الخلاق للجلاء والعتمة فى الفن فان **جورجيوني** قد خطا في اثره خطوة جديدة حين استغل « العتمة » التي يختلط فيها كل شيء ولونها وجعلها تتسق مع ثراء روحه الداخلي ، حتى لم يعد من الممكن تمييز عناصر اللوحة الا بواسطة الحس .

وقد أدى اكتشاف قيمة الضوء فى فنون التصوير الى ادراك اختلاف ضوء النهار من ساعة لأخرى وتنوعه الى حد يصعب معه احصاؤه . ويمكن أن نقول ان تاريخ فن التصوير منذ عصر **فان آيك** حتى عصر الانطباعيين فى القرن التاسع عشر هو تاريخ أساتذة الاضاءة فى التصوير . وقد فرض الضوء مشكلة الظل والضوء فى كل شكل منذ عهد فان آيك . واذا كنا نجد **الضوء يحدد الأجساد فى بعض اللوحات** فاننا نجده يخدم غرضا آخر يضفى على الاشياء طابعا مختلفا عن الطابع العادى ، اذ يبرز الامكانيات الخيالية العجيبة الكامنة فى الاشياء حين تتصارع **فيها الظلمة مع الضوء** . وقد استطاع **بلليني** ابراز وحدة المسيح فى اقسى لحظات عمره حين صوره على جبل الزيتون الذى تكتنفه ظلمة الليل ، بينما تحبو أشعة الفجر الوليد من خلف الوديان ( لوحة ٧ ) .

وكانت الأشياء تصور فى البداية فى وسط يغمره ضوء خالص لا يبرز **لها معه ظل، ثم اخذت الظلال** تظهر مع ظهور فكرة استغلال الضوء وتأثيراته فى فن التصوير الاوروبى ، ويغلب على الظن أن **كونراد فيتس** كان من أوائل الفنانين الذين أدركوا **أهمية الظل في تجسيد** الاشكال ، كما شغل الصراع بين **الظل والضوء** **كارافاجيو** ، وقد ابرز أحد تلاميذه الضوء فى لوحته « الكوتسير » وكأنه ينتزع الشكل من الظلمات انتزاعا دراميا عنيفا ( لوحة ٨ ) .

ثم أخذت الاشكال تتفتت منذ أوائل عصر النهضة ، وصورت أسقف الكنائس والقصور على شكل سماء مضيئة لا نهائية ، حتى ازدهرت المدرسة الانطباعية فى القرن التاسع عشر وساد الضوء الى حد زالت فيه **معالم** الأشياء وعناصرها ، ولم تعد الصورة تتشكل الا من تكوينات ضوئية مختلفة . غير أن هذا التطرف فى سيادة الضوء على الشكل قد أدى الى رد **فعل صارخ** يتمثل فى التكعيبية التى تبدى اهتماما كاملا بالاشكال ، **وتحيلها الى** صور ذهنية هندسية .

واذا كان الفنان قد نجح في ابراز الأشكال في الصورة بفضل انتصار العقل البشرى والمنطق وتنظيم المرئي ، فقد كان استخدامه **للضوء انتصارا لنفس الفنان التي استطاعت ان تبث اسرارها وانفعالها بقوى العالم المحيط** وطاقاته خلال العمل الفني . وهكذا أصبح **الضوء هو روح الأشكال المصورة وهمسة** النفس البشرية في العمل الفني ، واستطعنا ان نحس به رغم انه شيء غير مادى وغير قابل للوزن ، فهو يرمز الى ما ليس مرئيا في العالم . وقديما كان افلاطون يرى ان الخير قمة الواقع وانه يعكس النور في عالم الحس ، كما يعكس الحقيقة والذكاء في عالم الفكر . وقد اعطى اكثر الفلاسفة شاعرية مغزى للضوء بسموه فوق عالم المادة ، بل ان منهم من جعله سمة المطلق الالهي الذى يهبط في نفوسنا على شكل الحقيقة والخير والجمال .

وقد عد افلوطين ( ٢٠٥ - ٢٧٠م ) المحيد افلاطون الضوء مصدر جمال الأشياء ، وانتقلت **نظرته الى الضوء باعتباره سمة الروح الى** العصور الوسطى ، فقد كان له اكبر الأثر على الفكر المسيحي منذ القرن الثالث الميلادى رغم انتمائه الى العصر القديم . واضفى المصورون **المسيحيون الأوائل على الضوء صفات الهيبة** وجعلوه رمزا للموضوعات المقدسة ، وحملوا اللون الذهبي الغالب على الفسيفساء البيزنطية هذه المهمة التي اسندوها كذلك الى الزجاج الملون بنوافذ الكنائس لقدرته على تحليل الضوء ، **كما عده بعض علماء اللاهوت رمزا للعذراء حين نزل عليها الروح القدس لتحمل** بالمسيح .

واخذ الضوء فيما بعد العصور الوسطى يعبر عن نفس الفنان اكثر مما يعبر عن النور الالهي . ونستطيع أن نقرن فن كل من كبار المصورين منذ عصر النهضة بأحدى مراحل الضوء بالنهار خلال تغيراته المتعددة : **فضوء بوتشيللى** مثلا ضوء فجرى ، وضوء **روبنز** ضوء ما بعد الظهيرة وضوء **جورجيوني** هو ضوء الغروب . وهكذا كان كل مصور كبير **يرتبط بضوء ساعة معينة من بداية النهار الى** الليل . ويعد تصوير **دلاكروا** في سقف بهو ابوللو بقصر اللوفر مثلا بارزا للصراع بين الليل والنهار ، فقد اشار في تصوير ابوللو وهو يقهر الافعوان بيثون الى النور وهو يتغلب على الظلام تغلب الله الروح على الشيطان امير الظلمات .

• • •

## ٤ – اللون وروح الانسان

كان اكتشاف فن التصوير **لامكانيات الضوء** ايذانا بالتعرف الى امكانيات **الألوان** التي تبث الا الضوء المحيط بنا . **ولم يكن** الفنان يستخدم الالوان في البداية الا على انها عنصر زخرفة للشكل ، فكان يستخدم الألوان لمجرد التفرقة بين الأشكال المختلفة ، وظلت **هذه النظرة قائمة طوال الفترة التي كان الشكل** فيها سائدا في الصورة . وقد استخدم الفنان الفرنسي **جوجان** هذه النظرة حين اراد التحرر من ولع الانطباعيين **بامكانيات الضوء الكثيرة** ، فاخذ يصور لوحته في مجموعات من المساحات اللونية المتداخلة .

غير ان اللون لم يقف عند حد تجميله للشكل في المساحات اللونية المتداخلة ، بل اخذ **يرتبط بالضوء ارتباطا يذوب معه فيه ويتحدبه** حتى يصبحان معا وحدة لا تتجزا ، ياخذ **اللون من الضوء اشراقه ويصبغه بالوانه** . ونستطيع ان نتبين الفرق الواضح بين **الفسيفساء الرومانية التي تتالف من مكعبات** ملونة تشكل صورة محددة السمات ، وبين

الفسيفساء البيزنطية التي يتداخل فيها اللون الذهبي مع الالوان الاخرى فيكسبها رونقا جديدا. وقد حدث ذلك ايضا في الزجاج الملون لنوافذ الكنائس القوطية حيث تمتزج الاضواء والالوان فتسبغ على الشكل المصور دلالات جديدة ، مضيفة بعدا جديدا للابعاد السابقة وهو بعد الشدة ، ذلك ان الاضواء المختلفة تحدث في سقوطها على اللون تنوعا في شدته ، وهو ما ادى الى تكاثر الالوان وتزايدها . ولم تكن الوان الصور الجدارية المصرية القديمة لتزيد في بدايتها عن سبعة الوان ، بلغت عشرة الوان في عهد ازدهار الدولة الوسطى ، منها لونان اخضران ولونان ازرقان وثلاثة الوان حمراء . وقد لعب اكتشاف الزيت كوسيلة للتصوير دورا عظيما في تطوير هذا الفن في العصر الحديث ، وذلك ان الزيت لا يقف عند حد تلونه ، بل ان سمك الطبقة التي يضيفها الفنان الى لوحته يمكن ان تمثل اعماقا وشفافيات اضافية ، وهو ما اتاح للفنانين تصوير الالوان الدقيقة التي تتضمنها الاشياء او تسبح في الاجواء المحيطة بها . وقد قال كردتشو احد علماء الفن في اوائل القرن السابع : « تتألق الالوان وتتغير مع تنوع الاضواء التي تتسلط عليها كضوء الشمس او ضوء اللهيب وما اليها . بل ان الظلال نفسها تصطبغ بالالوان المضاءة في الاشياء المصورة » .

ومعنى هذا ان الالوان في العالم المرئي ليست ثابته ولكنها عرضة للتغير والتألق ، وان بعضها ينعكس على بعض بطرق لا حصر لها . وقد جعلت الحركة الانطباعية من اللون تجسيدا للطاقة الضوئية ، وحققت اكبر انتصار بتحريره من كل قيد سوى التعبير عن الاهتزازات الاونية ، وضحت من اجله بالشكل الذي كان اللون في البداية عبدا خاضعا له . وقد ترتب على ذلك ثورة في الفن كان اهم آثارها ابراز فكرة جديدة في التصوير هي فكرة الكيف بدلا من الكم ، فقد اخذ الضوء يفرض نفسه على العيون ويشدها ويحرك احساس الانسان بالاختلافات الضوئية واللونية حتى يشعر بشدة الالوان المختلفة ، وهو ما لم يكن يعيه من قبل .

ولقد امكن تحليل درجة الضوء زيادة او نقصانا، اما حين اصبح الضوء ملونا فقد تغيرت طريقة القياس لان كل لون يختلف عن الآخر ويؤثر تأثيرا متميزا على جهاز الانسان العصبي. وهكذا فان الالوان لا تختلف كالضوء في درجتها وانما في طبيعتها ، ثم ان لكل لون اسما ، غير ان اسم احد الالوان لا يكتسب قيمته الحقيقية الا اذا كان ذكره كافيا لكي يستعيد الذهن ذكرى تجربة عاشها في الواقع وشهد خلالها هذا اللون على وجه التحديد وعرف وصفه المعين ، وهي تجربة ذاتية لا يمكن نقلها لانسان آخر ، في حين انه يمكن تصور اى شكل بعد تحديد معالمه الهندسية ، بل يمكن تحديده بدقة بالاستعانة بالحساب ، اما اللون فيتطلب جهدا من الحس لادراكه ، فهو يحس ولا يفهم .

واذا كانت المساحة والمادة تعودان الى عالم الكم وتخضعان لمقاييسه ، فان الحياة الجسدية الممتدة عبر الزمن ترتبط بتجربة « الشدة » ودرجاتها ، وهي تجربة ذات طبيعة « كمية » رغم خضوعها للتقدير الحسي ، على حين تنفذ الحياة الانفعالية الى عالم اكثر تنوعا وانفساحا وهو عالم « الكيف » اى الطبيعة الذاتية المحددة لكل انفعال ، والتي لا يمكن تداخلها في انفعال آخر . ان تجربة الاحساس «بالكيف» هي تجربة « جوانية » ذاتية لا يمكن ان يحس بها الا من عايش التجربة بنفسه ، والعمل الفني هو محاولة « برانية » **موضوعة لابراز هذه** التجربة الذاتية الجوانية التي لولا العمل

الفنى لبقيت كامنة فى الاعماق ، ولا يستمد اى شكل فنى جماله من نسب عددية او هندسية، بل من احساس الفنان « الكيفى » وانفعاله الفريد به ، وكذلك بما يضعه فيه حسه « الكيفي » الذى لا يمكن ان يتضمنه الشكل بذاته وبتحديده المجرد .

وقد اختلف الفنانون فى طريقة استخدام الالوان بين خاضع لتقاليد شكلية ومستهدف لتالف الألوان ، وان ظلوا مرتبطين بمفهوم مساحة الصورة غير مهتمين بقضية الشدة ، يجمعون مختلف العناصر فى تكوينات متالفة مع اتخاذ التباين أساس العلاقات بين المساحات الملونة فى الصورة ، على نحو ما فعل **جوجان وماتيس** الذى تحس ان بين فنه وبين الفنون الزخرفية كالفن الاسلامي علاقة وثيقة ، لان الزخرف بطبيعته هو تجميل المساحة واداة فى خدمتها .

على ان هناك مجموعة من الفنانين الـذين يستغلون الالوان استغلالا مختلفا عن ذلك لأنهم يعدونها بمثابة اصداء لنغمات كامنة فى النفس . وهكذا يدرك العقل الأشياء الواضحة بينما تحس النفس بالأشياء غير الواضحة ، وهم لا يضعون الالوان متجاورة على غرار الفسيفساء الملونة ، وانما يحاولون ابراز الامكانيات اللانهائية لمزج الالوان بعضها ببعض وشحنها بذبذبات تتالف مع ذبذبات النفس مشكلة ما يسمونه بالجو الفني ، وهكذا يصبح اللون لغة وجدانية تتحدث الى نفوس المشاهدين . واذا كانت لكل لون دلالة خاصة تتفق مع حالة نفسية معينة عند المشاهد فان دلالات الألوان المختلفة حين تتالف فى مجموعات متعانقة تكتسب ابعادا فسيحة تنفذ بها الى اغوار النفس البشرية . وقد مال كل فنان عظيم الى مجموعة من الالوان اتخذ منها لغته الصامته التي يعبر بها عماق نفسه . واستغل فنانو فجر النهضة الايطالية في القرن الخامس عشر مثل **بوتيتشيللى وفرا انجليكو** الالوان المشتقة من الأزرق والوردى للتعبير عن موضوعات تدور حول فصل الربيع ، ونراها تشيع حيوية وشبابا بزهورها وورودها، وعشق **تسيالو** الالوان النحاسية والذهبية والحمراء والزرقاء الشديدة الزرقة ، كما اختار **رمبرانت** اللون الذهبي والأحمر اللهبي والظلال العسلية والالوان القاتمة . على ان هؤلاء جميعا لم يعبروا باللون عن الشكل وانما حملوه اصواتهم الجوانية التي تنتقل الى اعماق المشاهد انتقال الموجات الصوتية .

ثم ان الكشف عن هذه الطاقات الكامنة فى الالوان لم يتم الا بخطى وئيدة وطويلة ، وقد اخذ سلطان اللون على النفس البشرية ينمو مع نمو وعى الانسان بطبيعته واحتياجاته . وكانت دلالة اللون فى العصور الوسطى مرتبطة بالضوء اقل مما هى مرتبطة بالشكل . وقد أعطى فنانو العصور الوسطى الألوان دلالات خاصة قبل معرفة طبيعتها التعبيرية التلقائية وجعلوها بمثابة رموز . غير ان الألوان ما لبثت ان تحررت من هذه الرمزية واصبحت ذات قوة تعبيرية ودلالة شعورية جديدة ، ثم اكتسب التصوير الزيتي حرية جديدة فى القرن التاسع عشر فاستطاع كما قال الفنان الفرنسى الكبير **دلاكروا** « ان يعبر عما يؤثر فى النفس بواسطة الأشياء التى لا تؤثر الا فى الحواس » ، ولا شك ان اللون هو اهم ما يؤثر في الحواس .

وقد وجد فنانو ما بعد عصر النهضة فى الطيف اللونى وفي الامكانيات اللانهائية للتاليف بين عناصره وسيلة للتعبير عن ادق الفوارق بين الامزجة النفسية ، وكانما يمسك الفنان بيده وترا موسيقيا يتحكم فيه على هواه . غير انه

كان من الضرورى الكشف عن تفسير سليم لقدرة **الالوان على التعبير** عن حالات النفس ثم الخروج من ذلك بنظرية فنية متكاملة . وهذا هو ما فعله **دلاكروا** الفنان والمفكر معا . وقد اصبح دلاكروا بفضل منهجه الفني رائدا للحركة الانطباعية والرمزية ورائد فن **جوجان** ايضا ، وكان يعد اللون رسالة خاصة في الكشف عن التجربة المعاشة في اعمال الفنان ثم في تحويلها الى شيء مدرك محسوس . ذلك أن الفن ليس سمة لما هو معروف مرئى بل سمة للخفى المجهول . انه لغة تختلف عن اللغة العادية التى تخاطب افكارنا وآراءنا لانه يحمل تجارب الحياة الى حسنا قبل أن يتدخل العقل في **تنظيمها او صياغتها** . ويستطيع العمل الفني أن يثير فينا مشاعر لا تستطيع الكلمة المجردة ان **تعبر** عنها الا تعبيرا مبهما . ثم ان الفن التصويرى لا يؤثر بواسطة الشكل كما **يؤثر** فن العمارة او فن النحت ، وانما يؤثر تأثيرا ابعد مدى لانه يجمع بين البيئة والجو والضوء والألوان المختلفة في تكوين جديد يمكن مقارنته بالتكوين الموسيقى . بل لقد تحدث دلاكروا عن « موسيقى اللون المصورة » وقلده في ذلك الكثيرون من المصورين من بعده . ثم أن الفضل يعود اليه في اعتباره الفن تعبيرا عن خفايا نفس الفنان دون وعي منه بذلك ، وقد فتح الفنانون من بعده اعينهم على هذه الحقيقة فاخذوا ينصتون الى الأصوات الخفية الصارخة في اعماقهم ليعبروا عنها برموز ملونة من العالم المرئى .

• • •

## ٥ ـ الصورة والاحلام .

اتخذ كثير من فنانى غرب اوروبا منذ عصر النهضة من الاحلام موضوعات صورهم ، فنجدهم قد شكلوا تكوينات ذهنية معقولة في ذاتها وان كان منطق الاحلام هو الذى يربط بينها واخرى خرافية مخيفة تعذب النفس بوحوشها وشياطينها . على ان هناك اختلافا تاما بين صور الفن وصور الاحلام رغم انبثاقهما من مصدر واحد ، ذلك ان الحالم سلبى يستسلم لتيار رؤاه الذهنية المتدفقة بلا هدف أو رباط ، في حين أن الفنان ايجابى يؤلف بين صوره ويخضعها لقواعده وصياغته الذاتية المبتكرة .

ثم ان وظيفة الفنان هى ان يستلهم اعماقه ويخرج ما فيها ويصوغه صياغة فنية تجعله جديرا باهتمام الآخرين قادرا على اثارة مشاعر اكبر عدد ممكن من المشاهدين . وقد يكون هذا هو اساس طبيعة العمل **الفنى المركبة : يغوص** الفنان في بادىء الامر في أعمق أغوار نفسه متخطيا حواجز الفكر **المنطقى** المستنير ليصل الى الوحى الكامن في اللاشعور الذى لا يلبث أن يطفو على السطح ، ثم يستخدم **قواه الذهنية** الواعية لتشكيل العناصر الجمالية . وقد تلعب الذاكرة دورا هاما في تكييف ما نظمه الذهن الواعى ، فتمد الخلق الفنى حينئذ بعنصر جديد هو الخيال بمعناه المحدود بتشكيل الصور الذهنية . فالخيال منبع الاحلام والابداع الفنى معا ، وهو يعين على اختيار الموضوع الفنى **ويحقق التوازن بين العالمين** الداخلى والخارجي . على أن هناك نوعين من الخيال سلبى وايجابى ، وليست للخيال السلبي قدرة فنية خلاقة ، ذلك لأن دوره في الخلق الفنى لا يتعدى دوره في الاحلام فهو يبرز خفايا النفس، تلك الصور التى أثرت أكبر تأثير في الذاكرة ، وكأنه ينتقى ما يريده الفنان من الصور التى تسترجعها الذاكرة من الماضى . وكان فنانو **العصور الوسطى يوحدون بين الانماط** الفنية مما يعوق انطلاقة الخيال المبدع التى لعبت في العصر الحديث دورا يفوق الدور الذى لعبه

المؤثرات البيئية فى تكييف الخيال الفنى. وعلى عكس الخيال السلبى الذى يعمل بطريقة شبه لا ارادية ، يعمل الخيال الايجابى عملا واعيا يستخدم فيه الذكاء والارادة ويلتزم عناصر الجمال . وليست اللغة الحيوانية لأحلامنا واللغة الانسانية لفننا الا رغباتنا التى يتشكل منها نسيج حياتنا وتعبر عن نفسها فى الصور والرؤى الذهنية .

غير ان هناك فارقا بين انعكاسات رغباتنا وبين الصور المعبرة عنها شبيها بالفارق بين عمل العبقرى المبدع وبين نقل المقلد الأمين عنه . فاذا كانت لصورة العبقرى الأصيلة دلالة فان الصورة المنقولة لا تتضمن الا ظلا من دلالة الأولى . وفي فن العبقرى خيال ايجابى يتيح له التعبير بلغة صامتة متميزة نابعة من رغبته التى تعكس حالته النفسية الخاصة ، كما يحلم رائد الصحراء الظامىء المحروم بينابيع الماء المثلج . ونحن نحس هذه اللغة الصامتة الخاصة فى أعمال كبار الفنانين من أمثال روبنس ورينوار اللذين يعبران عن تدلههما بجسد المرأة ( لوحة ٩ ) بل لقد أعلن **رينوار** صراحة : **« اننى اضاجع المرأة بفرشاتى »** .

وقد اكتشف التحليل النفسى فى الاحلام لغة خاصة بالخيال فى لغة الرموز . والرمز بطبيعته خادع عصيّ الفهم ، فقد يتخذ موقفين متباينين : قد يكون مباشرا يكشف عن الشىء الغامض بطبيعته، وقد يعمل على اخفاء المشاعر التى تحاول الظهور فنكبتها او نتجاهلها . هذه الامكانية المزدوجة جعلت من الرمز لغة قادرة على التعبير عن مشاعرنا وعن اخفائها كذلك . ولم يكن الانسان البدائى قادرا على التعبير عن مشاعره الخفية الا برموز مأخوذة من العالم المرئى . وقد نسق فيما بعد بين هذه الرموز المرئية، وشكل منها أسطورة خافية أسند فيها كل حدث لارادة كائن حى قد يخفى عليه، وكان يعتقد ان كائنا شبيها بالانسان يكمن داخل النار ، وان ثمة ارادة تختفى وراء ظواهر الطبيعة المختلفة . وذلك هو النهج الذى يتبعه الخيال مع الأحلام فهو يكشف عن خفايا النفس ويجسدها في شيء من العالم المرئى . وكذلك يفعل الشاعر والفنان حين يواجهان ما يعجزان عن التعبير عنه فيلجآن الى الرموز لأنها البديل الوحيد للمجهول والمعلوم معا .

فى أعماق الفنان غريزة خاصة هى غريزة ابتكار الرموز التى يستطيع من طريقها وبواسطة عملية اختيار ارادية خلق عالم مكون من عناصر الكون نفسها غير أنها تتآلف وتفهم حسب الدلالات التى يسبغها الفنان على الأشياء . وقد تحددت لعناصر الكون الرئيسية الأربعة ( الماء والنار والهواء والأرض ) دلالات رمزية فى عالم الفن : فالهواء شفاف مضىء رقيق لا تكاد تدركه الحواس وان أحس المرء به ، والماء ملىء بالألغاز غامض متحرك ، وفي النار رونق وضوء وحركة عنيفة ، والأرض ثقيلة جادة .

وقد تميز بعض الفنانين بغلبة أحد هذه الرموز على صورهم حتى سموا باسم هذا الرمز أو ذاك ، فأطلق على **« كورو »** اسم فنان الهواء ، وسمى **ترنر** بفنان الماء ، وقيل عن **فان جوخ** انه فنان النار ، أما **كوربيه** فهو فنان الأرض .

وقد برز فنانان فى معركة التحرير التى أدت الى ازدهار الفن فى العصر الحديث هما **انسور وشاجال :**

وقد ورث **جيمس انسور** الفنان البلجيكى الذى عاش في أواخر القرن التاسع عشر ذلك الولع بتصوير القبح والفزع في عالم مجنون لا يخضع

لمنطق الحياة : فوجوهه اقنعة وجماجم ، وخطوطه تتفتت ويدب فيها الفناء ، واشخاصه تتحول الى حشرات مخيفة ومضحكة معا ، ولوحاته كلها نهب للموت والضحك . على ان فنه هذا ليس وليد الصدفة والاعتباط ، بل وليد خيال تتحكم فيه ارادة صارمة ، ترى الاشياء جميلة والانسان قبيحا . وتتضمن كل لوحة من لوحاته تطبيقا فلسفيا يتناول البشر والعالم الذى يعيش فيه اشخاصه ، والذى يقدمه فى صورة مدمرة تتمزق معها الاواصر بين الناس ، وكأنه لا يرى الجمال الا حين يختفى الانسان ( لوحة ١٠ ) .

اما **شاجال** الذى يرجع اليه اغلب الفضل فى تحرير الصورة الفنية فتزخر لوحاته بمشاهد صباه في الاحياء اليهودية فى روسيا ، وبكل ما كان فيها من عاطفة وحنين الى الماضى الذى مضى ولن يعود ، وقد سجلها فى اوضاع لا تخضع لقانون الجاذبية و لالقواعد المنظور مما جعلها تبدو وكأنها معلقة فى الهواء لا تتحرك الحركات المألوفة ، ولا تتخذ الاوضاع المتعارف عليها ، فهى تحمل دون شك اثرا كبيرا من عالم الاحلام حيث يسبح الانسان فى الفضاء، وحيث تميل الدور على جوانبها دون ان تسقط ، فالزمن في رأيه — نهر بلا ضفاف — وقد كتب فى ترجمته الذاتية كلمة تعد مفتاح فنه فقال : **« يبدو لى ان الفن حالة نفسية قبل ان يكون شيئا آخر » . ( لوحة ١١ ) .**

• • •

## ٤ — الفن والفكر :

**يتلخص التباين بين الشرق والغرب فى ميادين الفكر والفن فى نظرة كل منهما الى جوهر الفكر البشرى المتبلور ، في التمييز بين العالم الداخلى والعالم الخارجى** ، فيهتم الغرب بتحديد هذين العالمين تحديدا ثابتا دائما ، فهو يفصل بينهما ويحاول تمييز كل منهما بعناصره الثابتة ، فاذا نظر الى الحياة الذهنية او الحسية بحث اولا عن الذات البشرية التى يعدها مركزا لكل شيء ، واذا نظر الى العالم الخارجي ركز اهتمامه على المادة المحسوسة التي تملأ الفراغ، ثم يسعى بعد ذلك للكشف عن قوانين بناء كل من هذين العالمين ، وهى قوانين العقل والمنطق التى تسود العالم الداخلي ، وقوانين الشكل والتشكل التى يقوم عليها العالم الخارجي ، وهكذا يقيم تعارضا بين العالمين حيث تقف **النفس** البشرية مسلحة بالفكر فى مواجهة العالم المادى ، تتأمل الكون كله بحواسها وتتعرف عليه بفكرها حتى تخضعه لاصول منطقها فى وعى وفهم دقيقين . ومع ذلك يرى الغرب قيام روابط كثيرة بين العالمين من خلال هذه المواجهة بينهما ، كتلك الروابط التى تجمع بين صديقين يتنافسان فى حلبة المصارعة وفق مجموعة من المقاييس المحدودة . ويضع الغرب معيارا يحدد الفواصل بين العالمين فهو يسلم بأن العالم الخارجى قابل للتغير وانه يخضع للقواعد التى يشكلها الانسان في ذهنه ، كما يخلق نوعا من التواطؤ بين ثبات المادة المحددة بحسب اشكالها وبين ثبات القواعد العقلية فى ذهن كل انسان. وهو بهذا لا يعترف بالنوعين الرئيسيين من انواع القلق الذى يمزق البشر ، وهما الشعور بالضياع اللانهائي والشعور بالارتماء على سطح مجرى الزمن المضطرب الصاخب ، الأمر الذى يطمئن البشر على وضعهم ويمنحهم قدرة على الثبات فى مواجهة اعاصير الحياة .

اما الشرق فلا يضع مثل هذه الفواصل المميزة بين الانسان والعالم ، ولا يسلم بوجود مسافة بين الانسان وبين ما يتأمله فى محاولته للمعرفة ، بل يقيِّم معرفة الانسان بالعالم على فكرة الاتحاد والالتصاق والحب ، حتى قال الفيلسوف الهندى « كبير » في القرن الخامس

عشر : « لقد جعل الخالق من العالم الداخلى والعالم الخارجي وحدة لا تتجزأ » . وليس هذا هو موقف « كبير » وحده بل انه موقف الفلاسفة ورجال الدين جميعا فى الهند ، فهم لا يؤمنون بوجود الحياة فى اعماق النفس وفى الطبيعة الخارجية خلف ستار المظاهر المادية الخادع . وقد نادى **بوذا** في القرن السادس قبل الميلاد بالغاء الفوارق بين الخارجي والداخلي لان الشكل يفقد معناه بالنسبة لذلك الذى اختفى وجمد ولم يعد من الممكن الامساك به ، كما انه لا يؤمن بوجود « الانا » بل بوجود « الاتمان » اى الذات غير المحددة ، ويعد الحياة سرابا ولا يؤمن الا بحقيقة وحيدة هى « السمسرا » اى محيط الحياة المتموج .

ويتجاهل الفن الشرقى الاشكال المحددة والتعبير عن الذات ، ولا يسعى الفنان الشرقي وراء الابتكار والاصالة ، وانما يمضى طيعا على نهج القواعد المتوارثة لانه يعد نفسه وسيلة اتصال بين الانسان والحياة الكونية غير العاقلة . وهكذا يحدد هدفه فى ايضاح لين الحياة وايقاعها اللانهائي . ومع ان فلسفة الهند الفنية هى فلسفة الشرق عامة ، الا ان هناك فروقا تتميز بها الفنون الشرقية الاخرى ، وتزداد هذه الفروق حدة فى الصين واليابان ، حيث نجد فنهما يقترب فى مفهومه من الفن الغربى لاهتمامه المتزايد بالحياة اليومية .

ومضى الغرب في طريق مختلف عن طريق الشرق ، فلم يشغل نفسه بالافكار الغيبية المتصلة بالحياة الكونية ، وجعلت الحضارة الاغريقية من الانسان اساسا للحقيقة ومقياسا لها ، بل لقد قال بروتا جوراس « الانسان مقياس كل شيء » .

كان احساس الانسان بالواقع عند الاغريق ادراكا دقيقا له ، وكان فكره وقواعد منطقه صورة لقوانين الطبيعة والبناء الكونى ، وشكل جسده وتناسبه نموذجا مصغرا للعالم المحيط به ، بل لقد اتخذ الفن الاغريقى من الجسد الانسانى موضوعه الرئيسي ومعياره لقياس اى بناء . كذلك اصبحت المظاهر التى حاول الشرق اختراقها للنفاذ الى سر الوجود هى اساس الواقع عند الاغريق ما دامت خاضعة لقوانين العقل البشرى الذى عدوه منبع الحقيقة كلها . وقام الفكر الاغريقى على قاعدة كبرى هى « الموضوعية والتجريد » ، فكان الانسان الاغريقى يأخذ الواقع اساسا للفكرة ، وينظر الى الانسان لكى يصل الى تصور الاله ، ويتأمل الطبيعة ليخلق الجمال الفنى النموذجى ؛ وهكذا تختلط فى الفكر الاغريقى المثالية والواقعية ، الحواس والعقل . ويستخلص الفنان الجمال من الطبيعة – على انه المادة الرئيسية فى تجربته الفنية – ثم يبرزه بجهده الفكرى . وقد لعب الفكر دورا هاما فى عالم الجمال عند الاغريق حتى انهم حاولوا رد نظرياتهم الجمالية الى افكار رياضية بحتة على غرار ما فعل **فيثاجوراس** حين قال ان العدد هو جوهر الاشياء . ذلك ان الاغريق ركزوا اهتماماتهم فيما يمكن تحديده ، وخاصة ما يمكن تحديده بالاعداد ، بينما لم تستطع روما بعد انتصارها على اليونان غير ابراز النزعة الطبيعية والمدرسية على حساب المثالية المجردة التى تجلت في الحضارة اليونانية وخاصة فى عمارتها القائمة على العلاقات والنسب بين الخطوط المستقيمة ، وهكذا ادخلت روما المنحنيات فى عمارتها والالوان فى فنها التصويرى .

على ان العبقرية اليونانية التى ضربت روما قاعدتها القومية قد انتشرت على شواطىء البحر المتوسط واخذت تمتزج بالتأثيرات

## عرض الكتب




# سيرة فرجينيا وولف [١]

عرض وتحليل الدكتور طه محمود طه

مقدمة :

يقول كارلايل : « لا توجد فى العالم ملحمة شعرية الا وكانت فى جوهرها سيرة ، حياة انسان . » ولهذا تختلف كتابة السير عن التاريخ اختلافا كبيرا ، كما يجب الفصل بينهما تماما ، فى الغايات والوسائل . على كاتب السيرة ان يتوخى الحرص فى معالجة الشخصية المبدعة . فحياة الفنان شجرة قد تموت اذا اقتلعناها لنتأمل جذورها . وفى الكتابة عن حياة الفنان ، الى اى حد نذهب ؟ هل نركز اهتمامنا على تكوينه الجسدى ـ وزنه وسنه وامراضه [٢] أم على فصيلة دمه ؟

(١) Bell, Quentin : Virginia Woolf Vol. 1 Virginia Stephen 1882 to 1912, London, 1973, the Hogarth Press.

Bell, Quentin : Virginia Woolf Vol. 2 Mrs. Woolf 1912 to 1941, London, 1973, The Hogarth Press.

(٢) Dr. Bett, W. R. : The Infirmities of Genius, London, 1952, Medical Viewpoints Series.

يعرض هذا الكتاب رأى الطبيب فى الانتاج الادبى لخمسة‌عشر اديبا منهم كارلايل وشيلى ووالت ويتمان وادجار الان بو وبودلير وبلزاك وبايرون ويبين ما للمرض والعلل الجسدية‌من آثار فى تكوين الفكر وفى خلق العبقرية .

من اى زاوية ننظر اليه ! شجرة العائلة ، امه وابيه ، الاماكن التى زارها ، المنازل التى عاش فيها، تكوينه الذهنى ، الحضارة التى امتصها، الكتب التى قراهـا ، يوم ان حملته امه (٢) وكيف وفى اية لحظة ! لكـل هـذه الاسباب مجتمعة وغيرها ، تظل حياة الفنان المبدع سرا غامضا مهما حاولنا سبر اغوارها . ويقول **يونج** ، وكأنه يحذرنا من التمادى فى هـذا التنقيب فى حياة الفنان : « ان كل انسان مبدع هـو فى الحقيقة شخصـان او مجموعة مـن الاضـداد ، ففى جانب مـن شخصيته نراه انسانا أو فردا له حياته الخاصة ، وفى جانب آخر نراه مجهولا ، مجرد عملية خلق وابداع . »

لم يحاول المؤلف ان يسبر غور نفسية فيرجينيا وولف ، ولم يستطع ان يعالج حياتها من زوايا معينة تعكس لنا طريقة المزج بين « **احداث الحياة المادية** » وبين « **عملية تكوين العمل الادبى** » . ويمكننا ان نقول بان العمل الادبي ولد فى مثلث منفرج الزاوية احد اضلاعه يمثل حياة الاديب المادية والآخر حياته الفنية. والعمل الأدبى محصلة القوتين ، ولكون المثلث منفرج الزاوية لايمكن ، علميا ، لأحد الاضلاع ان يصبح صفرا . فتجارب الحيـاة تصـقل الفنان وتؤثر فى أعماله بشكل ملحوظ حتى ولو حبس نفسه فى برج عاجى يعزله عن العالم من حوله . واذا نجح كاتب السيرة فى ابراز هذه المعادلة الصعبة اعطى حوادث التاريخ بعدا نفسيا ينفذ الى اعماق العمل الادبى ويفجره أمام القارىء . فالفنان انسان حر ومقيد فى آن واحد ، وعلى كاتب السيرة ان يقيّم فى كل مرحلة من مراحل حياة الاديب ذلك التفاعل بين البيئة والمجتمع من جانب ، وحياة الفنان وقدراته الخلاقة من جانب آخر.

نجد مؤلفنا مشغولا طول الوقت بقصاصات من الورق والمذكرات واليوميات والتسجيلات، نجده يرقب خطواتهـا وتحركاتهـا وسكناتها كالمخبر او كرجـل البوليس ، تضيع وقتـه ووقـت القارىء فى تفاصـيل لامغزى لها ـ كشراء فستان او حضور حفل او الانتقال من منزل الى آخـر او استقبال زوار . وهـذه اللحظات المتفرقة فى حياة الفرد لاتظهر اهميتها الا بعد فترة طويلة ، فهى ذرات تشبه الواحدة منها الالكترون . ومراقبة ورصـد الكتـرون واحد من المستحيل علميا ولكن العالم ( كاتب السيرة ) يستطيع ان يراقب سلوك «مجموعة» منهـا ليـستطيع التنبؤ بمسارها . فذرات الحياة اليومية متشابهة يصعب ، كما فى علم الفيزياء ، ان نفرق بين واحدة واخرى . فلا نرى بين تناول الافطار او الغداء او العشاء فى اى يوم من ايام الاسـبوع ، او الخـروج للتسـوق او للرياضة او ركوب قطار او طائرة. ولكن عندما تبدأ هذه الذرات ( وتهتم فيرجنيا وولف بها اهتماما بالغا فى قصصها ) فى التراكم وفى التشكل فى قوالب ، تتخذ لنفسها انماطا مميزة وتتلاحم لتأخذ مسارا معينا ، بعد ان كانت مجرد لحظات متفرقة . ومـن هنا تبرز سمات الشخصية الفنية وتتحـدد ملامحها الرئيسـية . ثم تدور هذه الذرات او اللحظات فى مدارات معينة حول بؤرة او نواة هى جوهر الذات الفنية ، التى سرعان ماندرك ان هـذه الذرات المدارية ماهى الا اشعاعات تخرج من النواة ذاتها ـ جوهر الفنان ـ بعد ان كانت فى بادىء الامر تأتى مـن الخارج لتلتصـق

( ٢ ) ذهب لورنس ستيرن الى هذا الحد فى قصته« تريسترام شاندى » ويعتبر المجدد الاول فى فنون القصة الحديثة ( ١٧١٣ ـ ١٧٦٨ ) .

بالنواة . وفى مجال هذه القوة النووية يتفاعل الفنان والانسان . وهذا هو ما فشل فيه الكاتب كما سنبين ، وكما يبوح بنفسه لنا فى الجزء الثانى وفى صفحة ١٠٩ حين يقول :

« في الفترة بين يونيو ١٩٢٥ وديسمبر ١٩٢٨ انتهت فيرجينيا من كتابة « الى الفنار » وجاءتها فكرة « الأمواج » ، وهما كتابان اجمع كثير من النقاد على انهما من انجازاتها العظيمة . وربما يكون هذا هو المكان المناسب الذى يجب عنده ان نحاول دراسة عقلها وهو يعمل حتى لو اضطررنا ، فى هذا التفحص والتدقيق ، الى التخلى عن اى ادعاء لحرصنا على منهج التسلسل الزمنى ونغامر ، بل ونخاطر ، بالولوج الى دائرة يصعب علينا بكل تأكيد ان نجد فيها طريقنا بسهولة . ولقد اشارت فيرجينيا الى مخاطر هذا الاتجاه بقولها : « ... ومع ذلك يدعى كاتبو السير انهم يعرفون الناس » .

وياليته تعلم منها ، ويؤكد لنا انه « لكى يلم كاتب السيرة بما يعتمل في نفس المؤلف فعليه ان يكون اما انها او يكون المؤلف ذاته . » وعندما انكبت فيرجينيا وولف نفسها على كتابة سيرة صديقها الرسام **روجر فراى** لم تجد فى ذلك العمل لذة تذكر ، فقد كانت سيرته مجرد سرد منظم لوقائع حياته ، وقائع سهلة بسيطة لم تستطع ان تمارس فى سردها حريتها الادبية . وكان ذلك يضجرها .

كان من الصعب على المؤلف ان يدرك المعانى الخفية التى تكمن وراء هذه الحقائق البسيطة السهلة ، فقد كان اتجاه فيرجينيا وولف منذ البداية اتجاها « صوفيا » . لم تكن الحرب الأولى ولا الثانية اغنيتها المفضلة ، ولم تهتم بالسياسة او الدين ، ولكنها حرصت على تذوق كل قطرة من قطرات الحياة يعادل فرحها بقالب من الزبد تتسلمه من صديقة لها اثناء الحرب ، أو بقطعة من السمك تقوم بقليها فى الزيت وكان التجربة تجربة فنية كما يقول لنا صديقها فورستر .

مايهمنا فى هذه الترجمة هو تسجيل المؤلف لحالاتها النفسية المتعاقبة ومنها نرى انها كانت متصوفة تعشق الحياة بالوانها المختلفة . وناخذ عليه انه لم يتعلم من فيرجينيا وولف طريقة رسم الشخوص من عدة زوايا فى آن واحد ، وانصاع بل واستسلم للسرد الخطى الزمنى ، فخرج التمثال في بعد يخلو من التجسيد . كان يجب عليه الا يرقب تحركات جسدها بل تنوع فكرها بصورة اعمق . كنا نود مثلا ان نراه يناقش اثر فلسفة **جورج مور** الجمالية فى فكرها وفي مجموعة بلومزبيرى ، ففى فهرس الجزء الاول له سبع اشارات وفى الجزء الثانى اشارة واحدة . وبينما تحظى قصتها « مسز دالواى » بثلاث اشارات نرى ان علاقة فيرجينيا وولف الآثمة بشقيقها من زوجة أبيها تحظى بنصيب الاسد .

كان الباحثون ينتظرون ظهور هذه السيرة بفارغ الصبر . فحتى عام ١٩٧٢ لم يكن لدينا فى مكتبة فيرجينيا وولف سيرة يعتمد عليها . وكان الباحث يلجأ ــ للتعرف على خلفية اعمالها وحياتها ــ الى كتاب **آيلين بيبيت** « الفراشة والنجم » الذى صدر عام ١٩٥٥ وبه فقرات طويلة مقتبسة من الرسائل المتبادلة بين فيرجينيا وولف وفيكتوريا ساكفيل ويست . وكان المصدر الثانى هو « اليوميات» الذى صدر عام ١٩٥٣ محتويا على مجموعة لاباس بها من مذكراتها ويومياتها وتقع فى ٢٨ جزءا ، وتعتبر المصدر الثرى لتفهم فنها القصصي وطريقتها فى التفكير . والمصدر الثالث ترجمة **لينارد وولف** الذاتية ونشر

الجزء الاول منها « **البذر** » Sowing عام ١٩٦٠ ، والثاني « **النمو** » Growing عام ١٩٦١ ، والثالث « **البداية من جديد** » Beginning Again عام ١٩٦٤ ، ثم « **انحدار على طول الطريق** » Down Hill all the Way عام ١٩٦٧ ، واخيرا « **العبرة بالترحال لا بالوصول** » The Journey not the Arrival عام ١٩٦٩ . ويعتبر كتاب **كوينتين بيل** الاول « **بلومزبيرى** » Bloomsbury ١٩٦٨ افضل بكثير ، ولو انه قصير ، من كتابه الحالي .

## الجزء الاول : ١٨٨٢ ـ ١٩١٢

يخيل لقارىء العمل الادبي احيانا ان الاديب يحاول ان ينقل له تجربة ذاتية معينة يدسها خلال ثنايا عمله الادبي. ويود القارىء والدارس معا لو انه كان على علاقة اوثق بالاديب الذي يقرأ له ، يود ان يعرف عن حياته شيئا ييسر له طريقه فيما غمض من جوانب اعماله ، ويعينه على تعرف طريقه في متاهاته . وقراءة السير قد يكون نوعا من الفضول وحب الاستطلاع ويشهد على ذلك اهتمام القراء بصفحات الاجتماعيات في الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية . والمام القارىء بجوانب عديدة من حياة الكاتب شيء مستحب يعاونه على تكوين فكرة شاملة ، وان كان هذا المنحى في النقد الادبي والذي يعتمد على تفسير العمل الادبي في ضوء حياة صاحبه احد المدارس النقدية القديمة . يريد القارىء ان يعرف سبب هذا الفتور الجنسي في قصص فيرجينيا وولف ، وسبب انتحارها . يريد القارىء والباحث ان يكون على صلة بالمؤلف ، بزوجها، باختها ، بصديق حميم ، ليطلعنا على دخائل اموره . وذلك كله ، ربما ، لارضاء غريزة حب الاستطلاع فينا اولا ، ولتوضيح الجوانب الغامضة في العمل الادبي ثانيا .

يطل بنا الكاتب في الجزء الاول على اسرة فيرجينيا وولف قبل مولدها باكثر من مائة عام. وتمتد جذور الاسرة الى منتصف القرن الثامن عشر في مقاطعة ابردين باسكتلندة . لقد وضع الجد **ستيفن** ثقته في خالقه حتى ليخيل للمرء ان بينه وبين الله عمار . تراه يطارح امراة الغرام ، وفي نفس الوقت ينجب من امراة اخرى طفلا . ويتزوج الاولى وتجد الثانية لنفسها زوجا ويصبح ابن السفاح فيما بعد قسيسا مبجلا .

من الصفحات الاولى ـ ومن صورة المؤلف على غلاف الكتاب ـ يظهر لنا جليا روح المؤلف التهكمية الساخرة المرحة واسلوبه الذى لا يخلو من الاشارات والتلميحات الخفية . ينجب السيد ستيفن سبعة ابناء وبنتين ، وحسب تقاليد العائلات في ذلك الوقت ينتشر الابناء على وجه الارض بحثا عن المغامرة والثروة . يتدرب احد ابنائه على اعمال المحاماة ثم يشتغل بالتجارة ، واخيرا تتحطم سفينته بجوار ساحل دورسيت ، لكنه يتمكن من انقاذ نفسه ومن معه من البحارة ويتزوج سيبلا ميلنر . ولم يحالفه الحظ في التجارة فاستقر به المقام في السجن . لكنه لم ييأس ، بل دفعه هذا المأزق الى التقاط قلمه ليكتب دفاعا عن نفسه وعن قضيته ، وبهذا صار مثالا يحتذى به من افراد العائلة فيما بعد ، وكان اول من يكتب كتابا عن عائلة ستيفن . ومنذ ذلك الوقت لم يحدث ان مر جيل من آل ستيفن دون ان يضيف الى انجازات العائلة الادبية .

استن' جيمس ستيفن لعائلته تقاليد معينة وهي مناقشة قضاياها كتابة ، وبسطها في قاعة المحكمة . لم يكتف رب هذه الاسرة بذلك بل اثار اعتراضات على طريقة معاملة السجناء في

السجن ذاته وكادت الامور ان تنتهي بثورة . فالسجن من أجل عدم الوفاء بالدين امر لا يليق بآدميين ، ويتنافى مع الحقوق الانسانية والعدل والسياسة . وادرك في النهاية ان مواهبه تناسب حرفة المحاماة لا التجارة . ولم يسمح له بممارسة المحاماة لانه كان يفتقر الى اصالة المحتد ، الى الثروة والجاه ، الى ضبط النفس . وتوفي وهو في سن السابعة والاربعين وترك ستة من الأولاد يهمنا منهم الثاني واسمه جيمس ( ١٨٧٩ – ١٨٥٩ ) .

والتحق جيمس بكلية ماريشال بابردين ليدرس القانون ، واكتشف أنه لن يستطيع ان يشق طريقه بسهولة ، فقد كان عليه ان يدرس اللاتينية . ولم يقف مكتوف الأيدى ، والتقط قلمه ليكتب احتجاجا ، ونجح وهو في سن السابعة عشرة ان يغير لوائح الكلية لكي تتفق وميوله ورغباته . واصبح فيما بعد عضوا بارزا في البرلمان وفي المجتمع وحصل على لقب سير . وورث عن والده حبه للعمل وكان يجد متسعا من الوقت ليملى اكثر من ٣٠٠٠ كلمة قبل تناول افطاره لتنشر في Edinburgh Review . كان عملاقا في الانتاج الادبي وعملاقا في تحصيله للمعرفة ولكنه كان تعيسا في حياته ، ولم تصل انجازاته الى مستوى مطامحه لانه كان متشائما جدا وخجولا جدا . كان مقتنعا بقبح وجهه ولم يسمح اطلاقا بوضع مرآة في حجرته . كان يأمل ان يكون قسيسا او ناسكا ، وكان يحرم نفسه من ملذات الحياة ، ويقال انه دخن سيجارا في يوم من الايام واعجب بمذاقه ونكهته الى درجة انه اقسم الا يدخن سيجارا مرة اخرى . وخطر بباله ان يلجأ الى السعوط كبديل وسرعان ما افرغ الصندوق من النافذة . وتسال زوجته ابنها فيما بعد : « هل تذكر شيئا فعله والدك لانه شيء سار ؟ » واجابها الابن بلباقة « نعم ، ذات مرة ، عندما تزوجك » .

قبل ان يفرغ المؤلف من سير جيمس ستيفن J. Stephen اراد أن يؤكد اهتمام العائلة بالفن واحترامها له ، ويقصد فن الكتابة ، اما الفنون الاخرى كالموسيقى والرسم فلم تحظ بقسط وافر من اهتمام العائلة ، وكان من بين اصدقائه جون ستيورت ميل . وانجب سير ستيفن اربعة أولاد وبنتا واحدة . وتوفي احد الاولاد في طفولته والآخر في ريعان شبابه وعاش الآخرون وهم جيمس وكارولين وليزلي : والد فيرجينيا . ووقعت كارولين في حب فتى ولكنه هجرها وسافر الى الهند ، ولم يسمع به احد فتحطم قلبها واقعدها المرض وهي في سن الثانية والعشرين وفي النهاية التحقت بجمعية دينية (٤) .

كان لا بد ان يبرز الاخ الاكبر في حياته وتوقع الجميع له مستقبلا باهرا في المحاماة بينما توقع الجميع للأخ الاصغر ، ليزلي ، بأن يكون قسيسا . واتجه جيمس الى لندن والمحاماة ثم الصحافة ، والتحق ليزلي بجامعة كمبردج ورسم قسيسا عام ١٨٥٩ كما كان متبعا في ذلك الوقت لمن يصبح زميلا بالكلية . وفي عام ١٨٦٢ وكان في سن الثلاثين نراه يخلع لباس الكهنوت ويتجه للحياة الدنيوية ويترك كمبردج ويذهب الى لندن معدما دون مستقبل واضح امامه . وفي لندن يساعده اخوه في الحصول على عمل الا وهو الاشراف على « قاموس السير الوطنية » ونعترف بفضله كمؤرخ وفيلسوف واديب ومحرر لمجلة كورنهيل . كان أسلوبه يتميز بالقوة والموضوعية وفي الوقت ذاته

( ٤ ) اشارة الى بيتر والش ومسز دالواى في « مسز دالواى » .

يتميز بالرقة والاخلاص وقوة التخيل ، اى انه كان اقرب الى الفنان الاديب منه الى الفيلسوف المؤرخ .

وتزوج من صغرى بنات القصصي الفيكتوري المشهور **ثاكرى** صاحب « سوق الغرور » Vanity Fair . ولا نعرف الكثير عن زوجته هذه فقد كانت ترتبط باختها ارتباطا قويا الى ان اكتشف ليزلى انه عندما تزوجها اصبح وكأنه قد تزوج الاختين . وتنافس الزوج والاخت في السيطرة على الزوجة . وانجب منها ابنته لورا عام ١٨٧٠ وتوفيت الزوجة وهى تضع مولودها الثاني عام ١٨٧٥ .

فى مساء ٢٧ نوفمبر ١٨٧٥ ، وقبل بضع ساعات من وفاة الزوجة ، قامت ارملة شابة تدعى مسز هيربرت دوكيرث بزيارة عائلة ليزلى . كان لها من زوجها السابق جورج وستيلا وجيرالد . ونشأت بينها وبين ليزلى صداقة بعد وفاة زوجته انتهت بزواجه منها ( جوليا ) عام ١٨٧٨ . وكانت امرأة شجاعة استطاعت ان تعنى باولادها الثلاثة وابنة زوجها المجنونة لورا . كان ليزلى فى الخمسين وهى فى سن الاربعين وما زالت امرأة مخصبة . واضافا فانيسا بعد عام واحد الى العائلة وفى العام التالي انجبت ولدا ( توبى ) . وهنا صمما على الحد من النسل فقد كانت احوال العائلة غير مرضية . ولكن ادوات منع الحمل لم تكن متطورة وبعد عام ونصف وصلت فيرجينيا ولحقها فى العام التالي ادريان (٥) .

## فيرجينيا ستيفن :

لقد ادركت فرجينيا منذ البداية ان الدماء التى في عروقها تأتى من رافدين ، وان القدر قد شاء ان تكون سليلة أسرتين تختلفان في العادات والثقافة . وذهبت الى ابعد من ذلك كما يقول المؤلف :

« كانت تعتقد ان هذين الرافدين المتنافرين المتنافسين يتصادمان ويتدفقان ويجريان باضطراب دون تآلف وانسجام في دمائها » .

لقد كان عرق آل ستيفن يتميز بسلوك اسرى معين ، فقد كان معظم افراد الاسرة من اصحاب القلم يتمتعون بموهبة الكتابة ويجدون لذة فى التعبير عن انفسهم باللغة الانجليزية . ولكنهم كانوا يكتبون باسلوب تطغى عليه روح الحيثيات في القضايا ، وينظرون الى الادب على انه وسيلة للاقناع وليس غاية فى حد ذاتها . كانوا يهتمون بالحقائق الملموسة والوضوح ولا يهمهم الحس والعاطفة او جمال الفنية أو صورة . كان لآل ستيفن شجاعة خلقية وقوة بدنية وطاقة ذهنية . كانوا يخطون امامها كالعمالقة ، شخصيات قوية فى مقدورها ان تقترف أعمالا وحشية (٦) .

اما افراد عائلة والدتها **( آل باتيل )** فلم يكونوا من المفكرين او الكتاب او الادباء ، بل كانوا يتميزون بجمال الوجه ودقة التقاطيع والاناقة والارستقراطية . ونرى هذا الجمال فى صور افراد العائلة وخاصة فى نسائها ، تلك النساء اللاتي افتتن بهن الرسامون . ويمكن ان نطلق على هذين الرافدين « النثر والشعر » ، « الادب والفن » ، المذكر والمؤنث ، « الرجالي والنسائي » .

يزخر الجزء الاول بتفاصيل كثيرة عن حياة فيرجينيا ـ مولدها وطفولتها وصباها وشبابها .

---

( ٥ ) لمسز رامزاى فى « الى الفنار » اربعة اولاد وبنتان.

( ٦ ) ترمز مسز رامزاى فى « الى الفنار » الى زوجها فى اماكن عديدة فى القصة « بمنقار نحاسى » Beak of Brass

فهي لم تتعلم الكلام الا في سن الثالثة ، وعندما انطلق لسانها بالكلام اصبحت الكلمات اسلحتها المفضلة . كانت حجرة الاطفال مكانا للحب والمنازعات في آن واحد . ونشأت بينها وبين اختها فانيسا علاقة خاصة بالرغم من التباين الواضح في الشخصيتين ، ومنذ البداية اتفقتا على ان تصبح فيرجينيا كاتبة وفانيسا رسامة . كانت فانيسا تصر على ابراز العاطفة في شكل منظور ، اما فيرجينيا فكانت ترى العاطفة على انها شيء يفوح عطره في حوار بين شخصين .

لم يحرص الوالد على ان يقوم بمراسيم التعميد لأولاده . وقبل أن تبلغ السابعة من عمرها كانت والدتها تعلمها اللاتينية والفرنسية والتاريخ ، بينما اخذ الوالد على عاتقه تعليم اولاده الرياضيات بالاضافة الى الرسم والرقص والموسيقى وحسن السلوك والمشي والجلوس . ونقرا عن محاولاتها الأولى في الكتابة ويلاحظ المؤلف قدرتها على خلق المواقف ووصفها ، كما يلاحظ ان خلق الحبكة هو موطن الضعف في قصصها .

قضت فيرجينيا فترات سعيدة من حياتها في مدينة سانت آيفز الساحلية وتدخل الفراشات والبحر والامواج وسمك البيلشارد حياتها في وقت مبكر (٧) . كانت هذه الفترة اسعد فترات حياتها ، ولكن سعادتها في هذا الفردوس لم تدم طويلا وسرعان ما اطلت اشباح الجنون والموت والفاجعة على حياتها . فقد أصيب ستيفن ، ابن عمها ، في حادثة اثرت على قواه العقلية ففقد صوابه . واخذت تصرفاته تقلق بال الاسرة وتهدد حياتهم ، واخذ يطارح ستيلا الغرام ويلاحقها في كل مكان . ثم تدهورت صحة والدها عام ١٨٨٨ واصيب بازمة حادة ويلازم الفراش عام ١٨٩١ ، وبنصحه الاطباء بالتخلي عن الاشراف على ( قاموس السير الوطنية ) كان اكثر ما يشغل بال رب الاسرة حالتهم المالية . وحاولت الزوجة ان تخفف من اعبائه بتحمل مسئوليات كثيرة ، واعتلت صحتها وتوفيت عام ١٨٩٥ . وحزن الزوج على زوجته حزنا شديدا وكان في سن الثالثة والستين ويحتاج للرعاية . وتسلمت ستيلا امور المنزل .

## جورج وحياة فيرجينيا العاطفية :

بلغ اخوها ( من امها ) السابعة والعشرين ، واخذت تصرفاته حيال فيرجينيا وستيلا كما يقول المؤلف ، تتحول من مجرد حنان وعاطفة نحو اختيه الى عاطفة مشوبة يشوبها ميل جنسي . فكان يداعب اخته فيرجينيا وهي تستذكر دروسها وتنتقل المداعبة فيما بعد الى حجرة النوم . ويدخل كيوبيد حياتها في غير صورته التقليدية وتتعرف على « الحب » بصورة تختلف عن الصورة الافلاطونية البريئة التي رسمتها في ذهنها . واحست فيرجينيا ان جورج قد افسد حياتها العاطفية قبل ان تبدا ، ولما كانت تخجل من هذه النواحي الجنسية والعاطفية آثرت الصمت واصبحت ترتعب منها واضطرت ، لكي تحمي وتحصن نفسها منها ، الى اتخاذ مواقف سلبية جامدة باردة حيالها (٨) . ولا يستطيع المؤلف ان يجزم بان هذه الصدمة العاطفية هي التي ادت الى تلك الهزات النفسية العنيفة التي اصيبت بها فيرجينيا فيما بعد ، وربما عاود جورج وقاحته في تاريخ لاحق بعد وفاة والدتها .

---

( ٧ ) انظر اعمالها : « الامواج » ١٩٣١ ، « موت الفراشة ومقالات اخرى » ١٩٤٢ .

( ٨ ) يظهر هذا الاتجاه واضحا في قصتيها « مسز دالواى » ، ( الى الفنار ) في العلاقات الزوجية .

لقد بدات حياتها العاطفية بجرح غائر لم تستطع منه الشفاء ، كما انها لم ترغب طوال حياتها في الاعتراف بهذه الذكريات الاليمة او في تذكرها . ولكنها كانت تذكر وتتذكر ما يصاحب هذه الحالات النفسية من اعراض جسدية . ففي مذكراتها في هذه الفترة لا تذكر ما تعرض له ذهنها من اضطراب وتشويش ، مع علمنا بانها كانت تسمع ما اطلقت عليه فيما بعد « تلك الاصوات المرعبة » ، بل تشير الى عوارض اخرى جسدية فيرتفع نبضها الى درجة لا تطاق ، وتصبح سريعة الغضب عصبية المزاج ، ثم سرعان ما يصيبها الاكتئاب والفتور . اصبحت تخشى الناس وتخافهم وتحمر وجهها خجلا اذا ما خاطبها احد ، وكانت لا تنظر الى قريب وجهه في الطريق وتمشى منكسة الراس .

لم يكن في وسع طبيب العائلة ، الدكتور سيتون Seton الا ان يمنعها من القراءة والدراسة . فاشار عليها باتباع نظام بسيط في الحياة مع نزهات قصيرة خارج البيت اربع ساعات يوميا . كانت مهمة ستيلا ان تخرج معها في هذه النزهات اما على الاقدام او تصاحبها الى الطابق العلوى في الاوتوبيس (٩) .

وتزوجت اختها ستيلا عام ١٨٩٧ من **جاك هيل** ، واستقر راى فيرجينيا ، اخواتها منذ ذلك اليوم على كتابة اليوميات . وواظبت فيرجينيا على الكتابة لفترة ستة اشهر . وفي هذه اليوميات نرى نواح متعددة من جوانب شخصيتها . فنراها تشمل الزيارات المختلفة لحديقة الحيوانات ومعارض الفنون والمسرح او لما عرف فيما بعد بالصور المتحركة او السينما في قاعة البرت .

## شبح الموت يطاردها :

تصاب اختها العروس بالتهاب في الغشاء البريتوني وتسجل فيرجينيا ذلك في يومياتها بتاريخ ٢٩ ابريل ١٨٩٧ وتمر الازمة بسلام ويامر الطبيب بخروج ستيلا في نزهات قصيرة وكان على فيرجينيا ان تصاحبها . وخيل اليها ان الشوارع تعج باشباح الموت في كل مكان . وتتعرض لحادثة فعلا في ٢٥ فبراير ، وفي ٢٦ مارس تشاهد مركبة وهى تدهس سيدة على دراجة ، وفي ٨ مايو تشاهد حادثتين في بيكاديللى ، وفي ١٢ مايو يسقط حصان احدى هذه المركبات ميتا امامها ، وفي ١٣ مايو ترى اصطداما بين عربة يجرها حصان جامح وعربة نقل اخرى . ويتساءل المؤلف : هل حدث كل هذا فعلا ! لقد كانت صحتها بعد زواج ستيلا ومرضها في تدهور مستمر . ويفحصها الطبيب مرة اخرى ويصف لها العلاج السابق . ويعتقد المؤلف انها كانت تبالغ في وصف هذه الحوادث ولو ان حادثة السيدة التي دهستها العربة كانت قد وقعت فعلا .

وتتحسن حالتها في نهاية العام ، وكانت ستيلا على وشك ان تضع مولودها الاول . ولكن فيرجينيا كانت تحس احساسا عميقا بان نهاية ستيلا قد دنت وتدون في يومياتها : « لقد عوفيت هذه البقرة واصبحت مرحة ، تنط من سريرها الخ ... الحمد لله ، ومع ذلك ـ » ومن « مع ذلك » هذه يدرك القارىء ان شيئا ما كان على وشك الحدوث ، ونجدها في اواخر شهر ابريل تشكو مما كانت تسميه « التململ » ، نوع من القلق والاضطراب النفسى . وتواسيها اختها ستيلا وتغادر

(٩) انظر تاملات مسز دالواى وهى في الطابق العلوى من اوتوبيس في مدينة لندن .

منزل ستيلا الى منزلها، وبعد ايام ابلغها جورج وفانيسا بان ستيلا توفيت اثر عملية جراحية.

كانت وفاة ستيلا ماساة بحق . ونجد فيرجينيا تتجنب الرجال وتقع في حب مادج ( من فرع عائلة والدتها ) وتعترف فيما بعد بانها المراة الوحيدة التي احبتها (١٠) وكانت عاطفة فيرجينيا تختلف عن عاطفتها نحو جورج . ويكتنف الغموض تحركات الاسرة التي تنتقل فيما بين عامي ١٨٩٧ — ١٩٠٤ الى منزل رقم ٢٢ هايد بارك جيت ، ويجمل المؤلف تفاصيل يوم عادي من ايام هذه الفترة على النحو التالي :

« يبدأ اليوم بجولة تقوم بها فانيسا على ظهر حصان اهداه لها جورج . يبدا الافطار في الثامنة والنصف صباحا ، فانيسا وجيرالد اولا ، ثم ليزلي وادريان ، وعادة ما يصل كلاهما متاخرين الى المدرسة . ثم تنزل فانيسا الى الدور الارضي لترتب مع صوق وجبات ذلك اليوم . وتتوجه على دراجة في رداء طويل وعلى راسها قبعة فضفاضة الى مدرسة السيدة « كوب »للفنون . وقد يقوم جيرالد بتوصيلها الى شرق المدينة بعربته وهو في طريقه الى دار النشر التي اسسها عام ١٨٩٨ . وينزل جورج وفيرجينيا فيما بعد وقد ارتدى جورج ابهى حلله استعدادا لحياة لندن . وربما يحكي لفيرجينيا عن مغامراته في الليلة السابقة وذلك قبل ان ينطلق الى عمله .. ويدخل ليزلي الى مكتبه ويظل فيه طوال ساعات الصباح بينما تصعد فيرجينيا الى الطابق العلوي ومعها ليدل وسكوت (١١) لتقرا سوفوكليس ويوربيديس ، او تخط رسالة او مقالا . كان مقرها المفضل حجرة الاطفال في اعلى المنزل ، وكانت تزخر بمجموعة كبيرة من الكتب . وفيها كانت تستقبل اصدقاءها ومدرساتها . كانت للحجرة ستائر زرقاء وجدرانها بيضاء ، وكانت طريقتها في الكتابة تثير العجب . كانت تستعمل مكتبا ارتفاعه ثلاثة اقدام وست بوصات وله سطح مائل . وكان المكتب مرتفعا لا يسمح لها بالكتابة الا وهي واقفة . وحاولت ان تعلل لهذا الوضع الشاذ : لقد كانت فانيسا ترسم على لوحتها وهي واقفة لكي تستطيع ان تبتعد عن اللوحة من آن لاخر وتنظر اليها عن بعد . وقد دفع ذلك فيرجينيا الى الاحساس بان عملها لن يكون على قدم المساواة مع ما تقوم اختها بانجازه الا اذا كتبت هي بهذه الطريقة — ولهذا كانت تقف ، ولسنوات عديدة ، في هذا الوضع الشاذ الذي انبها » .

وفي عام ١٩٠٢ انعم على والدها بلقب سير واصيب بالسرطان وتوفي في ٢٢ فبراير ١٩٠٤ .

**السلوك في السفر ، الانهيار العصبي الثاني ، محاولة الانتحار الاولى :**

ترك اولاد سير ليزلي منزلهم ، منزل الحزن المظلم ، الى منزل آخر على ساحل بمبروك . وفي اول ابريل ١٩٠٤ سافرت فيرجينيا وفانيسا وتوبي وادريان الى فلورنس ، ومنها الى باريس ليلتقوا بكلايف بيل ويزوروا مرسم رودين Rodin . وفي ٩ مايو تعود فيرجينيا واختها فانيسا الى انجلترا ، وفي ١٠ مايو يصيبها الانهيار العصبي الثاني ، فتنتقل الى مانور هاوس في نوتنجهام للاستشفاء .

بدات فيرجينيا تشك في اختها واتخذ حزنها على والدها طابعا هيستيريا ، وبدت المرضات،

---

( ١٠ ) تظهر في شخصية سالي في قصتها « مسز دالواي » .

( ١١ ) قاموس ليدل وسكوت ( يوناني — انجليزي ) .

وعددهن ثلاث ، وكأنهن شيطانات : كانت تسمع اصواتا غريبة تحثها على الاتيان باعمال حمقاء ، واعتقدت ان هذه التخيلات نتيجة للافراط فى الاكل فحرمت نفسها من الطعام . ونقلتها فيوليت ديكنسون الى منزلها فى بورنام وودز ، وهناك حاولت الانتحار بالالقاء بنفسها من نافذة ، ولحسن الحظ لم تكن النافذة عالية . كانت ترقد فى فراشها « **تستمع الى الطيور وهى تغني باليونانية ، وترى الملك ادوارد السابع مختفيا بين نبات الازاليه الصحراوى ويسب بلغة سوقية** » وظلت فيرجينيا « مجنونة » طوال هذا الصيف . ويعتقد المؤلف ان هذه المحاولة لم تكن الأولى فقد* قالت لجاك هيل عند وفاة الملكة فيكوريا فى يناير ١٩٠١ : « **جاك ، هل تعتقد انني سأنتحر ؟** » .

## جماعة بلومز بيرى والهروب من الماضى :

كان انتقال العائلة الى منزلهم الجديد في رقم ٤٦ ميدان جوردون بمثابة هروب من الماضى بكل مآسيه . كان اخوهم جيرالد سعيدا بانفصاله عن اولاد « ستيفن » ، ولكن چورج لم يقبل فكرة ترك اختيه مع توبى وادريان ، واصر على السكن معهم وواصل تودده لفيرچينا من جديد حتى تزوج من ليدى مارجريت .

واجتذب منزلهم في جوردون سكوير ـ مجموعة طيبة ومجموعة رديئة : مجموعة ديموقراطية ومجموعة ارستقراطية . ويمكننا ان نقول ان المجموعة الاولى كانت تتكون من هؤلاء الصامتين الهادئين الذين يبحثون عن الحقيقة ، يجلسون فى دائرة حول امامهم جورج مور وهم ساكسون سيدنى تيرنر ولينارد وولف وليتون ستراتشى ، والمجموعة الاخرى وهى اكثر اهتماما بالامور الدنيوية ، واكثر ثرثرة وضجيجا ايام الخميس من كل اسبوع ، وتتكون من توبى كلايف بيل وديزموند ماكارثى .

كان لينارد وولف اول الشبان الذين دعاهم توبى للعشاء ، وذلك قبل سفره الى سيلان فى ١٧ نوفمبر ١٩٠٤ ، وكان ذلك اول لقاء بين ليناردد وولف وفيرچينيا . ووصفه ليتون ستراتشى « بانه يشبه سويفت وعلى استعداد لقتل زوجته ! » فقد كان ليناردد يحتقر الجنس البشرى ونراه يترك انجلترا ليعيش فى الادغال ظل الغموض يكتنفه حتى عودته .

اما ليتون ستراتش فكان من الواضح أن اسمه سيلمع فى يوم من الايام ، بينما كان ديزموند ماكارثى على ثقة كبيرة بنفسه وسيما موهوبا . اما كلايف بيل فكان اقرب فرد فى هذه المجموعة ويهوى الرسم . وبدأ فيرچينيا صلتها بمحرر الملحق الادبى للتايمز ، واستمرت تكتب فى هذا الملحق حتى وفاتها . فقد دعا رئيس التحرير والدها للاسهام بانتاجه فيها عند نشرها عام ١٩٠٢ ونراه يتصل بفرچينيا في مارس ١٩٠٤ . وتميزت جماعة بلومزبيرى بالتباعد والتعالى ، الى حد ما ، وكان معظم افرادها من العقلانيين واصحاب الافكار الجديدة الجريئة في الادب والرسم والفن .

وفى عام ١٩٠٥ قامت بزيارة قصيرة لاسبانيا مع اخيها ادريان وخلفت الرحلة انفعالات شتى فى نفسها تظهر فى قصتها « رحلة الى الخارج » The Voyage Out . وفى هذا العام عاودها الحنين الى سانت آيفز فعادت اليها ووصلوا فى المساء حتى تولاند هاوس وكأنهم اطفال قد عادوا بعد جولتهم فى ضواحيها . وفتحت فيرچينيا بوابة المنزل بجراة ، وصعدوا الدرج المؤدى الى الباب الرئيسى وشاهدوا الجدار الحجرية واحواض **الزهور والشرفة والنوافذ**

المضيئة (١٢) . وكان المنزل يبدو وكانه في انتظارهم . ومكثوا في سانت آيفز حتى اكتوبر . وكان من دواعي سرورهم ان حظوا بمنظر صيد وفير من سمك البيلشارد . وبعد عودتهم الى لندن انشغلت فيرجينيا بالتدريس في كلية مورلى وهو معهد مسائى معظم طلابه من العمال والعاملات .

وجدت عائلة ستيفن انه من الواجب زيارة اليونان مهد الحضارة الغربية . وفي اوائل القرن العشرين كان من الممكن ان يعثر الرجل الانجليزى الذى نال قسطا من الثقافة الكلاسيكية على اشياء كثيرة مبهجة في اليونان وعلى الكثير ايضا مما يثير حزنه في اليونان الحديثة . فقد يذهب لليونان بحثا من فكرة معينة ويصدمه الواقع المر . وكان توبي من هذا الصنف من الناس ، وكانت فيرجينيا تراقب فرحه وخيبة امله باهتمام وتعاطف في آن واحد . وواصلت فيرجينيا رحلتها الى القسطنطينية ، وعاد توبي الى لندن مصابا بحمى التيفود وتوفى في ٢٠ نوفمبر ١٩٠٦ . وبعد وفاته بيومين وافقت فانيسا على الاقتران من كلايف بيل وتم الزواج في فبراير ١٩٠٧ .

**الرجل الاول فى حياة فيرجينيا ، تغير المناخ الفكرى :**

يعتبر **والتر هيدلام** اول « رجل » في حياة فيرجينيا العاطفية وكان يكبرها باربعة وعشرين عاما . ولم توافق فانيسا على هذه العلاقة لأنها كانت تراه زير نساء يهتم بالفتيات الصغيرات . وحزنت فيرجينيا عليه حزنا شديدا عندما توفى عام ١٩٠٨ .

وتاتى لحظة حاسمة فى تطور اخلاقيات جماعة بلومزبيرى بل وربما ، كما يقول المؤلف ، فى اخلاقيات الطبقة الوسطى بوجه عام في انجلترا . وتغير المناخ الفكرى والاجتماعى وترتب على هذا التغير نتائج خطيرة ولكنها لم تكن بالقوة التي تكفي لتغيير اسلوب حياتها واسلوب تفكيرها . ففى هذه الفترة ( ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ ) كانت تعد لميلاد «رحلة الى الخارج» وشغلتها هذه القصة فى السنوات الخمس التالية . **كما شغلت نفسها بكتابة مسرحية** لم يبق لدينا منها سوى فقرات مبعثرة ، بالاضافة الى قصة طويلة واخرى قصيرة . وكان على ما يبدو له سبع مخطوطات لقصتها « رحلة الى الخارج » حرقتها جميعها . والقت فيرجينيا بنفسها في دوامة العمل المتواصل فكانت تكتب المقالات لمجلة كورنهيل والملحق الادبى للتايمز والجارديان ، ولكنها لم تنشر اى قصة حتى بلغت الثالثة والثلاثين من عمرها .

ونعود بعد هذا الاستطراد القصير الى اخلاقيات جماعة بلومزبيرى . كان افراد المجموعة يعتقدون ان الشخص المناسب لفيرجينيا هو ليتون ستراتش ولكنه ، كما يؤكد المؤلف ، كان لوطيا . وتعلق اختها على هذا الراى : « **افضل ان يكون ليتون زوجا لاختى بدلا من اى رجل آخر اعرفه ولكن الطريقة الوحيدة التى اراها تحقق ذلك هى ان يقع فى غرام ادريان ( اخوها ) وحتى لو حدث ذلك فقد يرفضه ادريان** » . وفى هذا الخطاب اشارة واضحة الى شذوذه الجنسى . وسرعان ما يظهر على مسرح الحوادث زوج آخر هو ادوارد هيلتون يونج ، ولكنه لم يعجبها فقد كان كما وصفته اختها « كالفيل فى محل للخزف والصيني » . ويشير المؤلف ـ وهو ابن اختها فانيسا ـ الى التجاذب الذى حدث بين

( ١٢ ) انظر منزل مسز رامزاى فى « الى الفنار » .

ڤيرچينيا وزوج اختها ( والد المؤلف ) . فبعد زواج اختها وجد كلايف بيل نفسه متيما بحب ڤيرچينيا . ويستطرد المؤلف فيقول :

**« لقد لجأت الى كلمة « مغازلة » لانني لو اطلقت على هذه « المودة » كلمة « فضيحة » ، فقد توحي ان كلايف قد نال ماربه . ولكن الامر في الحقيقة لم يكن اقل او اكثر من خيانة زوجية لطيفة بسيطة انتهت في الفراش » . ( ص ١٣٣٠ ، الجزء ١ ) .**

ويسأل عما كانت تريد ڤيرچينيا من هذه العلاقة . ويجيب بانه لو كانت ڤيرچينيا قد وقعت في غرام احد فلن يكون سوى اختها ثانيا ، فالرسائل بينهما لم تنقطع ، وكلها تشبه الرسائل الغرامية. ويحاول تحليل هذا الموقف الغريب وتبريره بأساليب شتى . ونرى ڤيرچينيا تسجل في معرض حديثها عن عائلة بيل : « **سيتطلب الفصل بينهما** ( تقصد ڤانيسا وزوجها ) **بعض الوقت** » .

ان كان لهذه العلاقة اي اثر عاطفي في حياة ڤيرچينيا ، فهو نجاح كلايف في ان يجعلها تحس بحاجتها الى « رجل » ، وهذا هو ما فشل فيه والتر هيدلام من قبل . هذا بالاضافة الى انه كان يؤمن بعبقريتها ، وفي هذا المجال ايضا كان له فضل عليها يفوق فضل ليتون ستراتشي . فقد كان الاخير يرحب بمناقشة الموضوعات الادبية والفنية معها لا اعمالها هي ، بل ويعتبر نفسه ندا لها .

وفي ١٧ فبراير ١٩٠٩ يحضر ليتون ستراتشي الى منزلها ويطلب يدها ، وتوافق على الزواج منه . ولكنه اكتشف ان الامر ليس بهذه البساطة فقد راعه ان يكتشف انها من الجنس الاخر ( اللطيف ) وراعته عذريتها وسذاجتها . وانزعج حين ادرك انها قد تقبله زوجا ، وادرك ان جنة الزواج التي يحلم بها شيء مستحيل . وعاونته ڤيرچينيا على الفرار منها . لقد راودتها فكرة الزواج منه وراقتها ولكنها ، كما اعترفت فيما بعد ، كانت « جبانة جنسيا » ، وأن خبرتها الجنسية الوحيدة مع الرجال كانت تجربة مفزعة تثير الاشمئزاز . ومع ذلك كانت ترغب في الزواج ، فقد بلغت السابعة والعشرين من عمرها وتعبت من كونها عانسا ، تعبت من عيشتها مع اخيها ادريان . وكانت في حاجة الى زوج تحترم عقله وتفكيره ، فقد كانت **تقدر الذكاء الخلاق** . كان شذوذ ليتون الجنسي بمثابة مصدر ضمان وطمأنينة لها ، وكزوج لن يكون ملحا ولن يكون من الصعب « ارضاؤه » وكانت تأمل ان يتطور **هذا الزواج « الاخوي » في المستقبل الى علاقة** وطيدة بينهما . لقد كانت تجربتها مع ليتون تجربة فريدة محزنة حقا . وافترق الاثنان ، وذهب هو الى برايتون ، وشغلت هي نفسها بالعمل المتواصل . **لقد بدأ عام ١٩٠٩ بداية** محزنة وانتهى بتصدع **العلاقات** بين افراد جماعة بلومزبيري .

## ڤيرچينيا ستيفن وامبراطور الحبشة :

يأتي عام ١٩١٠ وبالتحديد في ١٠ فبراير ونرى ڤيرچينيا في القطار المتوجه الى وايموث من محطة بادنجتون وقد ارتدت عمامة شرقية وحول رقبتها سلسلة ذهبية تتدلى حتى خصرها وترتدي قفطانا مطرزا ، وقد صبغت وجهها بصبغة سمراء وعلى وجهها شارب ولحية انيقة . كان الثلاثة الآخرون في صحبتها ـ دنكان جرانت وانتوني باكستون وجاي ريدلي يرتدون نفس اللباس . اما ادريان فكان يرتدي قبعة عالية وملابس رسمية ومعه هوارس كول في زي رسمي لموظف من وزارة الخارجية البريطانية .

كان الغرض من هذه الرحلة خداع البحرية البريطانية واختراق الحراسة المضروبة حول السفينة الحربية دريدنوت Dreadnought والتمتع بجولة على احدث قطعة بحرية في الاسطول البريطاني .

وقد خططت فيرجينيا لهذه العملية بمساعدة كول الذى خطط لخدعة مماثلة عندما زار جامعة كمبردج على انه سلطان زانزبار ، واستقبله عمه وكان عمدة المدينة وطاف به فى ارجاء كليات الجامعة ثم ودعوه بحفاوة حتى محطة القطار . وابلغ كول جريدة الديلى ميل بالخدعة وغضب عمه منه .

وكانت عملية السفينة الحربية مماثلة . فقد ارسل احد اصدقاء كول لقبطان السفينة برقية مذيلة بامضاء وزارة الخارجية تعلنه فيها بزيارة امبراطور الحبشة للسفينة زيارة رسمية . ونفذت الخطة ، ووصلت الحاشية مع الامبراطور لتجد فى استقبالها ضابط الاتصال على ظهر السفينة . واستعرضوا حرس الشرف وتولى ادريان ترجمة خطاب القبطان للامبراطور ( فيرجينيا ) بلغة هى خليط من اللغة السواحلية واللاتينية واليونانية .

ونقل كول الخبر ونشرته جريدتا الاكسبريس والميرور في الصفحة الاولى وبعناوين رئيسية ، وزاد اهتمام الصحفيين عندما علموا ان فيرجينيا كانت احد افراد الحاشية .

## الانطباعية المتاخرة : Post-Impressionism

تعرف كلايف بيل عام ١٩١٠ على الفنان روجر فراى ، واصبح مع فانيسا من انصاره المتحمسين ، فقد اشرف روجر فراى على معرض الفن الانطباعى المتاخر عام ١٩١٠ . ولم تهتم فيرجينيا بهذا الفن فى بادىء الامر ، وبعد زيارات روجر فراى لمنزلها وبانضمامه لجماعة بلومزبيرى تغير مزاج المجموعة الفنى ، واعتنقوا مذهب سيزان التجديدى ، ولم تعد فلسفة جورج مور تستقطب افكارهم ، واغتصب سيزان عرش جورج مور كما اغتصب روجر فراى منصة ليتون ستراتشى .

وتوطدت العلاقة بين فيرجينيا وروجر فراى بعد زيارة للقسطنطينية واخذ يكتشف ابعادا جديدة فى شخصية فيرجينيا . وتتعقد العلاقات الانسانية والعاطفية مرة اخرى وتتشابك . فتميل فانيسا الى روجر فراى وتعجب به ، وفي النهاية تستسلم الاختان للامر الواقع . ففى عام ١٩٠٨ . كانت اجتماعات جماعة بلومزبيرى تتميز بالحوار المكشوف اما في عام ١٩١٠ فكانت تتميز بالعلاقات والتصرفات المكشوفة دون حياء وكتبت فيرجينيا تقول : « ان الطبيعة البشرية تغيرت فى ديسمبر ١٩١٠ » واقترحت فانيسا ان يكونوا جمعية متحررة من كل القيود وخاصة الجنسية . ولم يكن ذلك مستغربا فقد حضرت فيرجينيا وفانيسا الحفل الراقص الذى اقامه الفنانون الانطباعيون فى فساتين عارية الكتفين قصيرة وكانهما فتاتان من لوحات جوجان . ودار همس في هذه الفترة يؤكد ان فى جوردون سكوير مارست فانيسا الجنس مع مانياردكين علنا فى حجرة استقبال ازدحمت بالمدعوين . ولكن المؤلف ينفي هذه الشائعة .

هكذا تعاقب العشاق والمعجبون ـ كلايف بيل ووالتر لام وسيدنى واترلو . ومن الشخصيات التى توافدت على منزلها والتر لام وادوارد مورجان فورستر . وفى عام ١٩١١ دعت فانيسا اختها لقضاء اجازة فى منزل ريفى في جيلفورد . وهناك التقت فيرجينيا بافراد جماعة جديدة اطلقت على نفسها « الوثنيون المحدثون » ، وكانت خلفية هذه

## الجزء الثانى : ١٩١٢ – ١٩٤١ :

### العروس :

ارتاح أصدقاء فيرجينيا لنبأ خطبتها الى ليناردو ماعدا كلايف بيل . ويحكى لنا المؤلف عن مقابلة فيرجينا لعائلة وولف . ولم تترك المقابلة اثرا حسنا فى نفسها فقد كانت مسز وولف والدة ليناردو « تراس » عائلة كبيرة .

تم تسجيل عقد الزواج فى مكتب تسجيل سانت بانكراس وربما كان ذلك هو السبب فى عدم حضور مسز وولف . وتم التسجيل بسرعة لم يرتح لها مسجل عقود الزواج ، فقد كان ضعيف البصر وكان اليوم ممطرا تخلله البرق والرعد ، واختلطت عليه الاسماء الغريبة « فيرجينيا وفانيسا » ولم تتركه فانيسا يؤدى عمله ، بل كانت تقاطعه من آن لآخر لتسأله عن الخطوات القانونية التى عليها ان تتبعها لتغير اسم ابنها فى السجلات . وانتهت مراسيم « كتب الكتاب » وبدأ شهر العسل ، وفكر العروسان فى قضائه فى ايسلنده فى بادىء الامر ثم استقر بهما الرأى اخيرا على اسبانيا . وفى برشلونة كان الطعام رديئا ، وفى مدريد كانت الحرارة لاتطاق ، فهربا الى توليدو ومنها الى ساراجوسا . ومن اسبانيا توجها الى مرسيليا ومنها الى شمال ايطاليا ثم البندقية وعادا فى ٣ اكتوبر ١٩١٢ الى منزلها فى ميدان برنزويك .

اكتشف الاثنان بعد زواجهما ان كلامنهما يكمل الآخر ، وكان الحب الذى بينهما من القوة بحيث استطاعا التغلب على مشاكل الزواج فى المستقبل وعلى جنون فيرجينيا . ويجب ان نؤكد ان هذا الحب لم تمتد جذوره الى الحياة الجسدية . كان اصدقاء فيرجينيا يأملون ان ينجح ليناردو فى ان يعيد اليها انوثتها



ولثقتها بنفسها ويجعلها اكثر استجابة ، ويعاونها فى التغلب على الخوف من « الرجل » . وتبدد هذا الامل فقد ارسلت من ساراجوسا لصديقتها كاترين كوكس تحدثها عن برودها الجنسى وينتهى خطابها بقولها : « ربما مازلت الآنسة س . »

وبعد عودتهما الى انجلترا استشارا فانيسا فكتبت بدورها تقول : « كان يبدو انهما فى غاية السعادة ولكن من الواضح انهما كانا قلقين بشأن برود فيرجينيا . يبدو انى ازعجتها ولكننى واسيته بقولى اننى كنت اعتقد انها لم تفهم او تقدر الرغبة الجنسية فى الرجل . ومن الواضح انها مازالت لاتجد لذة اطلاقا فى العملية الجنسية وهذا غريب . كانا يتشوقان لمعرفة المرة الاولى التى احست فيها بهزة الجماع . ولم اتذكر . »

كانت فانيسا وليناردو ومعهما فيرجينيا يميلون الى القاء اللوم على جورج الذى خلف فى حياتها الجنسية هذا الجرح الغائر ، وربما كانت على استعداد نفسى بطبيعتها للتنور من هذا اللقاء الجسدى بين الرجل والمرأة ، وربما

كانت الشهوة الجنسية ضعيفة فيها . وكتبت فيتا ساكفيل ويست فيما بعد : « لقد كانت **تبغض حب التملك وحب السيطرة في الرجال وتكره فيهم صفة الفحولة »** . وبالرغم من ذلك كله كانت تود لو انها انجبت اطفالا . ولكن الاطباء اجمعوا على انه من الخطورة ان تصبح « اما » . وظلت طوال حياتها تحسد اختها فانيسا فقد انجبت ثلاثة اطفال ، مؤلفنا احدهم .

وانتهت من قصتها **« رحلة الى الخارج »** في مارس ١٩١٣ وفي احدى فقرات القصة وصف لحالتها النفسية ، ونوبات الارق التي كانت تعانيه :

« تلك الليالي الطويلة التي لا تنتهي عند الساعة الثانية عشرة ولكنها تمتد الى الاعداد المزدوجة الثالثة عشرة فالرابعة عشرة وهكذا حتى تصل الى العشرينات، ثم الثلاثينات وبعد ذلك الى الاربعينات . . . وليس هناك ما يمنع هذه الليالي من أن تفعل ذلك اذا ارادت . »

وتسوء حالتها الصحية وتشتد فيها النزعة الانتحارية ، فتتناول مائة حبة من حبوب الفيرونال لتقضي على حياتها وتظل في رعاية الممرضات حتى نهاية العام .

ويلقي المؤلف باللوم على فانيسا وادريان . كان يجب عليهما ان يطلعا ليNARD قبل زواجه منها على حالتها بالتفصيل . لقد حرصا على اخفاء جنونها . وحاول زوجها علاجها عن طريق الراحة والاسترخاء وتناول الوجبات في مواعيد منتظمة وتجنب الاثارة الذهنية . كان يقرأ في ذلك الوقت « تفسير الاحلام » لفرويد . ومن العسير علينا ان نجزم بفائدة التحليل النفسي في حالتها وكثيرا ما يحجم المحلل النفسي عن علاج المرضى الذين اصيبوا بالجنون فعلا . وربما عجز فرويد نفسه عن علاجها بعد انهيارها العصبي الاول . ولم يسمع احد بنظريات فرويد في انجلترا عندما اصابها الانهيار العصبي الثاني في ١٩٠٤ . وحتى في عام ١٩١٣ لم يكن العلاج النفسي الفرويدي معروفا . فقد بدأ ارنيست جونز يمارس العلاج النفسي في لندن عام ١٩١٣ . وتعد مدام مايكوكاميا Mme, M. Kamiya حاليا سيرة باثولوجية لفرجينيا وولف وربما تساعدنا على تفهم مرضها النفسي ، وعلى ما اذا كان للتحليل النفسي امل في شفائها . ويبدو لكاتب السيرة ، كما بدا لزوجها ، ان مرضها هو الجنون الاكتئابي، وهو مرض لا يستجيب المريض فيه للتحليل النفسي .

### فشل العلاج بالعمل ، مطبعة هوجارت :

بدات تماثل للشفاء اوائل عام ١٩١٥ وبدات في كتابة يومياتها واحتفلت بعيد ميلادها الثالث والثلاثين في ٢٥ يناير . واستقر رايها ، ووافقها زوجها ، على شراء آلة للطباعة والاقامة في هوجارث هاوس في ريتشموند . ولم يمض شهر حتى يعاودها الصداع وتدخل احدى المصحات في مارس ، وفي الشهر ذاته تنشر **« رحلة الى الخارج »** ( ٢٦ مارس ١٩١٥ ) .

تميز هذا الانهيار عما سبقه في المرحلة الاولى ، فتراها تدخل في مرحلة من مراحل جنون الثرثرة والتشوش الفكري والاستمرار في الكلام دون توقف حتى ينتهي بها الامر الى اللغو والبربرة ، ثم تسقط مغشيا عليها وتظل في غيبوبة لفترة طويلة . وفي نهاية عام ١٩١٥ اصبح من الجلي انها لن تعود امراة عادية ، وكان من المتوقع ان يعاودها الجنون في اية لحظة وتصاب بنكسة اشد واقوى من التي قبلها .

فبعد عامين من النوبات المتعاقبة كان من الواضح ان عقلها قد اصابه خلل ، وان شخصيتها قد اهتزت بعنف .

## الحرب العالمية الأولى :

عزلتها مطبعة هوجارث عن لندن في الفترة ١٩١٥ – ١٩١٦ ، **« وتلاشت جماعة بلومزبرى كما يتلاشى ضباب الصباح »** واستقطبت الحرب اصدقاءها ، ففى يناير ١٩١٦ صدر قانون التجنيد الاجبارى والتعبئة العامة ، واستدعى كل او معظم اصدقائها للجيش ، وبالطبع رفضوا التجنيد احتجاجا على هيستيريا الحرب . وواجه معظمهم المحكمة ، التى وان كانت قد اكبرت فيهم روح الاخلاص والصدق ، الا انها حكمت عليهم اما بالعمل اليدوى او بالسجن او بارغامهم على الالتحاق بصفوف المقاتلين . وفى مواجهة الخطر الداهم تجمع اعضاء بلومزبرى مرة اخرى .

تتبع فيرجينيا في قصصها لتلك الفترة منهجا واضحا وتسير على نسق معين : ففى الصفحات الاخيرة من **« رحلة الى الخارج »** نراها وقد ازاحت الغطاء لتكشف عما يعتمل فى عقلها الباطن ، ويغفو الرقيب الفرويدى وتزحف احلامها من كهوفها وتخرج وتطل علينا بشياطينها . لقد كانت تلعب بالنار ودفعها هذا الكتاب الى **حافة الجنون المطبق** ، ولم تكن على استعداد للمجازفة بمخاطرة اخرى ، ولهذا نراها تبدا فى كتابة شيء **« معقول »** شيء **« هادىء »** ، يخلو من الانفعال العصبى والافكار **« الغريبة »** وظلت تسير على هذا المنوال :

فترى **« أور لاندو »** تتبع **« الى الفنار »** ، وقصتها **« فلوس »** تاتى بعد **« الامواج »** وتاتى **« ثلاث جنيهات »** بعد **« السنوات »** – كتاب من الوزن الثقيل يتبعه آخر من الوزن الخفيف ( ما كانت تطلق عليه كلمة **« املوحة »** او **« مزحة »** ) . كانت قصتها « الليل والنهار » ١٩١٩ من النوع الخفيف ، عمل « استجمامى » هذا بالاضافة الى عملها فى « الملحق الادبى للتايمز . وتتسلم مطبعة جديدة وتضيف مطبعة يدوية اخرى الى دار هوجارث وتشغل نفسها عام ١٩١٨ بجمع الحروف ورصها وتنتهى من كتابة اكثر من مائة الف كلمة « فى « الليل والنهار » .

وتدق اجراس النصر فى ١١ نوفمبر ١٩١٨ وفي ١٥ نوفمبر يلتقى الشاعر توماس ستيرنز اليوت بفيرجينيا وولف لأول مرة .

## « عوليس » وفيرجينيا واليوت :

ذهبت هاريت ويفر ، صاحبة مطبعة اجويست Egoist ، فى ابريل ١٩١٨ ، ومعها مخطوط **« عوليس »** لجيمس جويس ، وكانت تأمل ان تقوم دار هوجارث بنشرها . كانت **« عوليس »** عملا ادبيا لم تستطع فيرجينيا وولف ان ترفضه او تقبله ، لقد اعجبت بالقصة وكانت عبقرية جويس واضحة فيها كل الوضوح ، لقد اثارت القصة فيها الاعجاب والحسد والخوف في آن واحد . كانت تعتقد ان للقصة جوانبها الجمالية ولكنها لا تخلو من الخشونة والسوقية احيانا . لقد خيل اليها ان كاتبا آخر قد انتزع قلمها من يدها ليخط فى جراة ماعجزت هى عن التعبير عنه او خجلت من كتابته . لقد هالها ما رات فى « عوليس » وكانت تضع جويس فى مرتبة واحدة مع ازرا باوند « المعلم الكبير » وتشير اليهما بعبارة « هؤلاء الناس » وكانهم من العالم السفلى . وبثاقب بصرها احست باهمية هذا العمل ، ولكنه كان يفوق امكانيات مطبعة هوجارث البدائية . كان عليها ان تبحث عن

جامع حروف محترف ، هذا بالاضافة الى ان اصدقاء ليونارد حذروه من مغبة نشر « عوليس » ، فقد تعرض دار هو جارث للمحاكمة والكتاب للمصادرة . (١٣)

ومن اهم الصعاب التى واجهت فيرجينيا فى تلك الفترة مشكلة الخدم والاعمال المنزلية . كانت تقضى حوائجها اما سيرا على الاقدام او باستعمال دراجة . ولكى تحصل على الضوء كانت تلجأ الى الشموع التى كان شحمها يتساقط على السجاجيد ، او تلجأ الى المصابيح التى تعمل بالكيروسين ودخانها ، وتقليم اشرطتها وتلميع وتنظيف زجاجاتها كل صباح. كانت تحصل على الدفء باستعمال الخشب او الفحم ، وكان عليها ان تحمل الفحم فى دلو كبير وتنظف المدفاة من الرماد . ولكى تحصل على ماء ساخن للاستحمام كان عليها ان تسخنه فوق الموقد ، اما الماء البارد فكان عليها ان تضخه من مضخة خارج المنزل الى خزان كل يوم . لم يكن هناك حمام في الطابق العلوى، ولا مرحاض ، وكانت اعمال الطهى والتنظيف اعمال مضنية وقذرة وبطيئة .

حظيت فيرجينيا فى هذه الفترة بصداقة اليوت . كان في نظرها رجلا امريكيا انيقا مهذبا . وذهب اليها اليوت ومعه ثلاث او اربع قصائد ، وكانت معجبة به لذكائه وشاعريته وان لم تتفق معه فى كل آرائه . فقد كان يؤمن بعبقرية ازرا باوند ، كما كان شديد الاعجاب بجيمس جويس . ووافقت فيرجينيا وليونارد على نشر قصائده واعدت للطباعة في يناير ١٩١٩ .

وتضخم العمل فى المطبعة ، ونشرت لاليوت وكاترين مانسفيلد وميدلتون مورى وفورستر وماكسيم جوركى . واشتغل الاثنان فى جمع الحروف وفى الطباعة وتنظيف الالات واللصق والتجليد والتغليف وتصدير الطرود والرد على الرسائل . وظل جميع من يعملون في مطبعة هو جارث يحلمون بأن هذا العمل الجهنمى المضنى ربما يؤدى فى النهاية الى الراحة التى ينشدونها في جنة الجماليات .

وفى يونيو ١٩٢٢ يحضر اليوت الى مطبعة هو جارث ليقرأ **« الارض الخراب »** وتكتب فيرجينيا فى مذكراتها :

> « لقد غناها وانشدها ونغمها . وهى تتميز بالجمال وقوة العبارة ، التناسق ، الكثافة . ما الذى يجعلها تتماسك ؟ لست ادرى ... وعلى كل حال فهى تخلق فى الفرد عاطفة قوية . اسمها « الارض الخراب » وتفسرها مارى هتشنسون ... على انها سيرة توم ( اليوت ) الذاتية ـ سيرة مقتضبة » .

وكان من الظلم لشاعر موهوب كاليوت ان يكد فى عمله موظفا مغمورا فى احد البنوك . وافتتحوا له اعتمادا لجمع ٣٠٠ جنيه سنويا ولمدة خمس سنوات ليوفروا له تفرغا لشعره. وكان الحساب باسم اولد نجتون وليدى اوتولاين وفيرجينيا في بنك لويدز ووزعت ليدى اوتولاين منشورا على الاصدقاء تحثهم على التبرع . واجتمعت فيرجينيا باليوت وفورستر فى ٢٢ سبتمبر ١٩٢٢ ودارالحديث حول « عوليس » واعجبت فيرجينيا بدفاع

(١٣) See Ellmann, R. : James Joyce, London, 1959, O.U.P. Beach, Sylvia : Shakespeare and Company, London, 1959, Faber & Faber, pp. 55 et seq.

اليوت عنها وبتحليله للقصة ، ثم جاء موضوع العون المالى فرفض اليوت قبوله بالرغم من اقبال المتبرعين على العطاء .

وبدأت فيرجينيا في الاعداد لقصتها « مسز دالواى » ، وخرجت قصتها « حجرة يعقوب » الى النور في اكتوبر ١٩٢٢ ، وتعتبر بداية لنضوجها الفنى وشهرتها .

## فيرجينيا ومسز رامزاى في « الى الفنار » :

نراها بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٢٥ وكأنها مسز رامزاى . ومن الممكن استخلاص بعض خيوط هذه الفترة من خصلة حياتها على النحو التالى : حسرة دائمة وداء عضال ، عدم قدرتها على انجاب الاطفال ، حسد يأكل قلبها من آن لآخر ، فقد استطاعت فانيسا ان تكون اسرة وبالرغم من مسؤولياتها العائلية استطاعت ان تعيش عيشة اكثر طلاقة وحرية من حياة فيرجينيا . احست فيرجينيا بان حياتها ، وقد جاوزت الاربعين ، قد بدأت تفلت من بين يديها ، وانه من الممكن ، كما تكرر وتؤكد في « الى الفنار » (١٤) ، ان تمسك بهذه الحياة وبهذه اللحظات ، او على الاقل ، وبطريقة غامضة ، من الممكن ان تجعل نبض هذه الحياة يدق ببطء .

وتاقت الى المدينة ، وعادت الى لندن لتحتك بمجموعة جديدة من الشبان المرموقين امثال جورج رينولدز ، وانجوس دافيد سون ، ولوكاس ، وريموند مورتيمر ، ولورد ديفيد سيسيل .

## « مستر بينيت ومسز براون » او الصراع بين القديم والجديد :

يعد يوم ١٨ مايو ١٩٢٤ يوما مشهودا في حياة فيرجينيا ، فقد دعيت الى القاء محاضرة عن « الشخصية في فن النثر الحديث » امام جماعة في كمبردج تطلق على نفسها اسم « الملحدون » او « المارقون » . واختارت عنوانا للمحاضرة : « مستر بينيت ومسز براون » وصارت المحاضرة فيما بعد بمثابة بيان ادبى عن آمال المحدثين وتبدأ المحاضرة : « نحن نرتجف على على شفا عصر من أعظم عصور الأدب الانجليزى » وكانت تشير بالضمير « نحن » الى « الطليعيون » . وكما يحدث في مثل هذه البيانات الادبية او السياسية ، يطالب اصحابها بافساح المجال للجديد ، وبازاحة العوائق التى تقف في طريق هذا الزحف ، ومنها بعض المعوقات التى تراكمت وتكلست على مر العصور : تلك القصص الانيقة المهذبة المصقولة ، تلك السير الرائعة والتراجم المسلية ، تلك الآراء النقدية المائعة المداهنة ، تلك القصائد والاشعار الموسيقية العذبة التى تتغنى ببراءة الازهار والاغنام والوديان الخضراء والعيون الزرقاء والتى يطلق عليها جمهور الناس « الانتاج الادبى » . وأول عمل جاد امام هذا الفريق المجدد هو ازالة آثار بينيت وجالزورلى وهـ . ج . ويلز ، (١٥) فهم الاعداء الحقيقيون الذين نجحوا في طمس الغاية الفريدة للادب ، وهى « كشف الحقيقة التى تجسدها مسز براون الغامضة . » فلا يحدثنا بينيت عنها الا فيما

(١٤) تكرر عبارة Life Stand Still here عدة مرات في القصة ، وترمز لوحة ليلى بريسكو الى توقف الزمن وتجميده .

(١٥) انظر « اعلام القصة في الادب الانجليزى الحديث » لطه محمود طه ، القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٦٦ ـ المقدمة ص ١٠ ـ ٥٠ .

يختص بإيجار حجرتها ، ويقول لنا ويلز ما يجب ان يكون عليه ايجار حجرتها ، اما جالزورثى فيخبرنا بانها لا تستطيع ان تدفع ايجار حجرتها ، ولا يستطيع احدهم ان يكشف عن شخصية مسز بروان الحقيقية ويسبر غورها لانهم لا يهتمون « بجوهر » مسز براون. كانت شخصية مسز براون متقلبة تتغير كالحرباء حسب الموقف والمناسبة ، تتغير بتغير الزاوية التى نطل عليها منها . وفى النهاية تصبح مسز براون ( او اى شخصية ) مجرد « شىء » او « موضوع » ، مجموعة من الخواطر ، حزمة من الذكريات ، بعضها واضح حاضر فى ذهنها ، والبعض الاخر عالق وملتصق بافكار وذكريات شخصيات اخرى ، وهذه الذكريات تظهر ثم تختفى لتحل مكانها ذكريات اخرى . وتستطيع مسز براون اليقظة الواعية ان تتذكر اسمها وتعرف جيدا انها مسز براون ويمكنها ان تتذكر عمرها ولكن من العسير عليها ان تتذكر اول وجبة ولكنها ، مع ذلك ، تستطيع بطريقة غامضة ان « ترى » لعبتها الاولى : ذلك الدب الصغير ، وخاصة عيونه السوداء التى تشبه الازرار اذا اشتمت رائحة اثاث معين . هذه هى مسز براون التى لم يعرفها بينيت اطلاقا ولا سمع بها ويلز . وعندما تموت مسز براون ويتحلل جسدها ويختلط باديم هذه الارض ، فربما لا يبقى لدينا منها سوى هذه السحابة من الذكريات ، هذه الحبات التى ينظمها ويربطها خيط رقيع لا تكاد تراه .

وبعد ان تحدثنا عن هذه المجموعة المادية « المضللة بفريقها الذى ينتمى اليه اعلام امثال فورستر ولورنس فهم يتميزون بالشجاعة والاقدام ، ولكنهم ضيعوا جهدهم الاكبر فى السير فى طريق شائك ، اما جويس واليوت ، فبالرغم من تجنبهم اخطاء كثيرة ، الا ان اتهامهما ممكن الاول لحجم مادته المروع ، والثانى لعدم انضباطه . ولكنها لن تقول لمن الغلبة : ومن سيحرز النصر . الا ان البيان يخطط لبرنامجها فى السنوات العشر التالية ، ويعطى بصورة واضحة فكرة عن حياتها .

وتنتهى من « مسز والواى » فى ٩ اكتوبر ١٩٢٤ ويقول لنا المؤلف انها لم تتحدث عن مؤلفاتها كثيرا فى رسائلها ولكنها فعلت ذلك فى رسالة للرسام جاك رافيرا الذى كتب لها يشرح وجهة نظره فى الفرق بين الكتابة والرسم . فمن الامور العسيرة فى الكتابة مسار الكلمات فى « خط » وكذلك الافكار ، الفكرة تلو الفكرة . فلا يستطيع القارىء او الكاتب ان يقرا او يكتب الا كلمة بعد كلمة . وعندما يكتب الاديب كلمة واحدة فهو كمن يلقى بحصاة فى بحيرة فيطير رشاشها اولا فى الهواء فى كل اتجاه قبل ان تغوص الى الاعماق مخلفة على السطح موجات دائرية تتسع وتتسع حتى تختفى فى اركان البحيرة الغامضة . وهذه الحركة لا يمكن لها ان تتم الا اذا لجأ الكاتب الى الفنون التصويرية المنقوشة ، كان يضع هذه الكلمة الموحية فى وسط الصفحة ثم يحيطها بزخرفات من المعانى المتداعية (١٦) . وهكذا يقترب الكاتب من الرسام فى تحقيق ما يمكن ان نطلق عليه التزامن او التواكب او التواقت او الآنية فى الزمان والمكان . ومن العسير على العقل ان يدرك بطريقة الجيشتالت هذا التواكب ، فالفكر يسيل فى « تتابع » والقارىء لا يدرك وهو يقرا فى صفحة ٢٧٥ مثلا ما يحدث فى صفحة ٣١ . وارسلت له فرجينيا تقول ان

( ١٦ ) لجا جيمس جويس الى هذه الحيلة فى فينيجانزويك .

الرسام يتمتع بموهبة التعبير وكان عليها ان تتجنب ، على حد قولها ، ( الشكل التقليدى **المحملة التى تشبه خط السكة الحديدية )** .

ونرى فى « مسز دالـواى » طريقة السرد الاشعاعية » التى تصور لنا فكرتين او اكثر فى آن واحد ، او كما يقول جويس (١٧) Two Thinks at a time وكان من الضرورى ان تضـع فى قصتهـا التالية « الى الفنـار » الرسامة ليلى بريسكو وتنتهى القصة بانتهاء لوحة ليلى الرتيبة : « ورسمت خطا هناك ، فى الوسط . » وفى الفترة من يونيو ١٩٢٥ الى ديسمبر ١٩٢٨ انمت « الى الفنار » ووضعت الخطوط الاولى لفكرة قصتها « الامواج » ونقرا فى مذكراتها :

« استيقظت ، ربما الساعة ٣ . آه انها تبدا ! انها آتية ــ
الرعب ــ فهى تشبه الموجـة المؤلمة التى تتضخم حول القلب ــ
تطوحنى في الهواء . انا تعسـة ،تعسة مكتئبة متقبضة ــ
يا الهى ، انى اتمنى الموت . ولكن لماذا هذا الاحساس ؟
لارقبن الموجة وهى تعلو . انى ارصدها ثانيـا . اطفال . اخفاق . نعم . انى ادرك ذلك . اخفاق . اخفاق . وتعلو الموجة . »

وتشير يومياتها في تلك الفترة الى صـورة مفزعة « لزعنفة » تتهددها بالخطر ، تراها تشق الامواج . وربما ترمز الى خطر داهم يلاحقها او الى حيوان يريد افتراسها .وترمز الزعنفة الى وحش شرير لـه انياب حـادة يكمن فى الاعماق احيانا وتارة يظهر على سطح الماء .

وتدخل فىدوامة الامواج حتى تصاب بانهيار مفاجىء فى ١٩ اغسـطس ١٩٢٥ وتظل معتلة لمدة شهرين .

## الرجل والمراة : اولارندو :

تتوطد « الصداقة » بين فيرجينيـاوفيتا ساكفيل ويست ( مسز هارولد نيكلسـون ) ويحرص المؤلف على ابراز هذه العلاقة بمثل حرصه على ابراز العلاقة بينها وبين كاترين مانسفيلد فيقول :

« لقد وقعت فيتا فى غرام فيرجينيا .ولما كانت غيورة متوقدة الحس احبتها كما لوكان رجل قد احبها . بتلهف رجالى لنوع من الاشباع الجسدى ــ حتىعندما كـانت فيرجينيا فى ذلـك الـوقت فى الاربعينات من عمرها ... وكانت قد فقدت سحر جمالها وبالرغم من رهبة فيتا منها . »

ومما لدى المؤلف من ادلة يتضح ان العلاقة كانت من جانب واحد . ولا تكتب فيرجينيا عن علاقتها بكاترين بمثل الحماس الذى اكتبته عن علاقتهـا بفيتا . ونجـد جـذور قصتها « اولارندو » في هذه العلاقة . فبطل القصة شاب وسيم يقع فيغرام ملكة سرعان ماتهجره. ويعتكف في منزله الريفى لتبـدا اعمال سير توماس براون ، وتمر حوادث القصة سريعة فنراه يقضى ليلة مع الراقصة روزنيا ثم يصاب بغيبوبة لمدة اسبوع يظل فيها فاقـد الوعى ويصحو ليجد نفسه قـد تحول الى

(١٧) James Joyce : Fennegans Wake, p. 583.

امراة وتعيش ليدى اورلاندو عبر القرون وتقابل العظماء والادباء وتتزوج من بحار وتنجب طفلا وتصل بها الى عام ١٩٢٨ لتستقر فى منزل ساكفيل العائلى !

هذا التحول فى شخصية القصة من رجل الى امراة يوحى باغرب التفسيرات والتاويلات كما يؤكد ، الى حد ما ، مايزعمه المؤلف من ان العلاقة لم تكن مجرد علاقة افلاطونية بين امراة واخرى بل تعدتها الى العناق والمضاجعة . ويصرح بانه مهما كانت نوعية العلاقة بينهما فهناك من الدلائل ما يوحى بانها « اى فيتا ، لم تثر فيرجينيا كما ان فيرجينيا لم تشبع فيتا » .

وتعتبر « اورلاندو » شبه ترجمة ذاتية لفيرجينيا لانها تخلد هذا الحب الذى تكنه لفيتا ، ومن القصة نلم باطراف حياتها اليومية فى هذه السنوات .

## فورستر واليوت وفيرجينيا :

يدخل فورستر حياتها مرة ثانية بعد ان انتهت حياته الادبية وبدات هى حياتهاالفنية . لم تشده تجاربها التجديدية فى كتابة القصة ، وكان يعتقد انها بعدت بقصصها عن التقاليد المرعية وبالتالى عن الحياة . كان يخشى كل منهما الآخر ، وكان فورستر سعيدا مع بنى جنسه من الرجال (١٨) ويجد فى « انوثتها » شيئا مزعجا .

كان يرتاح الى زوجها لينارد وهو الذى شجعه على الانتهاء من « رحلة الى الهند » وكان يتعاطف مع لينارد ، ويحس بانه يستحق منها ومن اصدقائها احتراما اكثر عن كونه مجرد « زوجها »

ومع اليوت تلتحم في مناقشة دينية ، فقد اصبح اليوت من اتباع الكنيسة الانجلو كاثوليكية .وتغيرت نظرته الى العالم واصبحت حياته مجرد فترة اعداد للاخرة . لقد استطاع ان « يخلص » نفسه بينما ظلت فيرجينيا ولينارد من المارقين المحكوم عليهم بالهلاك الابدى . ولكن المؤلف يقول لنا انه لواستعملنا كلمة « الدين » بمعناها الواسع العريض لوجدنا في قصصها شيئا من الدين ، فقد كانت تصف نفسها بانها « متصوفة » ، ولكنها لم تؤمن بالآخرة ولا بوجود الخالق وظلت طوال حياتها من اللا ادريين .

## الأمواج :

انتهت من « الامواج » فى ٢٩ مايو ١٩٣٠ ونقرا فى يومياتها . « سواء كانت جيدة ام رديئة ، لقد تمت . لقد احسست بكل تاكيد عند النهاية انها لم تنته فقط بل تمت ـ اكملت . لقد تمت صياغة الشىء فى عجلة ، مقطع الاوصال ، اعرف ذلك . ولكننى قد اوقعت فى شباكى تلك الزعنفة التى ظهرت على سطح الماء والتى رايتها فى المستنقعات من نافذتى » .

لقد وصلت الى القمة عند نشر « الامواج » في فبراير ١٩٣١ . وفى ٢٥ يناير ١٩٣٢ بلغت الخمسين من عمرها وبدات تشعر بالاجهاد جسميا وعقليا . وحزنت حزنا شديدا على وفاة صديقها ليتون ستراتشى ، لم تأتى وفاة روجر فراى عام ١٩٣٤ لتضيف الى احزانها .

---

( ١٨ ) انظر قصته « موريس » التى نشرت بعد وفاتهفقد بداها عام ١٩١٣ وانتهى منها عام ١٩١٤ ونشرت عام ١٩٧١ وفيها يناقش فورستر مذهب اللواطة . Homosexuality.

كان ليتون يمثل ماضيها وروجر فراى حاضرها. وزاد من حزنها ان صداقتها مع فيتا انتهت هى الاخرى ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل تعرضت قصصها وفنها في هذه الفترة لنقد شديد . وصفها الامير ميرسكي بانها عقلانية متعالية ووصفها سوينيرتون بانها **« بائعة متجولة تروج لمخدرات وافيون الراسمالية »** . لقد اساء اليها الاخير ولكن الطعنة التى عاجلها بها ويند هام ليويس . لقد كانت فى اعتقاده **« شيئا تافها » ، « فى غاية الضآلة » « ما عاد احد ياخذها ماخذ الجد في يومنا هذا »** .

واحست بافول نجمها . كان من الممكن ان تجد انصارا لها عام ١٩٢٤ فى فورستر ولورنس واليوت وجويس . وبعد عشر سنوات تبدل الحال ، وتغيرت الحرب الادبية لخلو الميدان من انصارها . كان ويلز هو الوحيد الباقى على قيد الحياة من الجيل القديم ، اما لورنس فتوفى عام ١٩٣٠ وكذلك ليتون وتوقف فورستر عن الكتابة ، اما جويس فكان مشغولا بكتابة « فينيجانز ويك » . اما الذين ظلوا احياء من معاصريها فكانوا الدوس هكسلى وبريستلى ووالبول وديفيد جارنيت ورز ماكولى ، ولم يتحقق لاحد منهم ان يواصل الكفاح والثورة على التقاليد الادبية التى كانت تنادى بها عام ١٩٢٤ . ونراها تقف وحدها وقد تغير المناخ الفكرى والادبى والسياسى ، وقد فقدت انصارها واعداءها على حد سواء .

بتغيير المناخ الادبى اخذ جمهور الادباء ينادى بالبعد عن الفن للفن والاتجاه بالادب الى « الالتزام » والى « الاصلاح الاجتماعى الفعال » . كان هتلر يمسك بزمام الامور ، واجتاحت اليابان منشوريا ، وفى عام ١٩٣٥ غزا الايطاليون الحبشة . وفي عام ١٩٣٦ بدات الحرب الاهلية الاسبانية . حرب بعد حرب بعد حرب ، وكانت فيرجينيا تكره العنف ، فهو مظهر من مظاهر الفحولة يذكرها بالرجل. وتداعى سوق الاوراق المالية فى امريكا وظهرت البطالة والثورة والثورة المضادة ، وبالتالى الشيوعية والفاشية ثم الحرب العالمية الثانية .

**« السنوات » :**

وواصلت الكتابة في « السنوات » ، وترى ان القصة طويلة ويجب تقليمها فقد كانت تختلف عن سابق قصصها . كانت تسير بها فى طريق مختلف قد يؤدى الى طريق مسدود. وعاودتها الاحلام المزعجة والاضطرابات الذهنية . وتعود اليها ثقتها بنفسها بعد ان قرأ زوجها المخطوط ويستقبل النقاد القصة بالترحيب والثناء .

ثم تصدم مرة اخرى ، ويقتل ابن اختها فانيسا ( جوليان ) فى اسبانيا واهتز جسمها وعقلها . كان فوت جوليان كموث توبى قبله بثلاثين عاما يشكل تحديا لها وكانت ندا لهذا التحدى .

ونشرت عام ١٩٣٨ « ثلاث جنيهات » وفيها تدافع عن الظلم وعن حقوق المراة ، ولكن حوادث تلك الفترة كانت تدور لا حول حقوق المراة بل حول حقوق الدول .

وتموت ليدى اوتولاين موريل فى ابريل ١٩٣٩ وكاترين كوكس فى مايو وام زوجها فى يوليو ١٩٣٩ . وامتلات شوارع لندن باللاجئين وكان منهم فرويد ، وزارته فيرجينيا واهداها زهرة نرجس !

كانت تقضى معظم وقتها في التجول فى شوارع لندن ، وكأنها تقول لها « وداعا » واعلنت الحرب في سبتمبر ١٩٣٩ . وفى مارس كانت قد رفضت الدكتوراه الفخرية من جامعة ليفربول .

قضت معظم وقتها بين عام ١٩٣٩ وعام ١٩٤٠ في منزل ريفي بجوار نهر اوز ، وطافت بذهنها فكرة الانتحار هي وزوجها واعدا لذلك العدة – اما عن طريق غاز السيارة المحترق او باستعمال المورفين . وفي مذكراتها ويومياتها تشير الى زمان ومكان الانتحار من آن لآخر .

وعدلت من وضع منضدتها ، فقد بدأت تعشق مناظر الطبيعة ، حتى تشرف على ربوع انجلترا الخضراء . وسقطت قنبلة بالقرب من المنزل وفجرت شاطىء النهر واندفعت مياه نهر اوز لتغمر الوديان وتسيل لتصل الى مشارف حديقة منزلها . وامام المنزل تشكلت وتكونت بحيرة امتلأت بالطيور المائية . وكان هذا مصدرا لسعادتها .

ونسأل متى بدأ الظلام يكتنف حياتها ونجد انه من الصعب ان تحدد لذلك وقتا معينا ، ونصل في يوميات لينارد الى يوم ١٨ مارس ويسجل ان صحتها معتلة . وعرضها على اوكتافيا ، طبيبة من اصدقائه . واخذها الى برايتون وفحصتها اوكتافيا ثم عادا الى رود ميل وارسلت اوكتافيا الى ڤيرجينيا رسالة تطمئنها ، وفي اليوم التالي اتصلت بهما تلفونيا للاستفسار عن صحتها ولكن الوقت كان قد فات .

في صباح الجمعة ٢٨ مارس ١٩٤١ خرجت ڤيرجينيا كعادتها الى حجرتها في حديقة المنزل وهناك سطرت رسالتين واحدة لزوجها والاخرى لاختها فانيسا . وفي الرسالتين تؤكد انها عادت تسمع هذه الاصوات المزعجة ، وانها على ثقة من استحالة شفائها . وعادت الى المنزل لتكتب رسالة اخرى لزوجها ، ثم انسلت خارج المنزل ومعها عصاها وشقت طريقها عبر الوادي الى شاطىء النهر . كان لينارد يعرف انها حاولت الانتحار غرقا قبل ذلك ولهذا نراها قد اعدت العدة هذه المرة لكي لا تفشل محاولتها . وتركت عصاها على شاطىء النهر وحشرت حجرا في جيب معطفها وسعت الى حتفها ، « الى تلك التجربة » وهذا ما قالته لصديقتها فيتا ، « التي لن اصفها » .

* * *